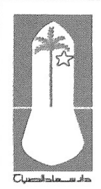
ف فكر

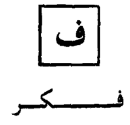


البوشيدو

المكونات التقليدية للثقافة اليابانية

تأليف : إينازو نيتوبى

ترجمة : د. نصر حامد أبو زيد



فكر

البوشيدو

المكونات التقليدية للثقافة اليابانية

تاليف

إينازو نيتوبى

ترجمة

د. نصر حامد أبو زيد



دار سعاد الصباح

إهـــــداء

إلى كل الشرفاء الذين لا يحلمون بمستقبل أفضل فحسب ، بل يساهمون في صنعه . إلى صناع الثقافة الوطنية في مصر والعالم العربي .

المترجم

شكـــر وعرفـــــان

يتقدم المترجم بالشكر لكل من قدم يد المساعدة والعون لاكتمال هذه الترجمة . ويخص بالشكر الأستاذ والصديق الدكتور / **حسن حنفى والاستاذ الدكتور / سيف الوادي الرميحي** والأستاذ / **ماسآو آبى** Masao Abe ، وقد تفضلت السيدة الفاضلة **تاكيكو نيتوبه** حفيدة المؤلف بالاهتمام بأمر هذه الترجمة ، وعن طريقها تم الحصول على نسخة من الترجمة القديمة . كما أنها تفضلت بإرسال بضع صفحات تحكي فيها بعض ذكرياتها الشخصية عن المؤلف .

وقد كان الصديق الزميل **محسن أوجاسا وارا** شديد الحماسة للإجابة عن أسئلتي عن كثير من المصطلحات اليابانية . إن العون الذى قدمته السيدة زوجتي بِنسْخِ الكتاب كله على الآلة الكاتبة ، والأهم من ذلك بتوفير الوقت والمناخ الهادىء للعمل ، عون يفوق كلمات الشكر والتقدير . إلى هؤلاء جميعاً كل الامتنان والعرفان .

تقـديـــم

١ ــ الثقافة وإشكاليات الترجمة

ليست اليابان في وعينا الثقافي إلا تلك الأسطورة التي حققت تطوراً اقتصادياً مذهلاً دفع بها إلى أن تكون في مقدمة الدول الصناعية خلال فترة من الزمن لا تزيد على عدة عقود من الزمان . ومع تحول مجتمعاتنا العربية إلى سوق استهلاكية رائجة ، تحولت صورة اليابان في الوعي العربي إلى منتج السيارة والأجهزة الكهربائية بدءاً من الكمبيوتر وانتهاء بالفيديو وجهاز الراديو . وعلى الجانب الآخر نجد أن صورة العربي في العقل الياباني هي صورة الثري المستهلك الذى يمتلك موارد الطاقة التي يعتمد عليها الاقتصاد الياباني اعتماداً شبه تام . ويمكن بكلمات أخرى أن نقول إن العلاقات اليابانية العربية عامة علاقات يسيطر عليها البعد النفعي المباشر من الطرفين سيطرة شبه تامة ، وإن كان ثمة محاولات من الجانب الياباني لفهم العقل العربي سنشير إليها فيما بعد .

ومع أن العلاقات الدولية تقوم أساساً على تبادل المنافع الاقتصادية ، فقد تطور وعي الجماعات البشرية ليدرك أن الثقافة والفكر ليسا إلا أبنية فوقية تصوغ حاجات الإنسان وتعبر عنها بطرائق مختلفة . لذلك تسعى كل جماعة بشرية لفهم الجماعات الأخرى لامن خلال إدراك الروابط النفعية المباشرة فقط ، بل من خلال فهم الثقافة والفكر ، أي من خلال فهم عقل الآخر وعواطفه . لكن علاقاتنا باليابان ظلت ــ لأسباب كثيرة ــ علاقة نفعية مباشرة لا تتجاوز علاقة المستهلك بالمنتج إلى أي شكل من أشكال الحوار الثقافي أو التلاقح الفكري .

وليس معنى تأكيدنا الجازم لانعدام الحوار الثقافي أو التلاقح الفكري خلو الساحة على كلا الجانبين من بعض المحاولات المتناثرة من هنا أو من هناك لتبادل المعلومات ، ولكنها ظلت محاولات خالية من الدقة والعمق وخاضعة في أغلبها للأهواء والأمزجة والنزعات الشخصية خاصة إذا كنا نتحدث عن الجانب العربي[1] .

وإذا كانت دراسة الثقافة والفكر واليابانيين دراسة عميقة تحتاج إلى اجتياز مجموعة من الصعوبات أهمها وأخطرها اللغة ، وهي صعوبات لا يزال الجيل الأول من باحثينا المصريين في اليابان يحاول التغلب عليها ، فإن هذه الصعوبات لا يجب أن تمثل عائقاً

يؤخر محاولتنا للفهم وتأسيس بدايات للتفاعل الثقافي والفكري . لقد كانت نقطة البداية دائماً في عمليات التفاعل الثقافي في تاريخ الحضارات هي الترجمة . وغالباً ما كانت الترجمة تتم عبر لغة وسيطة غير اللغة الأصلية للثقافة المترجم عنها ، وهذا هو ما يحدث الآن في ترجمتنا لهذا الكتاب عن اللغة الإنجليزية ، مع فارق هام هو أن الكاتب ياباني ، كتب بلغة غير لغته الأم . إن علينا أن نبدأ بداية ما من نقطة ما قبل أن يتمهد الطريق الذي يسلكه الباحثون .

ومما له مغزى في هذا الصدد أن هذا الكتاب نفسه قد سبق ترجمته إلى اللغة العربية عام ١٩٣٨ ، وقد عَلمتُ بأمر هذه الترجمة حين كنت موشكاً على الانتهاء من ترجمتي متصوراً أنها الترجمة الأولى . وحين قرأت الترجمة الأولى مقارناً بينها وبين الأصل الإنجليزي ازداد يقيني بأهمية الكتاب من جهة وبأهمية هذه الترجمة التي أقدمها اليوم من جهة أخرى . إن مجرد محاولة الترجمة ــ رغم ما شابها من عيوب ونواقص ــ تؤكد إحساس المثقف العربي بأهمية فهم الثقافة اليابانية ، وهو إحساس يعبر عنه المترجم الأول حين يقول : « طالما كنت أفكر ، وأنا خالٍ إلى نفسي ، فيما يكون اليابان ، وفيما تكون معتقداته ونظمه . وطالما كنت أذهب بعيدا في التبصر والتأمل كلما جالت في خاطرى غرائب هذه البلاد النائية ، وغامضات عاداتها وأساليب تفكيرها ، حتى بلغ اهتمامي في هذا الأمر حداً منعني عن كل شاغل ، وصرفني عن كل فكرة ، وأصبح السعي والاجتهاد بغية فهم تلك الجماعات البعيدة والإحاطة الدقيقة بمختلف أحوالها الدينية والخلقية غايتي المنشودة ، وعزيمتي التي عقدت عليها أخلص نياتي ، وجمعت في سبيل استجلاء المهم من ظاهراتها واستشراف المعقد من أغراضها أصدق جهودي وأوفر نشاطي اندفاعاً وقوة »[٢] .

لكن هذا الإحساس بأهمية فهم الثقافة اليابانية والرغبة في الكتابة عنها كانت تواجهها صعاب ، يشير إليها المترجم بأنها عقبات كأداء توهن عزيمته وتثبط همته : « فلا تراجم صحيحة تعرض لنا ــ في أسلوب تحليلي وطريقة علمية مفصلة ــ معتقدات هذه الأمة ومناهجها في فهم الحادثات الاجتماعية وتفسير النشوُ الكوني ، ولا استقراء دقيقا مسهبا نتلمس في نتائجه ومقدماته المصادر الصحيحة والمآخذ التاريخية التي تفتّقت منها

واندفعت من كُنْهها تقاليد هذا الشعب ومبادئه الخُلُقية والعلمية »[٣] .

وإذا كان المترجم قد وجد بغيته في هذا الكتاب الذى نترجمه اليوم فأحس بضرورة ترجمته وأهميتها ، فإن معرفته باللغة الإنجليزية لم تمكنه من القيام بهذا العمل « وحيث أني أجهل الإنجليزية استعنت بصديق لي فرنسي الأصل قضى أمداً طويلاً في الربوع الإنجليزية في ترجمة محتويات هذا الكتاب »[٤]وهذا اعتراف لا يحتاج منا إلى تعليق ، فقد كفانا المترجم بهذه الأمانة عبء معارضة الترجمة على الأصل لكي يتبين القاريء مدى ما أصاب أفكار المؤلف من تحوير وتشويه . وفي أحيان كثيرة كان المترجم يتجاهل الأصل تجاهلاً تاماً ويمضي في الكتابة بحرية تامة . إن هذه الترجمة الأولى للكتاب لا تختلف كثيراً عن ترجمات **المنفلوطى وحافظ إبراهيم** لبعض عيون الأدب الفرنسي . ولكن إذا كانت ترجمات **المنفلوطي وحافظ** قد لقيت من إقبال القراء وتفاعلهم معها ما أتاح لها التأثير والشيوع ، فإن ترجمة « **البوشيدو** » كان نصيبها فيما يبدو الإهمال والنسيان .

وإذا كان المترجم الأول قد لمس في مقدمته بعض أسباب اهتمام المثقف العربي باليابان فإن في بعض ما يقوله ما يكاد يكون وصفاً لحالة الأمة العربية اليوم إذا قارناها بوضع اليابان . والفكرة التي تدور حولها المقارنة تتركز في تخلّي الأمة العربية عن هويتها الثقافية والحضارية وتبعيتها التامة لثقافة المحتل وحضارته ، في حين أن اليابان — كما يرى المترجم الأول — لم تبن نهضتها على « الاندماج الأحمق مع تقاليد الغرب وعاداته ، وإنما كانت نتيجة لحرص اليابان الشديد على روحيتها وأخلاقها القومية والاستفادة من الأجنبي بما يساعد صناعتها وإنتاجها المادي على النمو والتكامل »[٥] .

ورغم مضى ما يقارب نصف قرن من الزمان على هذه المحاولة للفهم والترجمة ، نكاد نجد أنفسنا على المستوى الحضاري في نفس الموقف ، موقف التبعية وافتقاد الهوية ، ونكاد — بالإضافة إلى ذلك — نجد أنفسنا إزاء التجربة اليابانية في نفس الموقف الذى وجد المترجم الأول نفسه إزاءه . هل وقف الزمن بأمتنا هذا التوقف المذهل أم أننا نحن الذين أوقفنا حركة الزمن في واقعنا حتى وجدنا أنفسنا نطرح نفس التساؤل بعد مضى ما يقارب الخمسين عاماً ؟ أنها تساؤلات حرجة وحساسة ولكنها حاسمة وعلينا أن نحاول الإجابة عليها دون غموض أو مواربة أو خداع .

هل يمكن أن نقول اعتمادا على هذا الاتفاق – غير المسبق – على ترجمة نفس الكتاب من مواطنين عربيين ينتميان إلى جيلين متباعدين ، إن « الصدفة » لا مكان لها في حركة الواقع ، وإن ما يبدو لنا على السطح مجرد « مصادفة » أو « اتفاق عجيب » ليس إلا نتيجة لفاعلية عميقة الجذور تحركها قوانين يمكن فهمها والإفادة منها في فهم الواقع بل وفي تغييره ؟ الإجابة على هذا السؤال دون تردد : نعم .

ولكن يتحتم علينا اليوم أن نفهم بشكل أعمق العوامل التي رشحت هذا الكتاب دون غيره للترجمة .

٢ – المحاور الأربعة وهموم الثقافة

كان اختيار هذا الكتاب لترجمته إلى اللغة العربية محكوماً بعوامل متعددة تؤدي بنا مناقشتها إلى التعرض لخصائص هذا الكتاب التي تميزه عن الكتب الأخرى . أول هذه العوامل وأخطرها مدى ما يمكن أن يثيره من قضايا حميمة الصلة بوضعية الثقافة العربية الراهنة ، إذ ليست الترجمة مجرد نقل ما يتاح لنا من الثقافات الأخرى إلى لغتنا القومية ، بل هى في الأساس الأول إجراء حوار ثقافي يتجاوب في مضمونه مع إشكاليات ثقافتنا وهمومها الراهنة . من هذه الزاوية .. يقدم لنا هذا الكتاب مجموعة من المحاور الفكرية نوجزها فيما يلي :

١ – علاقة الحاضر بالماضى من زاوية القيم والمفاهيم وَمُحَدِّدات السلوك الفردي والاجتماعي . والمؤلف في هذا الكتاب يحاول أن يفسر للقاريء الأجنبي – وهذه خصيصة سنناقشها فيما بعد – اليابان الحديثة – يابان القرن التاسع عشر بالتحديد – من خلال العودة إلى الثقافة اليابانية في عصر الإقطاع ومناقشة نظامها الثقافي والأخلاقي المعروف **بالبوشيدو** ، وهى كلمة يصعب ترجمتها ، كما أشار المؤلف في الفصل الأول .

إن الحاضر – فيما يرى المؤلف – ليس إلا نسيجاً يصنع الماضى كثيراً من خيوطه . ويتبدى إيمان المؤلف بأهمية الماضى في كل فصل من فصول الكتاب بدءا من الإهداء « إلى عمي الذي علمني توقير الماضى » ، وإنتهاءً بالفصل الأخير الذى يعد بمثابة خاتمة عن « مستقبل **البوشيدو** » . يشير المؤلف في هذا الفصل الأخير إلى ضرورة الوعي بالتراث والحفاظ عليه لكي ينتقل من جيل إلى جيل وقد أضافت إليه الأجيال المتلاحقة من خبرتها ووعيها . وفي هذا السياق يستشهد المؤلف بأسطورة طائر الفينيكس – ويرمز به إلى اليابان – الذى ينبعث حياً ، ولكن من ترابه هو لا من تراب طائر آخر . ومن اللافت للانتباه ، أن يستشهد المؤلف هنا بآية قرآنية هى ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم﴾ « سورة إبراهيم آيه ٤ » وهو استشهاد يوميء إلى تأكيد مفهوم المؤلف عن ضرورة أن يكون الجديد « رسالة الرسول » منطلقا من جذور القديم غير واثب عليها أو متجاوز لها تجاوزاً مطلقاً .

إن المفهوم الذى يحوم حوله المؤلف هو مفهوم « التواصل » الفكري والثقافي في وعي

الأمة ، وهذا « التواصل » لا يتناقض مع التطور والحركة ، فالحركة إذا قامت على « الانقطاع » عن الجذور الفكرية والثقافية كانت حركة في الفراغ ، وكانت نتيجتها افتقاد الهوية الحضارية ، والوقوع في هاوية التبعية الحضارية والثقافية . ولا شك أن هذا المفهوم الذى يثيره الكتاب ، وتثيره تجربة اليابان كلها – كما سنشير فيما بعد – « مفهوم التواصل » يستدعي إلى ذهن القارىء نقيضه اللافت في ثقافتنا العربية ، مفهوم « الانقطاع » بين حركة الحاضر وبين تراث الماضي على مستوى الوعي .

إن ذلك الانقطاع الذى يسيطر على ثقافتنا بين الحاضر والماضي انقطاع يمكن تلمسه على جميع المستويات الفكرية والثقافية . وقد يطول الأمر ونخرج عن سياق هذا التقديم لو حاولنا أن نتقصّى مظاهر هذا الانقطاع في مجال واحد من مجالات الثقافة والفكر . ويكفي هنا أن نشير إلى أن السؤال عن « فلسفة عربية » أو عن « نظرية عربية في الأدب والفن » لا تزال أسئلة معلقة حائرة رغم التاريخ الطويل والتراث العميق الثرى . إن محاولات « الوصل » بين القديم والجديد في ثقافتنا لا تزال في بدايتها ، وهى رغم ذلك تعاني أشد المعاناة في واقع اجتماعي وسياسي واقتصادي ، يكرس التبعية الثقافية ، ويفتح الباب على مصراعيه لا للانفتاح الاقتصادي وحده – على ما أدى إليه ذلك الانفتاح من عواقب وخيمة – بل للاختراق الثقافي والفكري الكامل . وإذا كانت مقاومة المثقفين الوطنيين لهذا الاختراق مقاومة دائبة ومستمرة ، فإن درس التجربة اليابانية قد يساعدنا في بلورة بعض أدوات المقاومة الثقافية .

٢ – المحور الثاني الذي يتجاوب في مضمونه مع بعض هموم ثقافتنا هو العلاقة بالتراث الغربي الأوروبي عامة والأميريكي بشكل خاص . إن الكتاب كما يعلن مؤلفه في مقدمته للطبعة الأولى « دفاع » عن الثقافة اليابانية ، وعن نمط الحياة اليابانية بشكل عام ، « دفاع » ضد « هجوم » المستشرقين ، وضد « سُخرية » بعض علماء الغرب من اليابان وعاداتها وتقاليدها . ورغم أن المؤلف لا يعادي ثقافة « الغرب » – بل ويتبنى بعض مفاهيمها الأساسية حيث تحول إلى المسيحية عام ١٨٧٧ م وهو في الخامسة عشرة من عمره ، وحيث تزوج أمريكية وكان عضواً في جمعية أصدقاء بعثات التبشير وهو طالب في أمريكا – فإن نظرته لثقافته لا تتسم بأي شكل من أشكال الاستعلاء

أو الرفض . وأكثر من ذلك نرى هذا المفكر المسيحي العميق الإيمان بالمسيحية ينتقد رجال البعثات التبشيرية في اليابان أشد انتقاد ، ويتهمهم بالغباء والتحجر الفكري والثقافي ، وينكر أن يكون لهذه البعثات أي دور في النهضة اليابانية التي عاصرها ، ولقد كانت مواقف المؤلف السياسية واضحة الإنتماء للوطن ، حيث حارب بكل الوسائل المتاحة له « اتفاقية ادو » التي فرضها الغرب على اليابان والتي بمقتضاها فتحت أبواب اليابان عنوة للتجارة مع الغرب (١٨٥٣ - ١٨٥٤ م) قبل ميلاد المؤلف بحوالى تسعة أعوام . إن د . **نيتوبي** في هذا الكتاب يقدم لنا نموذجا للمثقف المنتمي إلى وطنه وواقعه وثقافته ، نموذجاً للمثقف الذى لا يمنعه الانتماء - بل والحماس الزائد المفرط أحياناً لثقافته وحضارته - من التفتح العقلي على كافة منابع الفكر المتاحة له .

ولا شك أن هذا النموذج الحضاري الذى يمثله د ..**نيتوبي** ليس نموذجاً فردياً أنتجته المصادفة ، فهو ابن اليابان التي انفتحت ثقافيا منذ فترة طويلة على الصين فأخذت منها البوذية والكونفوشيوسية ، والتي انفتحت في عصر مؤلفنا على الغرب فأخذت منه ما تحتاج إليه من تقدم تكنولوجي ، وأعادت إنتاج ذلك كله وصهرته في بوتقة « ثقافتها » و « تقاليدها » ، ولم تفقد هويتها الحضارية لحساب الصين أو لحساب الغرب . ورغم أننا سنعود لمناقشة هذه القضية فيما بعد ، فلا بأس في هذا التقديم من الإشارة إلى أن موقف المثقف العربي من ثقافة « الغرب » كان يميل إلى الإحساس بالنقص بدرجات متفاوتة بدءاً من **رفاعة الطهطاوى** وانتهاء بالمثقف المعاصر . لقد كانت الهزيمة العسكرية المروِّعة التي مُني بها المماليك أمام جيوش **نابليون بونابرت** ومدافعه شيئاً لا يذكر إلى جانب الهزيمة « العقلية » والفكرية التي أصيب بها المثقف العربي وهو يرى تقدم « الغرب . ويدرك في نفس الوقت تخلفه »[٦] . وإذا كانت القوى الشعبية قد استطاعت هزيمة جيوش **نابليون** ومدافعه بوسائلها : « الكفاح المسلح » البسيط والبدائى ، فإن « عقل » المثقف العربي لم يستطع حتى الآن أن يفيق من « صدمته » ويتجاوز موقف الهزيمة الفكري . ومع توالي الهجمات الاستعمارية وشراستها ، ومع تحالف القوى الحاكمة مع هذا الاستعمار زادت وطأة الهزيمة وترسُّخ الاحساس بالعجز والنقص .

لذلك كانت الرحلة في ثقافتنا دائماً من الداخل إلى الخارج . هكذا كانت رحلة **الطهطاوي** ثم **طه حسين** ثم **الحكيم** ثم **لويس عوض** و**مندور** . كان **الطهطاوي** يناقش على استحياء بعض مظاهر تفوقنا « الأخلاقي » على الغرب ولكنه أبداً لم يتجاوز إطار هذه الرؤية الدينية ليجد في ثقافته – وراء الدين بالمعنى الأخلاقي – إيجابية تذكر . وفتن **طه حسين** بمناهج الغربيين في درس الأدب فاستورد على عجل بعض أدواتهم التحليلية وراح يوظفها في تشريح التراث الأدبي وكاد ينتهي إلى الشك في مجمل التراث الشعري .

ويحدثنا **الحكيم** في كتاباته حديث المفتون المأخوذ اللب والعقل بكل ما هو غربي وفرنسي بالتحديد ، وينظر إلى ثقافته وأدبه القومي الوطني بوصفه نتاج التخلف والجهل[٧] ويتساءل الإنسان . ما سر هذا « الانقطاع » الدائم و « التدابر » بين المثقف العربي وتراثه . أهو انقطاع سابق على تلك الهجمة الاستعمارية الشرسة حين بدأ الازدواج اللغوي وصار للأمة ثقافتان وتاريخان وأدبان بل ودينان : أحدهما رسمي تتبناه الطبقات المسيطرة الحاكمة والآخر شعبي تتبناه الجماهير العريضة ؟ وهل يرجع هذا « الانقطاع » و « التدابر » بين المثقف وتراثه إلى أخذه جانب الثقافة ؟ الرسمية وتعلقه بها ورفضه للثقافة الشعبية واستعلائه عليها ؟[٨] ... هذه دون شك أسئلة تحتاج لكثير من التأمل والبحث ، وهي أسئلة يثيرها ويحرك أوجاعها في العقل والقلب هذا الكتابُ ، الذي يقدم لنا نموذجاً مخالفاً لا يكتفي باستيراد ثقافة « الآخر » بل « يصدِّر » له أيضا ثقافته لكي يتعاذل الميزان الثقافي . مرة أخرى ليس هذا د . **نيتوبي** فقط ، بل هذه هى « اليابان » الحديثة التي آن الأوان أن نحاورها ونتفاعل معها ثقافياً وفكرياً ، وبذلك نفتح لثقافتنا نافذة أخرى غير نافذة الغرب ، لعل تفاعل الريح أن يولِّد جديداً في عقولنا وعواطفنا التي لوثها هواءُ الغرب .

٣ – المحور الثالث الذى يتجاوب مع هموم ثقافتنا العربية في هذا الكتاب ، هو محور دور الدين في صنع الحضارة وتشكيل الثقافة . ولا شك أن قضية الدين من أخطر القضايا المثارة في الواقع العربي عامة والمصري خاصة . ويبدو أن انفصال المثقف ـــ المشار إليه في الفقرة السابقة ـــ عن تراثه وثقافته لحساب التراث والثقافة الغربيين كان من شأنه أن يخلق « الموقف النقيض » المتمثل في « التعصب » للتراث والتقاليد لا بالمعنى الثقافي

العام بل كما تتمثل في الدين بالمعني الأخلاقي والشعائري . لم يكن هذا الانفصال قد تحقق في عصر **الطهطاوي** تحققاً كاملاً ، ولكنه في عصر **طه حسين** كان قد وصل إلى قمة « تصدعه » الذى تمثل في وجود جامعتين ونظامين للتعليم أحدهما ديني والآخر مدني . وقد كان هجوم **طه حسين** على كلية دار العلوم في مقدمة كتابه في « الأدب الجاهلي » نابعاً من التسليم بهذه الثنائية في بنية الثقافة بين ثقافة دينية وثقافة مدنية .

كانت الجامعة المصرية تمثل قطب التيار الثقافي العلماني ، بينما كانت جامعة الأزهر تمثل القطب الآخر « الديني » . لكن هذا القطب الآخر « الديني » ظل يدور في إطار « رد الفعل » من القطب الأول ، وتركزت جهوده في مجرد « الحفاظ » على الموروث الديني من هجمات العلمانيين « المتغربين » . وقد أدى هذا الموقف « الكوني » من التراث إلى التأكيد على أشد عناصره تخلفاً ورجعية ، ما دام هذا العنصر مؤثراً في عملية « الدفاع » وآلياتها . من هذا المنطلق نفهم كثرة الكتب التي صنفت في الرد على **طه حسين** والتي تكاد تتجاوز عدد صفحات الكتاب نفسه كتاب « في الشعر الجاهلي » وذلك رغم مصادرة السلطات السياسية للكتاب . لقد كانت هذه الردود جميعها تتجاوز مستوى الحوار الفكري حول قضية « الانتحال في الشعر الجاهلي » وهى جوهر الكتاب ومقولته الأساسية لتناقش بعض عبارات من الكتاب رأى حراس « التراث » أنها تمس العقيدة والدين ، وتحولت القضية برمتها إلى قضية « كفر » **طه حسين** .

إن هذا الموقف « الدفاعي » من شأنه أن يحول التراث إلى مجموعة من « الثوابت » التي لا تخضع لأي شكل من أشكال التطور والتي تتجاوز حدود المكان والزمان . وبذلك أمكن اختزال التراث في « العقيدة » « والدين » بعد أن تحول الدين نفسه إلى مجرد مجموعة من الشعائر ، ونسق من الأوامر والنواهي ، ونظام للتحليل والتحريم . ولقد زاد من حدة هذا الموقف وساعد على تبلوره بصورة أكثر كثافة أن هذا المفهوم للتراث والدين تجاوب مع أيديولوجية الطبقات الحاكمة المتحالفة مع الاستعمار الغربي ، كما أنه من جهة أخرى تجاوب مع مفهوم « الاستشراق » عن الإسلام ، وهو المفهوم الذي استورده المثقف العربي « العلماني » من الغرب فأكد له موقفه وعززه .

ولعل هذا يفسر لنا – بعيداً عن العلل المباشرة التي لا تكفي في تفسير الظواهر

التاريخية – الهجمات القاسية التي تعرضت لها جماعة « الإخوان المسلمين » رغم أن مفكري هذه الجماعة حاولوا بلورة مفهوم شديدا الاستنارة والحيوية للإسلام الحضاري ، والأحرى القول لأنهم حاولوا هذه المحاولة كان الضغط عليهم شديداً من الجانبين ، وإذا كانت ثورة يوليو حاولت « تطوير » المؤسسة الدينية – الأزهر – لتلحق بركب العصر والتاريخ والحضارة ، فإن هذا « التطوير » كان تغييراً شكلياً ظاهرياً لم يمس البناء القديم في شيء ، بل ألحق به بعض مظاهر التعليم المدني ، وذلك لتحقيق غايات أخرى لا علاقة لها بأي تطوير حقيقي . وقد ساهمت هذه « الملحقات » في تخريج أجيال من « المتدينين » الشكليين في مجالات الحياة كافة ، كان من السهل أن يتم اجتذابهم إلى دائرة « الجماعات الإسلامية » في شكلها المعاصر . وقد كان موقف ثورة يوليو من « حزب الإخوان » – كما هو معلوم للقاريء المعاصر – جزءاً من خطيئتها التاريخية إزاء القوى الوطنية كافة ، لكن الأهم – فيما نحن بصدده – أنه ساهم بطريقة مباشرة في محاصرة فكر هذه الجماعة ودفعة إلى التطور في اتجاه « الدفاع » الذى من شأنه أن يلوذ بالثوابت . وهكذا تحولت ظاهرة « الإسلام الحضاري » بكل أبعاده الاجتماعية والثقافية إلى أن تكون « الإسلام الشعائري » ، وانتقل الخطاب الديني من « الإسلام ومشكلات الحضارة » و « الاسلام والعدالة الاجتماعية » و « الاسلام والرأسمالية الغربية » إلى موضوعات مثل « جاهلية القرن العشرين » و « معالم في الطريق » و « الفريضة الغائبة » .

وكان من الطبيعي مع تحول الخطاب أن يتحول السلوك السياسي والاجتماعي من الحوار إلى العنف ومن القلم إلى القنبلة والمدفع . ومع أن هذا التطور الأخير في فكر « الجماعات الدينية » لا يتعارض من حيث منطلقاته وثوابته مع فكر المؤسسة الدينية الرسمية – الأزهر – فقد كان على علماء هذه المؤسسة – ولا يزال – أن يقوموا بدور المحاور المناقض لفكر هذه الجماعات . وكم هو مضحك مبكٍ في نفس الوقت أن تعرض علينا أجهزة الاعلام « حواراً فكرياً » بين طرفين لا تختلف منطلقاتهما ولا تتعارض مسلماتهما الفكرية . لقد كان حواراً أشبه بحوار الصم يتفق فيه رجال الأزهر مع شباب الجماعات فكراً ، ولكنهم يُدِينون سلوكَهم السياسي استجابة لأوامر صاحب الأمر ،

أو أولي الأمر الذين أمرنا الله – فيما يقول الشيوخ مستشهدين بالقرآن – أن نطيعهم كما نطيع الله ونطيع رسوله . ويرد عليهم الشباب مستشهدين أيضاً بالنصوص خاصة الحديث النبوي بأنه « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » .

والسؤال الذين لابد أن يطرح « ما هو الدين ؟ » و « ما هو الإسلام » ؟ لم يجرؤ أحد على طرحه حتى الآن خشية هذا السيف المُصْلت على الرقاب من الجانبين : السلطة السياسية ممثلة في جهازها الديني الرسمي – الأزهر – والجماعات الدينية ؛ سيف « التكفير » لكنه سؤال لابد أن يطرح ، ولابد أن يطرح بصوت عال مدو ، ولابد أن يساهم الجميع في « الحوار » حوله إذا أردنا أن نخرج من « ورطتنا » الراهنة . إننا جميعاً نتحدث عن « الإسلام » وعن « التراث الإسلامي » وكأننا نتحدث حول مفهوم واضح متفق عليه ، وليس الأمر كذلك على الإطلاق . وهذه قضية ليس هنا مجال التعرض لها وإنما مجالها حديث آخر نرجو أن ننتهي من صياغته قريباً عن « الإسلام ؟ وعلاقة الوحى بالواقع » .

لكن ونحن نعيش هذا « الأتون » الملتهب بالعنف من الجانبين : جانب السلطة وجانب الجماعات الإسلامية قد تكون التجربة اليابانية ذات مغزى ، لا بمعني أنها تجربة صالحة للنقل والاستعارة ، ولكن بمعني أن وراءها درساً لو استوعبناه ، قد يفيدنا في تحديد بعض المفاهيم المرتبطة بالفكر الديني الذي يختلط في ثقافتنا بالدين ويكتسب منه قداسه لا تجوز على فكر الإنسان أياً كان موضوعه ، لقد كان الدافع وراء تأليف **د . نيتوبي** لهذا الكتاب – الدافع المباشر إن شئنا الدقة – هو ذلك السؤال الذى طرحه عليه أحد أساتذته كما يذكر في المقدمة عن « الدين » . وإذا كان **د . نيتوبي** لم يستطع أن يجيب عن السؤال فقد ظل مشغولاً به ، ثم جاءت أسئلة زوجته الأجنبية واستفساراتها عن كثير من الأشياء التي لم تدركها جيداً في الحياة اليابانية ، وأثارت هذه الاستفسارات في ذهن مؤلفنا مكونات ثقافته ومحددات معايير « الصواب والخطأ » سواء في مفاهيمه أو في سلوكه . وكانت الإجابة هي « **البوشيدو** » بوصفه نظاماً متكاملاً ، أو دستوراً غير مدون على الورق ، وإن كان مدوناً « في القلب » ـــ على حد تعبير المؤلف ـــ لكن « **البوشيدو** » **استمد عناصره من ثلاثة مصادر رئيسية ، مصادر دينية إن شئنا**

الدقة هي « الشنتوية » الدين الياباني المحلي الذى تختلط فيه عبادة أرواح الطبيعة وعبادة الأسلاف ، والمصدر الثاني هو « البوذية » بعد أن أعيدت صياغتها لتلائم معطيات الثقافة اليابانية فتحولت إلى مذهب « زن » ، أما المصدر الثالث فهو الكونفوشيوسية الصينية التي ساهم في تكوينها وتشكيلها إلى جانب **كونفوشيوس مِنكِيَس ووان يانج منج** .

ساهمت الشنتوية في خلق وعى قومي بالتواصل التاريخي بين الحاضر والماضي من جهة ، كما ساهمت في تأكيد الوعي بالانتماء الوطني عن طريق مساندة مفهوم « دولة العائلة » الذى سنناقشه فيما بعد من جهة أخرى . وقد كان إسهام « البوذية » متمثلاً في خلق حالة التوازن والانسجام والتوافق الروحي على مستوي الفرد بين مطالبه المادية وتطلعاته الروحية من جهة ، وبين عالمه الذاتي والعالم المحيط به من جهة أخرى . وجاءت تعاليم **كونفوشيوس** الخاصة بالعلاقات الست لكي تؤكد على مبدأ الترابط الاجتماعي من جهة ، ولكي تصوغ علاقة الحكام بالمحكومين على أسس إنسانية من جهة أخرى .

لقد ساهمت المعتقدات الثلاثة في صياغة « ثقافة وطنية » شاملة أسهب مؤلفنا في شرح جوانبها المختلفة في هذا الكتاب . ورغم أن المؤلف يبدو أحياناً « متحمساً » — لا متعصبا — للمسيحية — وذلك كما يبدو في الفصل الأخير — حيث يأمل أن تنجح المسيحية في ترسيخ أصولها في التربة اليابانية ، فإنه يتعامل مع الشنتوية والبوذية والكونفوشيوسية بوصفهاً أديانا ومعتقدات جديرة بالاحترام والتوقير ، بل أحياناً ما يرى أنها لا تقل في إنجازاتها الحضارية والإنسانية عن الأديان السماوية .

إن مفهوم المؤلف للدين — وهو مفهوم الثقافة اليابانية بشكل عام — هو المفهوم الذى يهم ثقافتنا الإفادة منه . إنه ليس الدين « الشعائري » ، دين الحدود والمحللات والمحرمات فقط ، بل إنه قبل ذلك دين « الحضارة » ، والفارق بين جانبي الدين يتبدى في تركيز الفكر الديني المعاصر بجانبيه الرسميين و « الجماعات » على مسألة « تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية » . وقد انزلقت كل أحزابنا السياسية على خلاف اتجاهاتها نحو تبني هذا المطلب خضوعاً لقوة الإرهاب الديني من جهة ، وتملقاً لعواطف الجماهير من جهة أخرى . إن التركيز على هذا « المطلب » بوصفه أسمى أهداف الفكر الديني ليس إلا إختزالاً لقوة الذين وطاقاته الخلاقة في « قوانين » شكلية ما أسهل ما تستغلها

السلطة السياسية للممارسة أشد أشكال العنف والإرهاب والديكتاتورية ضد جماهير المسلمين . وما تجربه السودان الشقيق تحت زعامة الديكتاتور **النميري** عنا ببعيد . الدين الذى نتغياه هو الدين الذي يصنع الحضارة بتحرير الإنسان من كل صنوف القهر والاستغلال بدءاً من استغلاله الاقتصادي والاجتماعي وإنتهاء بتكبيله سياسياً وحضارياً . هذا الدين لا يصح أن نبحث عنه بعيداً عن آفاق « الإسلام » و « المسيحية » مجتمعين دون تعصب أو استبداد فكري هو في نتائجه النهائية أشد خطورة من الاستبداد السياسي . وتلك قضية لها مجالها الذي نرجو أن نناقشة في مكان آخر .

٤ – المحور الرابع في هذا الكتاب والذي يمكن أن يتجاوب مع بعض معطيات ثقافتنا هو محور « الفروسية » وتقاليدها كما يعبر عنها « **البوشيدو** » . إن مجموعة القيم والأعراف والتقاليد التي يناقشها المؤلف في فصول الكتاب المختلفة تستدعي إلى الذهن مرحلتين مختلفتين – إن لم يكونا متناقضتين – في تاريخ ثقافتنا : مرحلة الفتوة والنمو والانطلاق ، وهى المرحلة التي شهدها المجتمع العربي قبيل الاسلام ثم جاء الإسلام فأعطاها دفعات قوية حتى استوعبت الثقافة العربية ثقافات العالم الحديث والحديثة ، أما المرحلة الثانية فهي مرحلة الانحسار والانكسار والتي يعيش المجتمع العربي الآن أشد فتراتها توتراً وقلقاً وغلياناً . إن كثيراً من قيم « **البوشيدو** » الخاصة بالشرف والولاء والاستقامة والشجاعة والجرأة والحزم – التي كانت تعد صفات أصلية يجب أن يتحلى بها **الساموراي** تستدعي إلى الذهن صورة الفارس العربي المحارب ، سواء في دفاعه عن شرف قبيلته وحُرُماتها في عصر ما قبل الإسلام أو في دفاعه عن عقيدته التي أراد لها أن تسود البشرية . لقد صاغت التقاليدُ العربية في مجتمع ما قبل الاسلام قيمَ « الفروسية » التي يمكن مقارنتها بالبوشيدو من زوايا عديدة : وقد جاء الإسلام يؤكد هذه القيم بل لقد رفعها إلى مستوى « العقيدة » حين أمر المسلمين أن يُعِدوا لأعدائهم ما يستطيعون من قوة ومن رباط الخيل ، وحين اعتبر المحارب الذي يولي العدو ظهره هارباً – لاعلى سبيل الفرّ والكر – خارجاً من دائرة « الجماعة المؤمنة » وسبيله إلى الجحيم . إن تاريخ « الفتوحات » الإسلامية ملىء بالقصص الإنسانية التي لا تقل في سموها عن تلك القصص التي يوردها المؤلف في كتابه عن بعض **النساموراي** . وإذا كانت قصص البطولة اليابانية التي سجلتها

قصص الهايكي **Haike Monogatari** والجنجي هي مصدر الالهام لفنون الدراما اليابانية خاصة **الكابوكي** Kabuki **والنو** No ، فإن قصص البطولة العربية كما سجلتها الكتب العربية فيما عرف بأيام العرب وعند مؤرخي الفتوحات لم يتح لها أن تمتد في الإبداع العربي الحديث . لقد استلهم التراث الشعبي كثيراً من هذه القصص وأعاد صياغتها كما فعل في « **عنترة** » و « **الظاهر بيبرس** » ، ولكن الانفصال بين الآداب الشعبية وبين إبداع المثقف العربي لا يزال قائماً .

إن الواقع العربي الحديث – خاصة الواقع المصري – يفرض نفسه على وعي القاريء وهو يقرأ هذا الكتاب من زاوية قيم الفروسية التي عبر عنها **البوشيدو** . إنه يفرض نفسه بوصفه واقعاً يؤسس قيماً نقيضة لتلك القيم التي يسهب المؤلف في شرحها ، قيم الشرف والولاء والإحساس بالعار والخجل ، وقيم الرجولة والاستقامة والعدل . وينبغي الاعتراف أن هذه قيم تنحسر عن واقعنا الذى يسيطر عليه التجار سيطرة شبه تامة بقيمهم التي تتناقض مع معايير الرجولة والشرف . إن التاجر الذى يحكمنا اليوم ليس هو التاجر الذي يتجلى بالصفات التي توميء بها حروف اسمه « تاجر » من التقوى والأمانة والجرأة والرحمة كما كنا نسمع من أفواه آبائنا ؛ إنه على النقيض من ذلك يتسلح بكل صفات الفُجْر والخداع والجبن والقسوة ، ذلك لأنه ليس التاجر الذى يريد أن يبني وطناً أو يساهم في بنائه ، ولكنه التاجر الذى يريد أن يحقق مكسباً بأي طريقة وبأسرع وسيلة ولو باع السموم لأبناء وطنه ، سواء كانت هذه السموم هى المخدرات أو المواد الغذائية الفاسدة ، إنه التاجر ربيب الاستعمار وصنيع الرأسمالية العالمية وحليف الصهيونية . وأين قيم مثل هؤلاء التجار من قيم الفروسية؟! إن استعادة الواقع من أيدي هؤلاء هي الكفيلة بنفي قيم الفساد من واقعنا وبذلك يتهيأ لاستعادة قيمه النبيلة التي صاغتها حضارته على مدى آلاف السنين .

ليس بالمهرجانات الرخيصة المبتذلة في « حب مصر » ولا بالأغاني التافهة التي لا تصوغ وجداناً أو تثير عاطفة يرتد الولاء للوطن ، إن الولاء للوطن لن يتم إلا باستعادة الوطن من أيدي هؤلاء « القراصنة » الذين يتزيون زي « المواطنين » . لقد حاولوا أن يعلموا أبناءنا أن احتلال الأرض لا يمس « الشرف » وأن « التبعية » لا تجلب « العار » ،

بل وأكثر من ذلك يحاولون أن يقنعونا كل يوم أن « السلام القائم على الاستسلام والرضوخ هو سبيل الخلاص والثأر للعرض المهان ولدماء الأبناء التي سفكها المعتدون . وإذا كان تلويحهم للجماهير بأكذوبة « الرخاء » الذي لا يتحقق إلا بالسلام / الاستسلام لأعداء الوطن قد خدع الجماهير بعض الوقت فإن حقيقة « الخراب » الذي يحيق بالوطن – أو بالأحرى بفقراء الوطن – لم يعد يترك مجالاً للشك في نفس المواطن العادي بأن « الحرب » دفاعاً عن الشرف والعرض والكرامة كانت بريئة من تحليلاتهم الفاضحة الكاذبة ، والتي لا يزالون يتشدقون بها في صفاقه وجهل .

إن د . **نيتوبي** في هذا الكتاب لا يخجل من أن يتحدث عن « الحروب » التي تصنع الشعوب وتصوغ الحضارات وتثير أنبل ما في الإنسان من قيم ، خاصة إذا كانت دفاعاً عن الوجود والشرف والعرض والكرامة ، وهو من جهة أخرى لا يكل من الحديث عن التعارض بين « جمع المال » وبين قيمة « الشرف » ، أو بين مجتمع « التجار » ومجتمع **الساموراي** . وقد يبدو أحياناً كما لو كان د . **نيتوبي** يدافع عن النظام الإقطاعي ذاته وعن نظام الحكم « الاستبدادي » الذى ارتبط به وذلك في حماسه للدفاع عن قيم الفروسية أو **البوشيدو** ، ولكن علينا أن نكون دائماً على حذر من التوحيد الميكانيكي بين النظام الاقتصادي وبين تعبيره السياسي من جهة ، وبين هذا الأخير وبين البناء الثقافي من جهة ثانية . وفي هذا الصدد يهمنا أن نلفت النظر إلى تفرقة د . **نيتوبي** (في الفصل الخامس) بين « الحكومة الاستبدادية » و « الحكومة الأبوية » حيث تقوم الغلاقة بين المحكومين والحكام في الحالة الأولى على الرضوخ والإذعان القسري ، بينما تكون العلاقة في الحالة الثانية – حالة اليابان – قائمة على الرضا والتجاوب المشترك إن مفهوم « الحكومة الأبوية » ليس إلا تعبيراً سياسياً عن مفهوم « دولة الأسرة » الذى أشرنا إليه فيما سبق والذى سنناقشه تفصيلاً بعد ذلك .

وإذا كانت **البوشيدو** هى مجموعة القيم التي صاغها النظام الإقطاعي في اليابان ، فإن بعض هذه القيم جزء من الخبرة الإنسانية التي تتجاوز في آفاقها حدود « وعي » الطبقة التي أنجزتها ، وذلك لأن لكل طبقة خاصة في مرحلة الفتوة والإيجابية – وقبل تحولها إلى مرحلة السيطرة والاستغلال – إنجازاتها التي تتحول إلى ميراث وطني وإنساني عام .

ولعل هذا هو الذي يعطي للمنجز الثقافي قدراً من الاستمرارية والفعالية ، ويجعل من البناء الثقافي في أي حضارة بناء مركباً يصعب في كثير من الأحيان تحليل عناصره وردها إلى أصلها الاقتصادي الاجتماعي إلا بقدر هائل من التبسيط والربط الميكانيكي بين الظواهر . من هنا يتحتم علينا أن نرتد إلى موروثنا الثقافي إذا أردنا أن نحارب في واقعنا هذا الهبوط الحاد في القيم والمفاهيم ، ذلك الهبوط الذى يدفع بالبعض أحياناً إلى التعاطف مع صورة الإقطاعي القديم في مصر خاصة إذا قارنها ببشاعة صورة التاجر الذى يحكم مصر الآن . إن العودة إلى موروثنا الثقافي الذي تثيره قراءتنا لهذا الكتاب لا تعني « إحياء » للقيم التي ماتت ، فالقيم لا تموت ولكنها تكمن في حالة انتظار حتى تتهيأ لها ظروف مواتية خاصة إذا كانت قيماً أصيلة في بنية الثقافة وفي تاريخها .

إن كل القيم التي يناقشها المؤلف في هذا الكتاب بوصفها قيم الفروسية « **البوشيدو** » لها مثيل سابق في تاريخنا وحضارتنا وثقافتنا . والفارق بين واقعنا والواقع الياباني يكمن في أن هذه القيم لا تزال حية فاعلة نشطة في الواقع الياباني لا في عصر المؤلف فقط ، بل لا يزال لها استمرارها حتى اليوم . هل تذكر القارىء بأسي الفارس المحارب « **خالد بن الوليد** » وهو يموت على فراشه « كما يموت البعير » على حد تعبيره . هذا الفارس الذى لم تترك الحروب والمعارك في جسده شبراً « إلا وبه طعنة رمح أو ضربة سيف » يصرخ في وجه الدنيا وهو على فراش الموت « فلا نامت أعين الجبناء » . مرة أخرى ما سر هذا الانفصام بيننا وبين تاريخنا وثقافتنا وحضارتنا ؟ سؤال موجع يثيره الكتاب ، بل وتثيره تجربة قراءة الواقع الياباني قراءة مشروطة برؤيه الوطن فيها . ويعجب الإنسان لهذه الجهود المضنية التي تبذل في ثقافتنا لتفريغ « ذاكرتنا » ولتجزيء تاريخنا ، كأننا نعادي أنفسنا . لقد تم إلغاء عصر ما قبل الإسلام لصالح الإسلام ، ثم ألغي عصر الخلفاء الراشدين لصالح **بني أمية** ،ثم ألغي عصر **بني أمية** لصالح العباسيين ، وحاول الشيعة أن يمحوا تاريخ العباسيين ، ولا تزال عمليات المحو والإلغاء مستمرة في ثقافتنا ، كأننا نولد كل عقد من الزمان ميلاداً جديداً من العدم . هكذا نحيا بلا « ذاكرة » وبلا « تاريخ » ، ويبدو الواقع الآني – دائماً – ظاهرة فريدة تحتاج للتفسير .

٣ ــ بواعث الترجمة

إذا كان هذا الكتاب قد أثار في ذهن القارىء / المترجم كل هذه القضايا التي تتجاوب بعمق مع هموم واقعنا وثقافتنا ، فإن هذا وحده يكفي عاملاً حاسماً لترجمته إلى اللغة العربية . ولا شك أن في كثير من القضايا والهموم التي تعرضت لها ما هو في غير حاجة لعامل خارجي لكي يثار في العقل والقلب ، ومن هنا فقد اتهم من بعض القراء بأن قراءتي لكتاب د . **نيتوبي** كانت قراءة غير موضوعية . هذا اتهام لا أريد أن أنفيه عن نفسي ولا عن قراءتي للكتاب ، فليس ثمة قراءة « موضوعية » بالمعنى الفلسفي الغربي الذى يكون فيه الموضوع – موضوع الكتاب في هذه الحالة – هو مركز الاهتمام وبؤرة التأمل . ولا أريد أيضاً أن يكون نفي صفة « الموضوعية » عن قراءتي للكتاب تبريراً لوصمها بالذاتية بالمعنى الرومانسي المريض ، فلا أظن أنني قرأت في الكتاب همومي الخاصة . وإذا كنت قد قرأت هموم الوطن والثقافة الوطنية فلأن تلك هي القراءة « الموضوعية » القائمة على التفاعل الخلاق بين الذات – بالمعنى الثقافي والفكري – والموضوع . كان هذا هو العامل الأول وراء ترجمة الكتاب وهو لا شك العامل الأساسي ، ولكن وراءه عوامل أخرى لا بأس من الإشارة إليها .

العامل الثاني في اختيار هذا الكتاب للترجمة أنه مكتوب بصفة أساسية للقاريء الأجنبي بشكل عام وللقاريء الأوروبي بشكلٍ خاص ، ولذلك يحاول مؤلفه أن يشرح المفاهيم والمعتقدات اليابانية في لغة سهلة مبسطة من خلال المقارنة بالتاريخ والأدب الغربيين بدءاً من الأدب والفلسفة اليونانية وانتهاء بالكتاب الغربيين الذين عاصرهم الكاتب . وهذه المقارنة تفيد قاريء الكتاب فائدة غير هينة في التعرف على ثقافة ومفاهيم ربما كان يتعرف عليهما للمرة الأولى : إن شُقة « التباعد » الجغرافي والثقافي بين العالم العربي واليابان هى التي تعطي لهذا الكتاب أهمية في تقديم اليابان للقاريء العربي ، وربما تتضاءل هذه الأهمية حين تتجاوز الثقافتان – اليابانية والعربية – موقف « التباعد » الراهن وتبدآن مرحلة « التعرف » الحقيقية التي لا تقف عند مستوى العلاقات الدبلوماسية والتجارية فحسب . إن التعرف على ثقافة بعينها – من خلال توسط ثقافة أخرى – أمر مألوف في تاريخ التفاعل الحضاري والثقافي بين الشعوب . هكذا بدأ تعرف

المألوف كان له ما يبرره في الماضي حيث كان التراث اليوناني « تراثاً » قد تم استيعابه وهضمه في ثقافات أخرى ، وأن يحدث هذا بين الثقافتين اليابانية والعربية – وكلتاهما ثقافة حية نشطة فعالة – فهذا هو الأمر الغريب الذي يحتاج لبعض التحليل .

إن الهيمنة الثقافية الأوروبية التي تحاول أن تفرض نفسها على كان الثقافات وجه آخر للهيمنة الإمبريالية الاستعمارية ، بل لعلها الوجه الجديد الذى لا يجد المعارضة القوية التي يواجهها الاستعمار الاقتصادي والسياسي ناهيك بالعسكري . وإذا كانت هذه الهيمنة قد نجحت إلى حد كبير – بفعل عوامل داخلية – في اختراق العقل العربي والسيطرة عليه ، فإنها لا تزال تحاول جاهدة أن تحقق نفس الانتصار في العقل الآسيوي بشكل عام والياباني بشكل خاص . لكنها نجحت حتى الآن على الأقل في أن تحجب عن العقل الياباني وجود ثقافات أخرى – جديرة بالدرس والاهتمام – وراء الثقافة الغربية ، ولذلك فإن صورة « أي ثقافة أخرى » إنما تنعكس على صفحة العقل الياباني من خلال مرآة « الثقافة الغربية » . ولسنا بحاجة إلى القول إن نفس الحقيقة تنطبق بشكل أكثر حدة على وعي « العقل العربي » بالثقافة اليابانية .

لقد بدأ الاهتمام الياباني بالثقافة العربية مواكباً للاهتمام العربي باليابان . وإذا كنا نجد في كتابات الأفغاني إشارات لليابان بوصفها نموذجاً للنهضة الشرقية ، فإن أول كتاب صدر في اليابان عن الثقافة العربية كان عن « حياة **محمد** » عام ١٨٧٦ م كتبه **تاداسو هاياشي** Tadasu Hayashi . وفي عام ١٩٠٠ كتب **كينيتشي ساكاموتو** Keniichi Sakamoto كتاباً آخر في نفس الموضوع . وبعد خمس سنوات فقط ظهر كتاب آخر بعنوان « **محمد** : البطل الغامض » كتبه **كايتن نوكاريا** Kaiten Nukariya . ولا شك أن هذا الاهتمام بحياة « **محمد** » بشكل خاص يمكن تفسيره على أساس تأثير عقيدة الشنتو في الثقافة اليابانية خاصة ما يرتبط منها بعبادة الأسلاف . ويذهب بعض الباحثين إلى أن هذا الاهتمام بحياة « **محمد** » كان انعكاساً لتأثير كتاب « **توماس كارليل** » « الأبطال وعبادة الأبطال » ، بينما يذهب البعض الآخر إلى أن هذا الاهتمام يمكن رده إلى تأثير الثقافة الصينية . ومما يؤكد التأثير الصيني ويرجحه أن أول مسلم ياباني يسافر إلى مكة لأداء فريضة الحج وهو **تنشو إباي** Tensho Ippei قام بترجمة كتاب عن « حياة

محمد » عن اللغة الصينية عام ١٩٢٢ م وإن كانت الترجمة لم تنشر إلا عام ١٩٤١ .
وكان الكتاب الصيني الأصلي الذي كتبه **ريو كايرن** Ryu Kairen عام ١٨٢١ م قد وفد إلى محافظة ناجاساكي في عصر **ادو** Edo ، ولكن حكومة الشوجن اعتبرت هذا الكتاب إلحاداً وهرطقة وأمرت بإحراقه عام ١٨٤٣م(٩) .

وكانت الخطوة التالية في تعميق التعرف على الثقافة العربية هى ترجمة القرآن الكريم إلى اللغة اليابانية ، وقد قام بتقديم أول ترجمة **كينيتشي ساكاموتو** – الذى سبق أن كتب عن حياة **محمد** – وذلك في عام ١٩٢٠ .

ولقد أشار **ساكاموتو** في مقدمته لهذه الترجمة الأولى إلى أنه اعتمد في ترجمته على ترجمات انجليزية للقرآن لأن معرفته باللغة العربية لم تكن تمكنه من القيام بالترجمة دون الاستعانة بهذه التراجم(١٠) وهكذا ظل تعرف اليابانيين على الثقافة العربية يتم عبر وسيط ثالث حتى بدأت اليابان في إرسال من يتعلم اللغة العربية . وجدير بالذكر أن أول مبعوث ياباني توجّه إلى ألمانيا لدراسة اللغة العربية ، وهو الذى أحضر لليابان عند عودته من بعثته بعض الكتب العربية مثل « معجم البلدان » **لياقوت الحموي** و « مروج الذهب » ، **للمسعودي** ، و « رحلة ابن بطوطة » . ومنذ عام ١٩٢٦ – وهو العام الذى افتتحت فيه القنصلية اليابانية في الاسكندرية – بدأ اليابانيون يأتون إلى مصر ولبنان أساساً لتعلم اللغة العربية ، وفي نفس الفترة بدأ تعليم اللغة العربية في اليابان بشكل منتظم في كلية أوساكا للغات الأجنبية وهى جامعة أوساكا الآن .

ومع مشارف الخمسينيات كان المثقف الياباني قد تجاوز إلى حد كبير هذا الموقف وبدأ تعرفه المباشر على الثقافة العربية من مصدرها الأصلي ، فكانت ترجمة **توشيكو ايزوتسو** Toshiko Izutzu للقرآن من العربية إلى اليابانية مباشرة ، هذا بالإضافة إلى كتابه عن « تاريخ الفكر العربي » ، الذى ظهر عام ١٩٤١ وكذلك كتابه « مقدمة للأدب العربي » الذى نشره عام ١٩٥٠م ، وهو أيضاً الذي ترجم كتاب **لويس شيخو** « مجاني الأدب » إلى اليابانية .

وإذا كانت جهود اليابانيين في التعرف على الثقافة العربية موضوعاً يتجاوز إطار هذا التقديم فيكفينا الإشارة إلى أن ما بدأه اليابانيون في الربع الأخير من القرن التاسع عشر

مازال مستمراً حتى الآن في حين أن اهتمامنا باليابان قد أصابه « انقطاع » لا نستطيع تفسيره إلا باختراق الثقافة الأوروبية لعقولنا وسيطرتها على اهتماماتنا . وإذا كان المواطن الياباني العادي مازال ينظر إلى العرب وإلى الثقافة العربية من منظور « الإعلام » الغربي عامة والأمريكي خاصة ، فإن المثقف العربي لم يكد يتجاوز موقف المواطن الياباني العادي .

إن هذا الموقف الحضاري الذي جعل من الثقافة وسيطاً بين ثقافة آسيا وثقافتنا العربية هو الذى يبرر لجوءنا إلى ترجمة هذا الكتاب ، ذلك أن تلك المقارنات الدائبة التي يعقدها المؤلف بين الثقافة اليابانية والثقافة الغربية تجعل الكتاب سهلاً إلى حد كبير على القاريء الغربي ، وعلى القاريء العربي بطريق التبعية . إن الخطاب الياباني في أكثر جوانبه يتوجه إلى الآخر الذى صار الغربي ممثله ، وكذلك الخطاب العربي . ومن خلال هذا الآخر الغربي يلتقي الخطابان .. ولعل هذا الموقف يجب أن يدفعنا دفعاً إلى محاولة الاتصال المباشر بالخطاب الياباني ومحاولة توصيل الخطاب العربي للآخر الياباني توصيلاً مباشراً . ولكن دون ذلك صعوبات يجب تجاوزها ، وإذا كانت اليابان قد بدأت من جانبها خطوة هامة تمثلت في الاهتمام المبكر بتعليم اللغة العربية لأبنائها وفي افتتاح قسم لتعليم اللغة اليابانية بالجامعة المصرية عام ١٩٧٤م فإن الجانب العربي مازال عليه أن يقابل هذه الخطوات بمثلها . لقد تمت ترجمة القرآن وأحاديث مسلم وأجزاء من ألف ليلة وليلة ناهيك عن بعض الكتب الفلسفية وبعض مقتطفات من الآداب العربية القديمة والحديثة إلى اللغة اليابانية ، لكنا على الجانب العربي لا نجد شيئاً ، فتلكن ترجمة هذا الكتاب - وإن تكن ترجمة عن الانجليزية - بداية ، يعضدها أن المؤلف ياباني كتب باللغة الإنجليزية للقاريء الأجنبي .

يأتي بعد ذلك عامل ثالث كان وراء اختيار هذا الكتاب للترجمة هو شخصية المؤلف **اينازو نيتوبي** (١٨٦٣ - ١٩٣٣) التي تجمع بين العالم الباحث والدبلوماسي ورجل الدولة والشاعر الفنان . هذا بالإضافة إلى أنه عاصر فترة من أخصب الفترات في تاريخ اليابان ، فترة تمتد من بداية عصر النهضة وتستمر حتى نهاية الحرب العالمية الأولى . ويمكن القول باختصار إن المؤلف ليس مجرد مثقف عادي ، ولكنه شاهد عيان على

عصر ساهم في صنعه ، عصر يعد بالنسبة لليابان حجر الأساس الذى استند إلى تربة الماضي وتأسست عليه النهضة الحديثة . وكان د . **نيتوبي** أحد صانعي هذا الأساس على مستويات عديدة .

وإذا أردنا أن نلخص شخصية مؤلفنا ونختزلها في عامل واحد على طريقة « العقاد » في البحث عن « مفتاح » الشخصية » فإننا نجد أنفسنا في مواجهة مباشرة مع الوضع الياباني في هذه الفترة لقد سئل **نيتوبي** في امتحان القبول لجامعة طوكيو عام ١٨٨٣ (الجامعة الإمبراطورية) عن هدفه من دراسة الأدب الانجليزي فكانت اجابته التي فاجأت الممتحن أنه يريد أن يكون « همزة وصل » أو « معبراً » بين اليابان والعالم الغربي[١١] وكان **نيتوبي** قد تقدم للالتحاق بجامعة طوكيو بعد تخرجه من كلية الزراعة في سابورو وتعيينه موظفاً في « هيئة التنمية » بمحافظة هوكايدو . كانت اليابان قد تعرضت لضغوط أوروبية وأمريكية لفتح أبوابها وموانيها للتجارة مع الغرب ، وهى الضغوط التي انتهت بفرض اتفاقية **إدو** على اليابان بكل شروطها المجحفة التي ناضل د . **نيتوبي** بكل الوسائل الممكنة من أجل إلغائها . وكانت قضية القضايا في الفكر الياباني هى قضية العلاقة بالغرب . كان الإحساس العام الشائع والمستقر هو العداء للغرب الذى أراد أن ينال بالقوة ما يريد ، ولكن كان ثمة بعض المفكرين الذين لم يجدوا غضاضة في الانفتاح على الغرب على مستوى التبادل التجاري واستيراد التكنولوجيا الحديثة دون ما سوى ذلك من مفاهيم ومعتقدات . وكان أبرز هؤلاء المفكرين **يوكوي شونان** Yokoi Shonan (١٨٠٩ – ١٨٦٩) الذى كان يرى أن مثل هذا الانفتاح على الغرب سيؤدي إلى تحقيق الرفاهية الاقتصادية للشعب الياباني ، لكنه من جانب آخر كان يعارض دخول المسيحية إلى اليابان لما يمكن أن يؤدي إليه ذلك من صراع ديني وعقائدي بينها وبين الأديان اليابانية ، وهو صراع يجب تجنبه . ومعنى ذلك أن **شونان** كان من أنصار الانفتاح المشروط بمصلحة اليابان والشعب الياباني ، وقد ذهب في تحليله للمسيحية إلى أنها ليست ديناً جديداً في الحقيقة ، ولكنها تحقيق عملي لمبادىء الحكماء القدماء أمثال **كونفوشيوس ومنشيس** وغيرهما ، ومن ثم فهي بضاعة آسيوية لا يحتاجها اليابان على الأقل في الوقت الراهن (القرن التاسع عشر)[١٢] .

كان **نيتوبي** قد بدأ تعلم اللغة الإنجليزية في سن التاسعة لكي يتمكن من الالتحاق بكلية الزراعة حيث كانت أغلب المحاضرات بالإنجليزية . والسبب في التحاقة بكلية الزراعة تحقيق رغبة الإمبراطور الذى زار مقر جد **نيتوبي** في سانبونجي **Sanbongi** عام ١٨٧٦ – **ونيتوبي** في سن الرابعة عشرة – وأعلن عن أمله أن تواصل العائلة الاهتمام بالزراعة والإنتاج الزراعي تخليداً لذكرى سيدها وخدمة لليابان . وقد اشترى **نيتوبي** الصبى بنصيبه من الهيئة المالية التي منحها الإمبراطور للعائلة بمناسبة زيارته تلك نسخة إنجليزية من الكتاب المقدس ، وفي العام التالي مباشرة تحول الصبى إلى المسيحية . هل كان تقدم الشاب **نيتوبي** لدراسة الأدب الإنجليزي في جامعة طوكيو بعد أن تخرج من كلية الزراعة محاولة منه للقيام بالدور الذي كان ينتظر من يقوم به ، دور الالتقاء الثقافي والفكري بين الغرب والشرق ؟ دور « همزة الوصل » الذى يتجاوز مجرد التبادل التجاري والتكنولوجي إلى التفاعل الحضاري ؟ لاشك أن هذا هو الدور الذى أراد **نيتوبي** أن يلعبه ، والذى كان واعياً به منذ قرر الالتحاق بجامعة طوكيو لدراسة الأدب الإنجليزي الذي ظل مفتوناً به فتنة طاغية كما يمكن للقارىء أن يلمس ذلك من صفحات هذا الكتاب .

ولا نريد أن يستغرقنا الحديث في سيرة د . **نيتوبي** وأعماله ، ويكفى هنا القول إن سعة أفق الكاتب وتبحره الثقافي وإلمامه بكثير من مجالات المعرفة وخبرته الشخصية التي اكتسبها من مناصبه العديدة ، بما في ذلك منصب سكرتير عصبة الأمم ، كانت عوامل هامة ساعدت في صياغة هذا الكتاب الصغير صياغة تجمع بين السهولة والدقة ، كما تجمع بين هدوء العالم وحماس الفنان ، وهذه كلها صفات تجعل من الكتاب مقدمة عامة للإلمام بمكونات الثقافة اليابانية في إطارها العام . ولكن يبقي السؤال : هل تصدق تحليلات المؤلف التي كتبها في القرن التاسع عشر من ثقافة اليابان في عصر الإقطاع على يابان القرن العشرين ؟ وهل تصدق بصفة خاصة على يابان ما بعد الحرب العالمية الثانية التي صارت جزءاً من التحالف الرأسمالي العالمي ؟ والإجابة عن هذه الأسئلة تتطلب منا إضافة لبعض الملاحظات العامة التي قد تضيء لنا بعض الجوانب في التجربة اليابانية وإن كانت ملاحظات لا تدعي لنفسها طرح إجابات ولا تجرؤ على ذلك .

٤ – التجربة اليابانية

هذا هو السؤال الحائر الذى يتردد في عالمنا العربي : كيف حققت اليابان هذا التقدم المذهل مع أنها بدأت نهضتها الحديثة في عصر **الميجي Meiji** (١٨٦٨ – ١٩١٢) متزامنة تقريبا مع محاولة إقامة الدولة الحديثة في مصر ؟ ويزيد من ملامح التشابه بين ظروف اليابان وظروف العالم العربي أن محاولات النهضة في كليهما يمكن تأريخها بنمو الإحساس القومي والوطني نتيجة لاكتشاف أطماع القوى الاستعمارية الأوروبية ، أى نتيجة لاكتشاف « الأنا » من خلال « الآخر » المعتدي . هكذا اكتشف العالم العربي طاقاته الكامنة من خلال الاحتكاك العسكري بالمعتدي الفرنسي المتقدم تكنولوجياً . وهكذا بدأت النهضة اليابانية حين دق الجنرال الأمريكي **ماثيو كالبرايت برى Matthew Perry** بسفنه الأربع ذات الأعلام السوداء أبواب خليج طوكيو مطالباً بفتح أبواب مواني اليابان للتجارة مع الغرب عام ١٨٥٣ .

كانت هذه الحادثة ـــ فيما يذهب بعض المؤرخين ـــ هي « القشة » التي قصمت ظهر البعير ، وعجلت بالقضاء على النظام الإقطاعي في اليابان وإعلان نهاية عصر **الساموراي** بشكل رسمي وعودة السلطة إلى الإمبراطور وبداية عصر الإصلاح . لكن إذا كانت هذه الحادثة لها أهميتها ودلالتها فإنها لا تمثل وحدها تفسيراً مقنعاً لتحول تاريخي في مسار أمة . وكما كانت الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨ – ١٨٠١) عاملاً محركاً ضمن عوامل أخرى لبداية النهضة العربية ، كذلك كانت حملة الجنرال **برى** جزءاً من مجموعة من العوامل ، لعل أهمها وأخطرها فيما يذهب المؤرخون المعاصرون الهجوم على الصين فيما عرف بحرب « الأفيون » من أجل فتح موانيها عنوة للتجارة مع الغرب[١٣] .

بعد حرب الأفيون الأولى (١٨٤٠ – ١٨٤٢) تركز اهتمام (أوروبا) في شرق آسيا على الصين . وكان لهذا الاهتمام تأثيره الحاد على اليابان ، حيث تكرر مع اليابان – فيما بعد – ما سبق أن حدث مع الصين من فتح الموانى عنوة ومن فرض اتفاقيات تجارية مجحفة . إن ما حدث مع الصين في أربعينيات القرن التاسع عشر تكرر مرة ثانية مع اليابان في الخمسينيات . وفي كلتا الحالتين كانت القوى البرجوازية الغربية تحاول

السيطرة على أمم الشرق الأقصى ، التي لم يكن التحديث قد أصابها بعد وذلك لكي تؤسس سوقاً عالمياً رأسمالياً موحداً .

والسبب وراء تركيز القوى الغربية هجومها في الشرق الأقصى على الصين أولاً أنها كانت أهم من اليابان من منظور المصالح والاهتمامات الاستراتيجية الاستعمارية . من هذه الزاوية كانت اليابان محظوظة حيث ساعد هجوم الغرب على الصين في خلق مناخ دولي ساهم في المسارعة بسقوط حكومة **توكوجاوا** Tokugawa وإتاحة الظروف الملائمة لاصلاحات عصر **الميجي** . لقد كانت حرب الأفيون بما أدت إليه من فتح موانئ الصين بل واحتلالها من جانب القوى الرأسمالية بمثابة صدمة قوية أيقظت الوعي الوطني القومي بين اليابانيين[١٤] .

وإذا كانت التجربتان اليابانية والمصرية العربية متشابهتين إلى هذا الحد من حيث التزامن التاريخي لمحاولة النهوض ، ومن حيث طبيعة الأطماع الاستعمارية الأوروبية التي أحاطت بكل منهما ، فما الذى أدى باليابان إلى نهضتها الاقتصادية الجبارة على حين تراجعت المنطقة العربية وعلى رأسها مصر إلى مستوى لا يحتاج إلى تعليق ؟ وذلك رغم الإمكانيات البترولية الهائلة التي أتيحت للمنطقة العربية ولم يتح مثلها لليابان !!

إن محاولة الإجابة من مثل هذا السؤال تتطلب منا أولاً أن نناقش بعض المفاهيم الشائعة والمستقرة لدينا ، والتي تحاول أجهزة الإعلام الرسمية تثبيتها في وعينا عن التجربة اليابانية . وقد تجرنا مناقشة هذه المفاهيم بالضرورة إلى عقد بعض المقارنات التي قد تبدو سطحية ولكنها شديدة الدلالة في الفرق بين التجربة اليابانية والتجربة المصرية العربية . من هذه المفاهيم مثلاً أن تكون « الحرب مع إسرائيل » هي المسئول الأول والأخير عن تخلف المنطقة العربية وعن فشل كل مشروعاتها النهضوية في الماضي والحاضر . وإذا كانت هذه المقولة تتردد بشكل لافت في أجهزة الاعلام المصرية فإن الأنظمة العربية الأخرى لا تكف عن تعليق فشلها على مشجب « الصراع العربي الإسرائيلي » . ويرتبط بهذا المفهوم « الأيديولوجي » مفهوم آخر « أيديولوجي » أيضاً يفسر نجاح التجربة اليابانية بتبني نموذج التنمية الرأسمالية الغربي خاصة الأمريكي بعد الحرب الثانية تبنياً شبه كامل ، وهو مفهوم يروج له دعاة « الانفتاح » وعملاؤه ،

ولذلك لتأكيد سلامة توجهاتهم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، بل والثقافية والفكرية .

والرد على المفهوم الأول يسير : لقد وقّعت السلطة المصرية اتفاقية « سلام » مع العدو الإسرائيلي وأنهت حالة الحرب منذ ما يقارب العشر سنوات ، وها هى الأنظمة العربية تتوافد واحدا بعد الآخر في طابور « المستسلمين » ، وإذا كانت السلطة المصرية قد وقعت اتفاقية الصلح مع العدو بالحبر الأسود فإن كثير من الأنظمة العربية قد وقعته بالحبر الأبيض الذى لا يظهر للعين المجردة . وأيا كان الحديث عن « الحرب » تعليلاً للتخلف والتبعية فإن التجربة اليابانية – من هذه الزاوية – تَدْحَضُ هذا الافتراء . لقد عانت اليابان من آثار الحروب مالم تعانه دولة أخرى في هذا العالم ؛ لقد مُنِيت بهزيمة عسكرية كاملة خاصة بعد إلقاء الطائرات الأمريكية بالقنابل الذرية على هيروشيما ونجازاكي عام ١٩٤٥ . ولم تكن القنابل الذرية هي التي دفعت اليابان للاستسلام فقد كان الاستسلام – كما تذكر المصادر الأمريكية نفسها – مسألة وقت ، ولذلك سارعت أمريكا – قبل استسلام اليابان – لإلقاء القنابل الذرية على سبيل التجربة . ومع ذلك نهضت اليابان من وسط حطامها – كما ينهض طائر **الفينيكس** على حد تصوير مؤلفنا في هذا الكتاب – فهل تم ذلك بفعل معجزة ، ونحن نؤمن بانتهاء عصر المعجزات ؟

قد يكون تفسير التقدم الياباني بتبني نمط التنمية الغربي تفسيراً تؤكده القراءة السطحية والعاجلة للواقع الياباني . ومع ذلك فإن هذا التفسير يترك كثيراً من الأسئلة دون جواب وأهم هذه الأسئلة : كيف يمكن لاقتصاد تابع – كما يتوهم أتباع الغرب عندنا – أن يصل إلى حد تهديد الوضع الاقتصادي في المركز ذاته . لقد وصل الأمر في الكونجرس الأمريكي إلى حد التهديد بالحرب « الاقتصادية » إذا لم تفتح اليابان أسواقها الداخلية لمنتجات الغرب . كأن صيحات الجنرال **برى** تتردد مرة أخرى بعد قرن ونصف من الزمان ، ولكنها تنبعث هذه المرة من تحت قبة الكونجرس . إن معضلة المعضلات في العلاقات الأمريكية اليابانية الآن هى كيفية الحد من التصدير الياباني إلى أمريكا وزيادة الوارد من أمريكا إلى اليابان . إن دعاة « التبعية » للغرب يغفلون إغفالاً تاماً خصوصية الوضع الياباني في نسيجه الإقتصادي والاجتماعي والسياسي والثقافي .

والحديث عن « الخصوصية » ليس أمراً هيناً في واقع شديد التعقيد والتركيب ، وفي ثقافة متعددة المستويات موغلة في القدم ، خاصة إذا كنا نتوسل بمفاهيم وأدوات تحليل مستعارة من ثقافات أخرى . لذلك قد يكون مفيداً أن نحاول تلمس بعض مظاهر هذه الخصوصية من بعض أنماط السلوك التي يمكن للعين المجردة إدراكها ، لعل ذلك يساعدنا على الولوج برفق إلى بعض ملامح هذه « الخصوصية » . وفي هذا التلمس قد تكون المقارنة مفيدة في كثير من الأحيان .

ولا شك أن مظاهر التقدم التكنولوجي الواضح في الحياة اليابانية يومىء إلى تأثير أمريكي أوروبي واضح ، ولكن علينا أن نفرق بين نمطين من التأثير في استيراد المنجز التكنولوجي : النمط الأول يستورد هذا المنجز المادي ويطوره طبقاً لحاجاته المحلية . في هذا النمط لا يتم الاستيراد أصلاً إلا من منظور الحاجات الواقعية للوطن والمواطن ، بمعنى أن « الواقع » هو الذي يفرض ما يحتاجه ويستورده دون أن يتحول الاستيراد إلى حالة « إدمان » لكل ما هو أجنبي ، أوروبي أمريكي على الوجه الخصوصي . أما النمط الثاني فهو النمط السائد في دول العالم الثالث عامة ، وفي منطقتنا العربية ومصر بصفة خاصة ، حيث انتهى الولع بتقليد الغرب منذ عصر إسماعيل إلى التبعية الاقتصادية والسياسية الأمر الذي أدى في النهاية إلى عملية اختراق فكري وثقافي خطيرة النتائج .

إن الزائر الأجنبي لليابان يمكن أن يلمس بوضوح – وللوهلة الأولى – ان اليابان ليس مجتمعاً غربياً رغم مظاهر التقدم التكنولوجي الواضح ، ورغم مظاهر « التغريب » الواضحة على السطح والحياة اليابانية في تقاليدها وأعرافها وسلوكياتها وفنونها غريبة بالنسبة للأجنبي حتى ليحس الإنسان أحياناً أنه قام برحلة في الزمان إلى الوراء . إن التكيف مع نمط الحياة الياباني والطعام الياباني والسلوك الياباني يحتاج إلى وقت طويل . تلك خصوصية يدركها كل إنسان ولا تحتاج إلى بحث أو دراسة أو برهنة . إن كثيراً من المصريين من فرط تعودهم على نمط الحياة الغربي يَصِمون الحياة اليابانية بالتخلف ، ويجدون صعوبة في تفسير هذا التخلف في الحياة اليومية على ضوء التقدم التكنولوجي والاقتصادي الواضح . دعنا نتجاوز مظاهر التقدم التكنولوجي السطحية لكي نلقي نظرة على الحياة اليابانية : إن المقارنة بين البيت الياباني والبيت المصري مثلاً من حيث

التكوين المعماري وطبيعة الأثاث والتجهيزات تؤكد أن البيت المصري لايكاد يختلف عن البيت الأمريكي ، ولقد أدى عصر الهجرة البترولية إلى تحول الريف المصرى وتحول طابعة المعماري إلى نمط المدينة المصرية بوصفه النمط الأرقى وهو نمط ليس بدوره إلا تقليداً للنمط الأوروبي والأمريكي . دعنا ندخل البيت الياباني ونرافق المواطن الياباني في سلوكه داخل البيت ، فنجده مرتدياً « الكيمونو » جالساً على الحصير (التتامي) ينام على الأرض مفترشاً (الفوتون) ، يأخذ حمامه (الأوفورو) بالطريقة التقليدية . وهذا المواطن نفسه هو الذى يتعامل مع أعقد منجزات التكنولوجيا الحديثة في عمله وفي حياته خارج البيت بل وداخله أيضاً ، حيث تكون التجهيزات الحديثة أدوات لتسهيل الحياة لا للتظاهر الكاذب أو الوجاهة الفارغة .

وليس هذا السلوك من جانب الإنسان الياباني في حقيقته إلا تعبيراً عن اتجاه ثقافي ، أو لنقل تعبيرا عن اتجاه في الثقافة اليابانية للإحتفاظ بملامحها الذاتية الخاصة في مواجهة الثقافات الأخرى . وإذا كانت « اللغة » هى النظام المركزى في آلية الثقافة ، ومعها وبها تتفاعل الأنظمة الأخرى ، فإن اللغة اليابانية شاهد على هذا الاتجاه الذى نتحدث عنه في الثقافة اليابانية . وسيكون حديثنا هنا مقصور على « الرموز الكتابية » للغة ، وسنكتفي بملاحظة عامة ولكنها دالة فيما نحن بصدده . تكتب اللغة اليابانية بثلاثة أنظمة مختلفة هى : الكانجي **Kanji** ، وهو نظام مستعار من اللغة الصينية ، والهراجانا **Hiragana** وهو النظام الكتابي الياباني التقليدي قبل أخذ النظام الصيني . وقد طورت اللغة اليابانية نظاماً كتابياً خاصاً بها هو مزيج من **الكانجي والهيراجانا** . أما النظام الثالث للكتابة فهو ما يعرف **بالكاتاكانا** **Katakana** وهو نظام خاص تكتب به الكلمات والأسماء الأجنبية المستعارة من اللغات الأخرى كافة باستثناء اللغة الصينية . وتكاد اللغة اليابانية – فيما أعلم – تكون هى اللغة الوحيدة في العالم التي تخصص نظاماً خاصاً للكلمات المستعارة . صحيح أن هذه الكلمات تخضع في نطقها واستخدامها لكل القواعد الصوتية والصرفية والنحوية للغة اليابانية ، ولكن تخصيص نظام خاص لكتابة ما هو أجنبي يؤكد هذا الإتجاه « للتفرد » عن « الأغيار » في الثقافة اليابانية .

إن من السهل جداً على القاريء الياباني أن يميز ـــ ببصره ـــ ما هو أجنبي وما هو

ياباني في نص مكتوب بلغته هو . ولعل ذلك يمكن تفسيره بالطبيعة البصرية لنظام الكتابة في اللغة اليابانية ، لكن هذا التفسير لا يتعارض مع التفسير الذى نطرحه هنا لهذه الظاهرة . ولعلنا لسنا بحاجة للمقارنة بين هذا الاتجاه في الثقافة اليابانية وبين ما يسيطر على لغتنا الآن – في عصر الانفتاح السعيد – من إخضاع الرمز الكتابي العربي لمواصفات اللغات الأجنبية ، فيكون المرئي يشبه العربي والمقروء أجنبي تماماً ، حتى لا يفهمه من لا يعرف سوى العربية ، ونظرة إلى الإعلانات وواجهات المحلات كافية . إن اتجاه الثقافة اليابانية إلى « التفرد » كما يبدو في حياة المواطن اليومية ، يبدو كذلك في اللغة . لكنه علاوة على ذلك يبدو بشكل واضح ويعبر عن نفسه في أجهزة الإعلام .

دعنا بعد ذلك نقضي يوماً مع التليفزيون الياباني على أي من القنوات العديدة التي تبث إرسالها من السابعة صباحا وحتى الثانية صباح اليوم التالي باستثناء القناة الرسمية NHK بشقيها العام والتعليمي . أول ما نلاحظة أنه ليست هناك نشرة إخبارية باللغة الأجنبية فقط ؛ النشرات كلها باللغة اليابانية عدا نشرة المساء التي تُبَثُّ باللغة اليابانية مقرونة بترجمة إنجليزية فورية ، وما لم يكن لديك جهاز استقبال مزدوج اللغة لا تستطيع إلا استقبال النشرة باليابانية . ومعني ذلك أن الأساس هو اللغة اليابانية واللغة الإنجليزية فرع لا يمكن استقباله على الجهاز العادي .

الأهم من ذلك أن المسلسلات والأفلام الأجنبية كلها تخضع لعملية البث اللغوي المزدوج هذه بعد عمل الدوبلاج اللازم وتحويل المسلسل أو الفيلم بأكمله إلى أصوات ممثلين يابانيين باللغة اليابانية ، الأمر الذى يذكرنا بتقاليد السينما المصرية في الخمسينيات وأوائل الستينيات حين كانت معظم الأفلام الأجنبية تتم لها عمليات « دبلجة » مشابهة فتكون ناطقه باللغة العربية . لكن ما معنى هذه الظاهرة وما تأثيرها فيما نحن بصدده ؟

إن هذا التحويل اللغوي للمسلسل أو الفيلم الأجنبي إلى اللغة اليابانية معناه في التحليل النهائي إعادة إنتاج كاملة للوافد الأجنبي ، إعادة إنتاج تساهم في المحافظة على وحدة التكوين العقلي والأيديولوجي لجمهور المتلقين والمشاهدين . ولكن الا تتحقق « وحدة التكوين » هذه من خلال الترجمة على شريط العرض مع استبقاء كافة العناصر الصوتية الأدائية الأخرى في المسلسل أو الفيلم دون تحويلها إلى أصوات يابانية وأداء

ياباني خالص ؟ والنظرة السطحية تقول إن الترجمة وحدها تكفي بدلاً من تجشم عناء وتكاليف إعادة الإنتاج الصوتي الكاملة للمسلسل أو الفيلم . لكن هذه النظرة السطحية تغفل حقيقة اعتماد المعطى الثقافي في تأثيره على المتلقي ، واختراقه لعقله ووجدانه ، على تساند عناصره وتكاملها . إن ما يقوم به جهاز الإعلام الياباني من خلال عملية « الدوبلاج » هذه هو فك لعناصر التوجيه والتأثير داخل المسلسل أو الفيلم ، ويتم هذا الفك بالفصل بين أهم عنصرين وهما عنصرا الصوت والصورة ، ثم بالتدخل باستبدال الصوت الياباني بالصوت الأجنبي بكل ما يحمله ذلك من طرد للعناصر اللغوية واستبدالها بمقابلها الياباني .

إن هذا الاستبدال والفك وإعادة التركيب يعد في المحطة النهائية بمثابة إعادة صياغة للرسالة التي يتضمنها المسلسل أو الفيلم ، إعادة صياغة تنفي عنها عناصر التنافر والتضاد مع « الثقافة اليابانية » وتُعيد بثها بشكل يجعلها جزءاً من هذه الثقافة غير متنافر معها على الإطلاق .

وقد تثير هذه النقطة الهامة إشكالية اجتماعية سياسية ذات بعد ثقافي فحواها أن إعادة تشكيل عناصر الرسالة الإعلامية أو الفنية إنما يتم من منظور الأجهزة الرسمية وأيديولوجية الطبقة المسيطرة وذلك من أجل ترسيخ أيديولوجيتها في وعى الجماهير ، ومن أجل محاصرتهم — ثقافياً — عن أي شكل من أشكال الوعي الأخري

ولعلنا نضيف إلى ذلك أن اختيار المادة الإعلامية والفنية يتم أصلاً وفق هذا المعيار ، معيار أيديولوجية الطبقة المسيطرة على أجهزة الإعلام والثقافة . ورغم أن هذا الإعتراض اعتراض هام ، فإن مناقشته تنقلنا من مستوى الملاحظة المباشرة إلى مستوى أكثر عمقاً في تحليل الظاهرة اليابانية . ولقد أشرنا من قبل إلى تفرقة د . نيتوبي بين الحكومة الديكتاتورية والحكومة الأبوية ، حيث يكون خضوع المواطنين في الحالة الأولى قائماً على الخوف من الإرهاب المسلط على أجسادهم ونفوسهم ، بينما يكون ولاؤهم في الحالة الثانية قائماً على الرضا والطواعية . ويبدو أن أساس العلاقة بين الحكام والمحكومين في النظام الياباني لا يزال قائماً على هذا الأساس الثاني إلى حد كبير .

ويمكن لنا أن نستشهد على استمرار سيادة هذا النمط من العلاقات حتى الآن بأمثله

كثيرة تؤكد كلها أن النظام السياسى في اليابان نظام « رأسمالي » من حيث الشكل الخارجي لكن على المستوي الباطني العميق نجد أن نمط العلاقات المسيطر هو نمط العلاقة « الأسرية » . وإذا كانت أهم سمات النظام السياسي الغربي « الديمقراطية » السياسية و « الحرية » الفردية ، فإن النظام الياباني يعتمد المبدأ الأول في نظامه السياسي ، ولكن المبدأ الثاني لا يجد تطبيقه العملي على أي مستوى من المستويات في النسق الاجتماعي .
وفي مجال المقارنة بين المجتمع الياباني والمجتمعات الغربية ، يذهب بعض الباحثين إلى أن ثمة فارقاً بين « مجتمع التأليف familiarising » ومجتمع التشتيت « strangering » ، في المجتمع الأول يكون الفرد محكوماً في سلوكه « بالتوحد مع الآخرين » بينما يكون مدفوعاً في المجتمع الثاني إلى السلوك بطريقة مخالفة لطرائق الآخرين . يؤكد المجتمع الأول على قيمة « الأخذ والعطاء » ويميل إلى تكوين بناء اجتماعى غير طبقي . هذا المجتمع يمثله المجتمع الياباني ، بينما تمثل المجتمعات الغربية النوع الثاني ، مجتمع التشتيت(١٥) .

إن ما يشير إليه **جبروكاميشيما** في النص السابق بمبدأ « التأليف » الاجتماعي الذى يفرض على الأفراد « توحد السلوك » هو ما يشير إليه آخرون من علماء الاجتماع والانثروبولوجيا الثقافية من أن مبدأ تكوين الجماعات في المجتمع الياباني ، سواء كانت جماعات مهنية أو تجمعات صناعية كالمدارس والجامعات والجمعيات بكافة أشكالها وأنماطها هو مبدأ « العائلة » .

ولا بأس هنا من بعض الاستطراد في المقارنة ما دام هذا المبدأ قد طرح على الساحة المصرية في السبعينيات ، مرحلة التحول من الاستقلال إلى التبعية ومن الوحدة إلى الفرقة ومن الاعتماد على الذات إلى استجداء الهبات والمساعدات ، وباختصار من مجتمع البناء والتعمير والكفاح إلى مجتمع الوساطة والانتهازية وبيع كل شيء حتى التراث والتاريخ . في هذا المرحلة الشائنة من تاريخ أمتنا بدد الخونة كل شيء جدير بالحرص ، بددوا الوطن في اتفاقية الصلح المهين ، وبددوا التاريخ بتحويل العدو إلى صديق والطامع إلى حليف ، وبددوا حلم فقراء الوطن من عماله وفلاحيه في الاشتراكية وباعوها لسماسرة الانفتاح بأبخس الأثمان . وباختصار كانت الصفقة كلها تعقد والسوق يقام لكي يباع كل شيء في مزاد الرأسمالية العالمية وحلفائها المحليين . وكان لابد لكي تتم الصفقة من طرح

« أيديولوجية » لتزييف وعي الفقراء ، لا لكي يصمتوا فحسب ، بل لكي يساهموا في إقامة السوق بنصب الألعاب المسلية التي تجذب الطامحين . كانت الأيديولوجية التي طرحتها سلطة الخيانة تتمثل في طرح مبدأين : مبدأ « مجتمع الحقد » توصيفاً لمرحلة البناء والكفاح والاشتراكية ، ومبدأ « العائلة المصرية » توصيفاً لمرحلة عقد المزاد العلني لبيع كل شيء. حاول الخونة أن يقنعوا الشعب المصرى أنهم يقيمون مجتمع « العائلة المصرية الواحدة » بقيادة « رب العائلة » ، وذلك على أنقاض مجتمع « الحقد » والصراع الذي كان ينبيه الشعب بأكمله ، عدا قلة قليلة حاقدة لا تكفي لكي يوصم المجتمع كله بالحقد . ولأن الأوضاع الجديدة حولت الشعب كله إلى حاقدين فقد تم صك عملات أخرى في شكل قوانين تحمل اسم « حماية الجبهة الداخلية » و « المحافظة على السلام الاجتماعى » و « حماية القيم من العيب » ، وهى كلها عملات لم تكن ثمة حاجة لها في مجتمع « الحاقدين القلائل » .

إن مفهوم « العائلة » هنا كما طرحته القيادة السياسية المصرية في السبعينيات مفهوم أيديولوجي بحت موجه للفقراء الحاقدين لكي يخففوا من حقدهم على الأخوة والآباء المحظوظين الذين أسعفهم الحظ والقدر بسقوط الثروات عليهم من السماء ، والذين يؤدون فرائض الصلاة والزكاة والحج إلى بيت الله الحرام ، وأكثر من ذلك يقيمون المساجد التي يذكر فيها اسم الله عز وجل ، وبذلك يتمتعون بتسهيلات في الحصول على المياه وعلى تصاريح مواد البناء لكى يقيموا عمائر شاهقة يرتفع أعلاها بالنيون اسم الجلالة مقروناً بالآية الكريمة « هذا من فضل ربي » .

ولا ضرر عليهم بعد ذلك كله أن يغالوا قليلاً في « مُقَدَّم » السكن في « إيجاره » بل ومن حقهم — والمال مالهم — أن يعرضوها للتمليك بأغلى الأسعار . فإذا جاء الأمر إلى الضرائب ودفع حق الوطن فلا بأس من التهرب وتقديم مستندات زائفة « والله غفور رحيم » وذلك من اللمم الذي لا يحاسب الله عليه .

كان هذا الاستطراد ضرورياً حتى لا يثير مفهوم « العائلة » في المجتمع الياباني أي دلالات سيئة من تلك الدلالات التي تصاحبه في المجتمع المصري . وينبغي التنبيه هنا إلى أن المفهوم ليس مفهوماً إعلامياً يتردد في الميكروفونات والإذاعات وعلى شاشات

التليفزيونات وقاعات الاجتماعات وفي الهتافات .. الخ . إنه مفهوم مستقر في الثقافة وفي وعي المواطن في الأعماق البعيدة الغائرة ، يتحكم في السلوك ويوجّه كثيراً من تفاصيل الحياة في المجتمع الياباني بدءاً من القرار السياسي وانتهاء بأصغر شكل من أشكال السلوك اليومي ، « ويمكن ملاحظة هذا النمط من العلاقات مثلا في نظام **اياموتو iemoto** وهو نظام العلاقات المسيطر على مجال تعليم الفنون اليابانية التقليدية كاحتفالات الشاى وتنسيق الزهور ومسرح النو Nō التقليدي إن العلاقة الاجتماعية الأساسية في جمعيات **اياموتو** هى علاقة الأستاذ بالتلميذ (وهى تشبه علاقة الشيخ بالمريد في التراث الصوفي) حيث يعتبر الأستاذ بمثابة الأب ويعد التلاميذ بمثابة الأبناء . وليست مهمة الأستاذ فقط تعليم الفن لتلاميذه ، ولكنها تتجاوز ذلك إلى مساعدتهم على إقامة فروعهم ومدارسهم الخاصة في هذا الفن ، وينتظر من التلاميذ بالطبع أن يقوموا بخدمة الأستاذ وخدمة العائلة بأكملها بطرق متعددة . ولا يزال هذا النموذج موجوداً حتى اليوم . ولا يزال العاملون بالهيئة القومية للسكك الحديدية في اليابان JNR يطلقون عليها اسم **kokutetsu ikka** ومعناه « عائلة السكك الحديدية » وذلك رغم أن الهيئة لم تعد تعتمد على تقاليد مفهوم العائلة في إدارتها(١٦) .

٥ – الخصوصية اليابانية

ولقد طرحت تفسيرات عديدة لهذه الخصوصية الاجتماعية التي يمكن تلمس مظاهرها في كل أنماط السلوك والاحتفالات اليومية ، ناهيك عن الجماعات المهنية والأحزاب السياسية . وكل تفسير من هذه التفسيرات يطرح علينا جانباً آخر من جوانب خصوصية الوضع الياباني والواقع الياباني والثقافة اليابانية .

١ – أحد هذه التفسيرات أن المجتمع الياباني مجتمع متجانس منذ عصور نشأته الأولى ، ومن شأن هذا المجتمع المتجانس أن ينتج ثقافة متجانسة تكون قادرة على تمثل كل ما يرد عليها من الخارج وتعيد توظيفه داخل بنائها الخاص . وهذا التجانس « العرقي » وما يتبعه من « تجانس ثقافي » من شأنه أن يؤدي إلى تعميق الإحساس بالانتماء في نفس المواطن ، ومن ثم يتعمق الإحساس بوطن « العائلة » ، ويعتمد هذا التفسير على افتراض أن العزلة الجغرافية الطبيعية للجزر اليابانية قد فرضت عليها عزلة ثقافية

وعرقية ، وأنها هى علة ذلك التجانس العرقي والثقافي .

ولكن هذا التفسير – فيما يبدو – يقصد بالعزلة العزلة عن العالم الغربي وأوروبا ، وإلا فإن التأثير الصيني الواضح في أهم أدوات الثقافة – اللغة – ينكر هذه العزلة المفترضة ، ناهيك عن تأثير الكونفوشيوسية الصينية والبوذية التي عبرت طريقها إلى اليابان عن طريق الصين وكوريا . ومع ذلك فإن بدايات الضغط الأوروبي على اليابان تعود إلى بدايات القرن السادس عشر بمحاولات البرتغال[١٧] إن الحديث عن العزلة حتى عن التأثير الغربي ينكره الواقع التاريخي خاصة بعد ازدهار صناعة السفن مع اكتشاف قوة « البخار » . لكن هذا التفسير ، أو بالأحرى مناقشته ، يقودنا إلى التفسير الثاني ، والذى ينقلنا بدوره إلى أحد جوانب « الخصوصية » التي نحاول تلمسها .

٢ – يعتمد هذا التفسير الثاني على « المعتقدات اليابانية » ، خاصة عقائد « الشنتو » ، ويرى أنها عقيدة مفتوحة غير مغلقة ، وهى من ثم تتسع لاستيعاب غيرها من العقائد . وإذا كانت هذه العقيدة هى حجر الأساس في الثقافة اليابانية ، فمن شأنها أن تساعد على تطوير ثقافة لامكان فيها للانغلاق ، ثقافة مرنة ، وإن كانت هذه المرونة لا تفقدها صفتها الأساسية . ورغم أن هذا التفسير يعد تطويراً للتفسير السابق ولا يتعارض معه ، فإن نقطة البداية فيه تنطلق من معارضته لمبدأي العزلة الجغرافية والتجانس ، عرقياً كان أم ثقافياً .

لقد تم تفسير مبدأ « التوحد والتأليف » في اليابان بعزلتها الجغرافية . وليست اليابان بأي معنى من المعاني مجتمعاً متجانساً ذا ثقافة متجانسة . لقد حصر المؤرخون خمس طرق مختلفة للهجرة (إلى الجزر اليابانية) في الفترة الواقعة بين ٨٠٠٠ ق . م . والقرن الرابع الميلادي فقط . وإذا كان مجتمع الجزر الكبرى يمكن أن يخضع للغزاة بأساليب القمع والقوة ، فإن مثل هذه الأساليب لا تفيد شيئاً بالنسبة للجزر الصغيرة المعزولة . في هذه الجزر الصغيرة كان الغزاة الجدد يحاولون السيطرة على المجتمع عن طريق اكتساب احترام السكان الأصليين . وذلك بأن يثبتوا لهم أن الثقافة التي يحملونها معهم أرقى وأكثر فائدة من ثقافتهم ... وهذه هي سياسة استمالة عواطف الناس Jinshin ، وهى مخالفة لسياسة السيطرة والقوة . إنها تعتمد على المبدأ الشنتوى الشعبي القديم مبدأ

« احترم الألهة واعبدْ الأسلاف » keishin-suso . إن الشنتوية نموذج فذ للديانة « غير المغلقة » ... التي تسمح للشخص أن يعبد آلهته الخاصة ، ولكنها تدعوه أيضاً لاحترام آلهة الآخرين . مثل هذه العقيدة « الفضفاضة » تضع أساس نظام سياسي يدل على اليابان(١٨) .

وإذا كان هذا التفسير ــ كما سبق أن قلنا ــ لا يتعارض مع التفسير السابق من حيث أنه يعتمد على مفهوم « التجانس الثقافي » الذى ينكره بحكم إنكاره لفكرة « التجانس العرقي » فإن « الشنتوية » ظاهرة ثقافية تحتاج بدورها إلى تفسير . لماذا كانت « الشنتوية » هى المبدأ الموحد ، والذى على أساسه يتم استيعاب المعتقدات والمفاهيم الأخرى ؟ إن الشنتوية باعتمادها مبدأ « عبادة الأسلاف » جنباً إلى جنب مع مبدأ « عبادة الطبيعة » هى التي ساعدت دون شك على بلورة « تواصل » تاريخي على المستوى الاجتماعى والثقافي . وسواء كان هذا « التواصل » صحيحاً أم زائفاً ، فالمهم هو وعي الجماعة به وإيمانهم بجدواه ، لقد لعبت الشنتوية دوراً خطيراً دون شك في نمو الوعي القومي . وحين تبنت الدولة هذه العقيدة بوصفها عقيدة رسمية استبعدت الأديان الأخرى من دائرة حمايتها وإشرافها ساعدت على تغذية الحس القومي بأفكار عن الماضي النبيل ، الغني في تراثه العظيم ، وزودته بأفكار عن الجنس الراقي المؤهل للسمو إلى مستوى العائلة القومية الباقية الخالدة(١٩) .

٣ – يحاول التفسير الثالث أن يردنا مرة أخرى إلى أيديولوجية « الدولة » ممثلة في الطبقة المسيطرة ، فيرى أن مفهوم دولة « العائلة » كان بمثابة أيديولوجية للدولة في مرحلة نشأتها حيث أضْفِيتْ على الإمبراطور صفات القداسة المستمدة من اعتقاد بأنه ابن الألهة ، واعتقاد أن الشعب الياباني بأسره يرتد في أصوله العرقية والجنسية إلى أسرة الإمبراطور . وهكذا حولت أيديولوجية الدولة الإمبراطور إلى « أب » وحولت الشعب كله إلى « أبناء » وأقامت العلاقة بين الحكام والمحكومين على هذا الأساس ، وفي هذا الإطار صارت عبادة الإمبراطور جزءاً من النسق العقائدي للشنتوية ، أو لنقل الشنتوية صارت صياغة عقائدية لأيديولوجية سياسية ، فالفصل بين الأمرين على كل حال ليس أمراً هيناً . وليست عبادة الإمبراطور ــ من هذا المنظور ــ جزءاً من عقيدة « عبادة

الأسلاف » فحسب بل هى تمتد إلى عقيدة « عبادة الطبيعية » أيضاً ، فليس الإمبراطور إلا حفيداً من نسل الآلهة « الشمس » ، وبذلك تتوحد « الأيديولوجية » السياسية للدولة بالعقيدة الدينية للشعب توحداً شبه تام . ويمضى أصحاب هذا الرأي في تأكيد أن الدولة ظلت حريصة من خلال مؤسساتها المختلفة على إبقاء هذه « العقيدة » حية في نفوس الجماهير حتى بعد هزيمة اليابان في الحرب الثانية وإرغام الإمبراطور على إعلان قرار الاستسلام بنفسه وفرض دستور يخلع عن الإمبراطور كل صفات القداسة .

وهذا التفسير يبدو وجيهاً مقنعاً من جانب توجهات السلطة والطبقة الحاكمة ، ولكنَّه لا يفسر لنا تقبل الشعب الياباني بمستويات مختلفة لهذا النمط من العقائد ، إن لم يكن على مستوى الإيمان والاعتقاد فعلى مستوى السلوك الفردي والاجتماعي .

إن نجاح أى دولة في زرع المعتقدات يعتمد على درجة استعداد الناس لقبول هذه المعتقدات دون مناقشة ، لأنهم بمثابة الأرض التي يراد زرع هذه العقائد فيها . فما هذا الذى جعل الشعب الياباني يتقبل ــ دون مناقشة ــ أيديولوجية دولة العائلة ؟[٢٠] .

٤ - يحاول التفسير الرابع أن يرد هذا التوجه في الثقافة اليابانية والواقع الياباني إلى طبيعة الشخصية اليابانية ، وهو تفسير شائع ومستقر لدى المستشرقين ناتج من ملاحظتهم لتردد الياباني في إقامة علاقات مع الغرباء . والملاحظة صحيحة ويمكن أن يلاحظها كل من يتعرف على ياباني خارج اليابان فيجده في حالة قلق وتوتر دائمين ، بل يمكن أن يلاحظ أي أجنبي يعيش في اليابان مدى قلق الياباني وتَوَتُّره إذا كان عليه أن يتحدث لغة غير لغته اليابانية الأم ، هذا بصرف النظر عن مدى إجادته لتلك اللغة التي يتحدثها . إنّ الياباني لا يحس عادة « أنه في بيته » إلا داخل مناخه الطبيعي المكاني والثقافي . لكن هذه الملاحظة يمكن أن تصدق على غير الياباني . ومع ذلك فإن هذا التردد من جانب الياباني في إقامة علاقات مع الغرباء لا يمكن أن يكون تفسيراً لظاهرة اجتماعية ثقافية بل الأحرى القول إن هذا التردد في سلوك الياباني نابع من أحساسه العميق بالترابط الأسري ، الأمر الذي يجعله متوتراً في حضور الغرباء مفتقداً للألفة . إن علماء النفس الذين يميلون بحكم تخصصهم إلى تفسير الظواهر تفسيراً نفسياً لا يكفيهم

هذا التفسير النفسي في تحليل هذه الظاهرة ، ولذلك نراهم يلجأون إلى الاستعانة بمناهج التحليل الاجتماعي والانثروبولوجي . وقبل أن نتعرض لبعض جوانب هذا التحليل يهمنا الإشارة إلى ما ذهب إليه أحد الباحثين من فارق بين نهج الحياة الغربي وبين الحكمة الشرقية . ورغم أن هذا النمط من التفكير لا ينتمي إلى إطار التفسير النفسي فإنه على الأقل ينطلق من تلك الافتراضات الذهنية عن فروق جوهرية بين الشرق والغرب .

يتميز نمط الحياة الغربي بنهج تسليح الإنسان لمواجهة الظروف الخارجية (الطبيعية) . وعزل الفرد بهذه الطريقة (عن الطبيعية) يمثل الأساس الحقيقي للفردية الأوروبية .. ولذلك تتجسد في هذه الحضارة صفات التوتر والقلق والقوة . وعلى النقيض من ذلك نجد أن للشرق حكمة دقيقة قادرة على جعل الظروف (الطبيعية) ملائمة للحياة الإنسانية وذلك عن طريق إكساب الإنسان القدرة على التكيف مع الظروف الطبيعية (المحيطة به)[٢١]

ويمكن التعبير عن هذه الفكرة بأن نقول – مستعيرين بعض مفاهيم « **سيد قطب** » – إن علاقة الإنسان بالطبيعة في الغرب تختلف عنها في الشرق ، إنها في الغرب تقوم على « الصراع » وعلى محاولة الإنسان « إخضاع » هذه الطبيعة لإشباع حاجاته المادية ، لذلك كان إنجاز الحضارة الغربية في مجال التكنولوجيا والتقدم المادي ، وعلى عكس ذلك فعلاقة الشرقي بالطبيعة هى علاقة « الوئام » و « التكيف »[٢٢] .

وإذا كان « **سيد قطب** » يقيم هذا التصور على أساس من معطيات النّص القرآني ، فإن الباحث الياباني يرد هذاالنزوع في علاقة الشرقي بالطبيعة إلى البوذية بوصفها عقيدة تضع الإنسان جزءاً من العالم الطبيعي .

من الواضح أن كل هذه التفسيرات تمس جانباً من الحقيقة ، ولذلك فهي تفسيرات تتكامل ولا تتعارض . إن مفهوم دولة « العائلة » يعني وحدة في العقل والثقافة ، وحدة لا تستند إلى الظروف الجغرافية وحدها كما أنها وحدة لا يفسرها مفهوم « أيديولوجية الدولة » أو « أيديولوجية الطبقة » بالمعنى المستقر في التراث الغربي ، وكذلك لا يمكن تفسير هذه الوحدة بناء على صفات ثابتة راسخة نفسية أو قومية . إن التفسير الاجتماعي

الانثروبولوجي يرى أن هذه « الوحدة » العقلية تستند إلى نسق من العقائد فسيح ومتسامح ، نسق يصعب تتبع أصوله ورد كل جزء منه إلى مصدره . هذا النسق يستند إلى مبدأ « المنفعة » ، فما هو نافع على أي مستوى من المستويات يمكن تمثله وتبنيه ، وما هو ضار فلا مجال لاستيعابه في مجال الوعي والثقافة . من هذا المنطلق نفهم الأخذ الواسع عن الثقافة والفكر الصينيين ، كما نفهم النقل الواسع والسريع للتكنولوجيا الغربية ، فقد خضع كل ذلك لنسق موحد من التمثل والانتفاع(٢٣) .

٥ – إن هذا النسق الفسيح والمتسامح من العقائد يعتمد على ثلاثة أضلاع هى الشنتوية والبوذية والكونفوشيوسية ، وهى ذات الأضلاع الثلاثة التي تُكَوِّن مفاهيم « **البوشيدو** » كما شرحها **د . نيتوبي** في هذا الكتاب ، الأمر الذى يدل على أن « **البوشيدو** » بوصفها نظاماً من المعتقدات ومحددات السلوك لا تزال حية وإن اختفت مظاهرها الحادة باختفاء الطبقة التي أنتجتها . والحقيقة أن « **البوشيدو** » ليست من إنتاج النظام الإقطاعى الياباني كما يمكن أن نتوهم ، لذلك ترجمها **د . نيتوبي** « روح اليابان » مع أن ترجمتها اللغوية « روح **الساموراي** » . لقد اختفى **الساموراي** بزيه وسيفه وملامحه العسكرية من الحياة اليابانية ، لكن « الروح » لا تزال سارية نشطة فعالة . وإذا كان هذا النسق الفسيح من العقائد يعتمد على ثلاثة أضلاع فإن الضلع الأكبر هو الشنتوية ، العقيدة اليابانية الأصلية التي استوعبت العقائد الأخرى وأضافت إليها من خلال مبدأ « الانتفاع » الذي يعد بمثابة حجر الزاوية فيها . والحديث عن « الشنتوية » يستدعي منا أن نتعرض – أولاً – لقضية « الدين » في اليابان وهي قضية أشرنا إليها في الفقرات السابقة إشارات عاجلة .

وليس صحيحاً على الإطلاق ما يخرج به الأجنبي من انطباع خاطيء عن عدم تدين اليابانيين وذلك انطلاقاً من تصور مسبق يحصر مفهوم « الدين » في الشعائر الشكلية وفي قوانين التحريم والتحليل ، وهي السمات التي يحرص الفكر الديني الرجعي على التركيز عليها . إذا كان الدين نسقاً من العقائد والتصورات التي تحدد وضع الإنسان في الكون وتحدد علاقته بالطبيعة وبغيره من البشر ، فإن المجتمع الياباني مجتمع شديد التدين بل عميق الإيمان ، سواء كان يؤمن بالشنتوية ــ العقيدة اليابانية الأصلية ــ

أو بالبوذية أو بالمسيحية أو بالإسلام . والغريب أن الكثيرين الذين يزورون اليابان ويُصدمون من مظاهر « عدم التدين » خاصة على مستوى التحريم والتحليل لا يكادون يذكرون أن « الفصل بين الدين والدولة » في المجتمع الياباني مبدأ فرضته عليها القوى الغربية في نص الدستور الذى تمت صياغته بعد هزيمة اليابان في الحرب الثانية . وليس بعيداً عن الأذهان ما أثارته أمريكا والصين وكوريا من اعتراض على زيارة رئيس الوزراء الياباني لأحد معابد الشنتو وهو معبد **ياسكوني** yasukuni في طوكيو والمخصص لتخليد ذكرى ضحايا الحرب العالمية الثانية . إن اعتراض الدول الأخرى على زيارة هذا المعبد – رغم أنها مسألة داخلية وطنية بحتة – هو في حقيقته اعتراض على بعض « رموز » السياسة اليابانية قبل الحرب العالمية ، وهى السياسة التي أدت إلى نمو النزعة القومية نمواً حاداً ، وتبدت هذه النزعة أحياناً في اعتبار « الشنتوية » هى الدين الرسمي للدولة ، واستبعاد الأديان الأخرى من حماية الدولة وتأييدها .

وليس لهذا الاعتراض فيما نحن بصدده إلا مغزى واحداً وهو أن قضية الدين في المجتمع الياباني ليست بالبساطة التي تبدو بها على مستوى الملاحظة المباشرة القائمة على تحكيم مفاهيم مسبقة من أطر ثقافية ودينية مغايرة سواء كانت مسيحية أو إسلامية .

الأساس في الثقافة اليابانية هو ذلك الاعتقاد الأسطورى القديم في « وحدة الطبيعة » التي كان الإنسان يعد جزءاً منها ، وكل ما هو طبيعي له جانبه الفيزيقي وجانبه الروحي المختفي . وكل روح هى kami التي تترجم خطأ أحياناً بإله وآلهة وأن كانت من حيث دلالتها اللغوية تعني « عالي » أو « أعلى » في الرتبة أو المكانة . في هذا الفهم لا يمكن حصر أرواح الطبيعة (أو الآلهة) ، ولكن روح الشمس Amaterasu Ömikami تحتل ـــ في التصور الياباني – قمة سلم القداسة ، فمنها انحدر حفيد هو Ninigi-no-Mikoto إلى اليابان ـــ ليملكها ويحكمها هو ذريته . ومن أحفاد هذا الحفيد الأول تولى عرش اليابان الإمبراطور **جينمو** Jinmu بوصفه أول إمبراطور لليابان ، وظلت السلطة الإمبراطورية حتى اليوم كما هي منذ حوالي ألفين من السنوات[٢٤] عدا بعض التعديل الدستوري ـــ بعد الحرب الثانية ـــ الذي حول سلطة الإمبراطور إلى مجرد سلطة رمزية ، وإن ظل احترامه عند المواطن الياباني ملتصقاً أشد الالتصاق بقداسته الدينية .

وقد كانت عقيدة « الشنتو » كما سبقت الإشارة هي الإطار الديني الذي استوعب العقائد اليابانية فاختلطت فيها عبادة الطبيعة بعبادة الأسلاف طالما أن « الموت » يعني ذهاب الإنسان إلى عالم الأرواح ، ومن ثم يتحول « الميت » إلى روح خالصة يمكن أن تسكن « المعبد » وأن يتقرب إليها الخَلَف بالدعاء . وعلى ذلك فليست معابد « الشنتو » إلا أضرحة مخصصة للعبادة بالمعنى العام لا بالمعني الشعائري المعروف في الأديان السماوية .

وحين وفدت « البوذية » على اليابان في القرن السادس الميلادي تم تحويلها إلى شيء شبيه بالشنتوية ، فصارت البوذية اليابانية هى عبادة **بوذا** ، وذلك باستثناء مذهب **زن** Zen الذى كان أتباعه يتوجهون بالعبادة إلى **بوذا** الأزلي إلى. شخصية **بوذا** التاريخية ، باستثناء هذا المذهب تحولت البوذية اليابانية إلى نوع من عبادة « السلف » الذى لا يختلف عن الشنتوية[٢٥] . وعلى مستوى الشعائر والطقوس والأدعة صارت كلها توجه إلى **بوذا** لا للخلاص الفردي الذي هو الهدف الاسمى للبوذية ، بل صار هدفه « الرفاهية الاجتماعية » .

> **حين وفدت البوذية لليابان لم يكن في اليابان دولة إمبراطورية قومية . وقد حاول الناس بتأثير الثقافة الصينية أن يقيموا مجتمعاً يشبه في نظامه تانج T'ang (٦١٨ – ٩٠٧) ورغم ذلك فقد استطاع الناس توظيف المثل البوذية الفلسفية في إقامة مجتمع السلام واستخدموا عبارات مثل « حماية الوطن وتقويته بدراما » «dharmA» الحقيقي ، وكانت الصلوات والاحتفالات والأعياد تقام من أجل رفاهية المجتمع وسعادته ، ومن أجل حمايته من الأمراض والكوارث[٢٦] .**

إن هذا التحول الذي أصاب البوذية لا يمكن النظر إليه بوصفه « انحرافاً » عن الاصل ، فالبوذية ذاتها عقيدة مرنة لا تتسم بأي صفة من صفات الدوجماطيقية ، إنها عقيدة « شخصية » إذا صح التعبير ، تتعدد فيها الطرق والوسائل والتأويلات ، وبالتالي فقد ساعدت ــ بطواعيتها هذه ــ على أن تحتضنها الشنتوية وتعيد توظيفها في إطار مبدأ « المنفعة » الذي أشرنا إليه . لقد كان هدف الأمير **شوتوكو Shotuku** الذي أدخل

البوذية إلى اليابان في القرن السادس الميلادي :
تأكيد إمكانية تحقيق الأهداف البوذية من خلال حياة البشر الفعلية وانغماسهم في حركة الواقع الحي . كان هدفه أن يكون للبوذية مغزاها في السلوك العملي في حياة الإنسان اليومية . وقد أكد بشكل خاص على مبدأ « الغيرية » وعلى ضرورة أن يكون « بوذا » أو السالكون طريق البوذية budhisattvas في خدمة كل الكائنات الحية[٢٧] .

وإذا كانت الشنتوية قد استطاعت تطويع « البوذية » فإن « الكونفوشيوسية » قد ساهمت في الإضافة إلى الشنتوية ، وإلى الثقافة اليابانية بشكل عام ، بعداً هاماً في العلاقات الاجتماعية وعلى رأسها علاقة الحاكم بالمحكوم . وقد أسهب مؤلفنا في الحديث عن العلاقات الست في العقيدة الكونفوشيوسية ، ولكن اللافت للانتباه ، أن أفكار كونفوشيوس عن هذه العلاقات لم تؤثر في الصين كما أثرت في اليابان . ولا شك أن التأثير هنا – تأثير علاقات الدولة الأسرة – جاء من تقبل الشنتوية القائمة على عقيدة « وحدة الطبيعة » لمفهوم علاقات التكامل والقواد والتراحم والتعاطف التي تؤكد عليها الكونفوشيوسية . وإذا كانت النشتوية « توحِّد » بين الإنسان والطبيعة فمن الطبيعي أن ترحب بمبدأ يوحِّد بين « البشر » على أساس من العواطف الأسرية « الطبيعة »[٢٨] وهكذا تداخل المفهومان « وحدة الطبيعة » و « الشكل العائلي » أساساً للعلاقات الاجتماعية في صياغة « الأساس » الراسخ للثقافة اليابانية .

يتجلى مفهوم « وحدة الطبيعة » هذا ، وهو مفهوم ديني كما ترى في كل أنماط السلوك الياباني في الحياة اليومية مثله مثل مفهوم « الشكل العائلي » الذي يتجلى في كل مستويات السلوك الاجتماعي . والمفهومان متداخلان أكثر منهما متكاملين بحيث يمكن القول بأن الفصل بين ما هو ديني وما هو اجتماعي فصل يتم على المستوى النظري الإجرائي فحسب ، ويصل التداخل إلى درجة الخفاء بحيث لا تستطيع العين الملاحظة أن تفرق بينهما ، وهذا في ظني أساس الاتهام الذي يوجه لليابانيين غالباً بأنهم شعب غير متدين . إن الفصل بين الدين والدولة قائم على مستوى الممارسات السياسية والقرارات التنفيذية تطبيقاً للدستور المفروض على اليابان ، ولكن الاحتفالات الدينية الشعبية والشعائر وطقوس الميلاد والزواج والموت تنفي وجود أي فصل بين الدين والحياة الاجتماعية أو الشخصية . وفي البيت الياباني التقليدي تجد حجرة خاصة فيها نموذج

مصغر للمعبد الشنتوى أو البوذي أو لكليهما . وفي احتفالات رأس السنة يذهب كل اليابانيين للمعابد الشنتوية بما فيهم البوذيون . وفي احتفالات عيد الموتي obon وهو عيد بوذي يرحل كل اليابانيين إلى مساقط رأسهم لتقديم الهبات والدعاء لأرواح أجدادهم الموتى بما في ذلك اليابانيون المسيحيون ، بل وأكثر من ذلك فالياباني قد يتزوج على الطريقة الشنتوية ، ويؤبن موتاه على الطريقة البوذية . مرة أخرى هذا التعدد الظاهري في الأديان والممارسات وراء الاتهام بعدم التدين ، والحقيقة أن الياباني الذى يسيطر على ثقافته تجاه « الوحدة » يؤمن بشكل غير واع ربما بوحدة الأديان ، ويتبنى الدين الذي يحقق له على المستوى الفردي والاجتماعي أحلامه ومطامحه . وينبغي ألا نُخدع حين نسأل يابانياً عن دينه فتكون إجابته أنه لا يؤمن بأي دين لأن معنى هذه الإجابة أنه لا يحصر نفسه داخل إطار دين بعينه أو ممارسات دينية شعائرية خاصة ، بل يختار من كل دين ما يكون ملائماً في موقف بعينه أو إزاء قضية بذاتها .

ولا شك أن هذه النظرية « النفعية » للدين ، تكون « نفعية » فقط من منظور نظام ديني صارم محدَّد الحدود والمعالم على مستوى العبادات والشعائر أولاً ، وعلى مستوى نظام التحليل والتحريم ثانياً . ولكن من منظور « الدين الطبيعي » القائم على « وحدة الطبيعية » ليس ثمة نفعية ، فكل الطرق تؤدي إلى غاية واحدة . إن مفهوم الدين في اليابان يقترب إلى حد كبير من مفهوم « وحدة الوجود » التي صاغها **ابن عربي** في التراث الصوفي الإسلامي ، مع فارق كبير أن « وحدة الوجود » عند **ابن عربي** قائمة على أساس وجود مبدأ ميتافيزيقي يتجلى في كل مظاهر الطبيعة كما يتجلى في كل مظاهر الفكر ، ولا وجود لمثل هذا المبدأ الميتافيزيقي الأول في مفهوم « وحدة الطبيعة » في المعتقدات اليابانية وبكلمات أخرى تقوم « وحدة الوجود » الدينية عن **ابن عربي** على أسبقية وجودية للواحد على الكثرة تقابلها أسبقية معرفية للكثرة على الواحد ، وتقوم التجربة الصوفية بدور الوسيط بين هذين المفهومين المتعارضين ــ الوجودي والمعرفي ــ وتوحد بينهما ، وليس المسألة في المعتقدات اليابانية سوى « وحدة طبيعية » قائمة على الكثرة الظاهرية المدركة . صحيح أننا على المستوى البوذي الفلسفي قد نجد صياغات فلسفية للقضايا الدينية تقترب من صياغات **ابن عربي** ، ولكن حديثنا عنا ينصب على

الفكر الديني والمعتقدات على مستوى الحياة الاجتماعية لا على مستوى الفلاسفة والمنظِّرين .

٦ ـ الشخصية القومية بين الثبات والتغير

وحتى لا يكون حديثنا عن خصائص « ثابتة » في ثقافة خاضعة شأنها شأن غيرها من الثقافات ـــ للتغير والتحول ، فإننا لا نستطيع أن نصادر على مستقبل الثقافة اليابانية انطلاقاً من حاضرها أو من خصائص ماضيها . إن الضغوط الغربية تتزايد على كافة المستويات الاقتصادية والثقافية لفتح أبواب اليابان . ولما كان الغرب على حافة الإفلاس الثقافي والفكري فإن ضغوطه على اليابان في المجال الاقتصادي تتمثل في فتح أبواب اليابان للمنتج الغربي والتقليل من تصدير المنتج الياباني . لكن المطلب على المستوى الثقافي يأخذ الطريق المعاكس تماماً حيث تطالب اليابان بمزيد من بذل الجهد لشرح ثقافتها وعرض تراثها على الآخرين .

ولعل من المفيد في هذا السياق أن نستشهد ببعض فقرات من بيان رئيس الوزراء الياباني في الجلسة الافتتاحية للدورة العادية رقم ١٠٤ للبرلمان يوم ٢٥ / ١ / ١٩٨٦ ، وهي فقرات تؤكد ما نذهب إليه من بداية تحول جديد في علاقة اليابان بالغرب . يشير البيان إلى ما حققته اليابان من تقدم اقتصادي ويناشد مقارنة هذا التقدم الاقتصادي بتقدم مماثل على المستوى الثقافي والروحي .

واليابان اليوم بما حققته من ارتفاع في مستوى المعيشة بالجهد الدائب على أهبة تحول جديد وتخلق جديد ، وعلينا ـــ استجابة للمطلب الجماهيري بالوفرة الحقيقة ـــ أن ننتقل من وفرة السيولة إلى وفرة المخزون ، من مرحلة الوفرة المادية إلى مرحلة الثروة الروحية والذهنية وعلينا بالمثل أن نحقق امتداداً دولياً في مجتمعنا واقتصادنا وفي الميادين الأخرى ...

لقد أصبح المجتمع الأوروبي بحكم ما حققه من تقدم تكنولوجي وعلمي سريع مركزاً ثقافياً حيوياً ، انتشر انتشاراً واسعاً ليسيطر في القرون القليلة الماضية ، ولقد أدرك الناس مع ذلك ـــ وبشكل واسع مطرد ـــ في هذا القرن العشرين أن ثمة أنماطاً أخرى من الفكر والقوانين الأخلاقية والأنظمة الاجتماعية انبثقت وامتدت على طول الكرة الأرضية

وعرضها منذ آلاف السنين ، وأن هذه الأنماط كلها ـ بطريقة كل منها الخاصة ـ تجسيد حقيقي لحكمة الإنسان وكرامته .

إننا في غمرة حماستنا لتشرب الثقافات والأفكار الأجنبية كنا أحياناً نقصِّر في واجبنا إزاء تقديم يد المساعدة للعالم لكي يفيد من التراث الثقافي الياباني ومن الأفكار اليابانية . واليوم ثمة حاجة ملحة لكي نبذل قصارى جهدنا في شرح اليابان لشعوب ما وراء المحيط ولكي نساعد الشعوب الأخرى التي تريد أن تعرف المزيد عن اليابان . وعلينا قبل ذلك أن نتمكن من الرؤية الموضوعية لحضارتنا وعلينا أن نبذل كثيراً من الجهد لكي نعرف أنفسنا معرفة أفضل .

إن تركيز بيان رئيس الوزراء على أهمية الجانب الثقافي والحضاري في علاقة اليابان بالمجتمع الدولي إنما يعكس وعي القيادة السياسية بحقيقة وضعية اليابان في مرحلة ما بعد الحرب الثانية . إن مجتمع الوفرة الاقتصادية يجب أن يتحول من وفرة السيولة إلى وفرة « المخزون » ، وهو بكلمات أخرى الانتقال من مرحلة البناء المادي للبنية الاقتصادية إلى مرحلة البناء الروحي للبنية الفوقية الثقافية . وإذا كان التراث الياباني ـ الذي يشرحه لنا مؤلف هذا الكتاب ـ قد ساعد على تحقيق الرخاء المادىء ، فإن هذا الرخاء المادىء ذاته يجب أن يتحول لدعم هذا التراث وتطويره .

وإذا كان رئيس الوزراء الياباني المتهم بتبعيته للغرب ولأمريكا خاصة لا يكف عن توجيه نداءات متتالية للمواطن الياباني لكي يشجع البضاعة الأجنبية المستوردة ، وذلك استجابة لمطالب الغرب بل ولتهديد أمريكا بالحرب فإن المواطن الياباني لا يأبه لمثل هذه النداءات ، فالمنتج الياباني لا يشبع حاجات المواطن المادية فقط ، بل لا يتعارض مع قيمه الثقافية ومفاهيمه الروحية أيضاً . وكثيراً ما يعبر الساسة الغربيون عن شكهم في نوايا رئيس الوزراء الحقيقية ، ويتهمون نداءاته وقراراته بأنها مجرد أشياء للاستهلاك الخارجي . وأكثر من ذلك فالمواطن الياباني نفسه يشك في ان رئيس الوزراء نفسه يشجع البضائع المستوردة في حياته الشخصية .

وسواء كان صانع القرار الياباني جاداً في تعاطفه مع مشكلات الغرب الاقتصادية أم كان غير جاد فإن الحقيقة تبقى وهي أن التفوق الاقتصادي ـ ومن ثم السياسي ـ

الذي حققته اليابان لا يمكن أن يفسر من خلال نظرية « التبعية » ولابد من البحث عن تعليل لهذا التفوق في « الموروث » الياباني وفي بنية الثقافة اليابانية بشكل عام وإذا كنا قد طرحنا مفهوم « الدولة العائلة » في محاولة لتفسير بعض جوانب الظاهرة اليابانية ، فإن التحولات التي يمكن أن تصيب المجتمع الياباني قد تصيب هذا المفهوم وتؤثر فيه بشكل أو بآخر ، خاصة مع ميل الأجيال الجديدة بشكل لافت للانبهار بالنموذج الغربي عامة والأمريكي خاصة . وفي هذا الإطار يمكن أن نفهم تركيز رئيس الوزراء في بيانه على شرح الثقافة اليابانية للأخرين وعلى ضرورة فهم الذات .

إن « الخطاب » السياسي الياباني الذي يعبر بالضرورة عن « أيديولوجية » الدولة لا يتعارض مع مستويات « الخطاب » الأخرى في الثقافة اليابانية وفي الواقع الياباني ، إنه ليس « خطاباً » للتصدير ولكنه دعوة للمشاركة . لا ينكر أحد أن النظام السياسي في اليابان يقوم على تعدد الأحزاب ، ولا سبيل لإنكار أنه مجتمع طبقي ، لكنه مجتمع يميل إلى « التعاون » و « الوئام » .. أكثر مما يميل إلى « الصراع » . ليس ثمة دعوة « إعلامية » للسلام الاجتماعي ونفي « الحقد » أو للالتزام بمصلحة الوطن العليا ، التي هي في الخطاب السياسي المصري مصلحة الحكام والطبقة التي يمثلونها ، فتلك كلها حقائق ثابتة في الواقع الياباني بحكم بنائه الاجتماعي وطبيعة تشكيله الفكري والثقافي . وليس أدل على هذه « الوحدة » — التي لا تنفي التنوع أو التعدد — من منطلقات كل أنواع « الخطاب » تكاد تكون واحدة .

إننا نستمع إلى خطاب رئيس الوزراء كأننا نستمع إلى صوت « اليابان » نفسه الذي حاولنا في الصفحات السابقة أن نقارب بعض ملامحه وسماته وخصائصه . وأين ذلك من أكاذيب حكامنا وأضاليلهم وعزلتهم عن أي ثقافة حقيقية تنتمي للوطن ! ترى هل نستطيع أن ننفخ في النار التي تحت الرماد لكي نبعث « روح » ثقافتنا الوطنية التي يحاول « الخطاب » الرسمي في كل مستوياته الثقافية والإعلامية طمسها ؟ لنستمع مرة أخرى إلى رئيس الوزراء الياباني لنتأكد أن « **البوشيدو** » ما زال حياً فاعلاً نشطاً في عقل اليابان ووعيها . انه الدين الذي يسعى للإنسان والمجتمع ويصنع الحضارة والتاريخ ، الدين الذي نريد أن نمسح عنه في ثقافتنا كل ما تراكم على سطحه من تأويلات

وتخريجات أفقدته روحه ووظيفته في خدمة الحكام وفي إسكات صوت المستضعفين . ليس هذا صوت « طبقة » تستغل الدين لتحقيق مصالحها ، ولكنه صوت الثقافة التي يتحدث عنها هذا الكتاب .

وثمة درسان يجب أن نتعلمهما هنا : أولهما الحاجة إلى أن نضمن عدم سيادة العلم والتكنولوجيا على مجال الحضارة ، ولا أن يكونا هما المحركين الأساسيين لحركتهما ، بل يجب أن تصحبهما دائما قيمنا الثقافية . والدرس الثاني أن نعي حاجتنا إلى تعزيز التفاهم المشترك المتبادل وأن يعي العلماء قيمة مساهمات غيرهم في مجال العلم والحضارة ، فتتسع بالتالي أسس القيم المشتركة في المجالات الروحية والثقافية .

لقد قال بوذا منذ ما يقرب من ألفين وخمسمائه سنة : « أنا سيد نفسي في السماء والأرض » ، وقال : « مقدس كل ما ينتمي إلى الطبيعة » . هذا جوهر الفلسفة الشرقية . ونحن اليابانيين نؤمن أن الأم الحقيقية للإنسان هي الطبيعة ، ونؤمن أنه من الضروري أن نعيش في وئام وتوافق مع الحيوان والنبات ومع كل ما هو حي . إن تعاليم « الوحدة » هذه بكل ما تفرضه من تعايش ووئام هي تعاليمنا الأساسية في تاريخنا الطويل .

ولذلك أحسست وأنا أرى هذا التصدع الحاد بين الجانبين المادي والروحي في الحضارة الحديثة أنه من الضروري أن أتعرض بالشرح لهذه التعاليم التي ظللت الأجيال تتوارثها دون أن تنشرها أو تدعوا لها[٢٩]

---

(٢٩) ثم كلمة أخيرة نود إضافتها خاصة باستعمال كلمة « بوشيدو » في النص العربي . لقد اضطررنا أحياناً لاستخدام الكلمة والتعامل معها في صيغة المذكر ، وأحياناً كنا نستخدمها في صيغة المؤنث . وفي كلتا الحالتين كان السياق هو الذي يفرض علينا استخداماً بعينه ، فهي حين يوصف بها الساموراي الفارس كانت تفرض علينا التعامل معها بوصفها كلمة « مذكرة » وحين يشار بها إلى الثقافة أو تقاليد الفروسية أو مجموعة القواعد والنظم المرتبطة بها كانت تفرض علينا التعامل معها بوصفها كلمة « مؤنثة » . وليس في اللغة اليابانية على أي حال تفرقة بين « مؤنث » و « مذكر » . واللغة الإنجليزية ـــ كما يعلم القارىء ـــ لا تشير الا إلى المؤنث الحقيقي ، وما عدا ذلك من الأشياء والمفاهيم لا يقع تحت هذا التقسيم اللغوي .

هوامش وتعليقات

١ ــ ليس لدينا سوى ما كتبه أنيس منصور في كتابه « حول العالم » ، وما كتبه يحي زكريا في « اليابان في عيون مصرية » سلسلة كتاب اليوم ، العدد ٢١٢ ، ابريل ١٩٨٣ ، وهو عبارة عن نظرات عامة وملاحظات من خلال إقامة المؤلف في اليابان لبضع سنوات طالباً للدكتوراه في مجال الهندسة .

٢ ــ انازو نيتوبه : البوشيدو روح اليابان ، ترجمة : مختار كنعان ، المقدمة ص ٩ ــ ١٠ .

٣ ــ السابق ص ١٠ .

٤ ــ السابق ص ١٣ .

٥ ــ السابق ص ١٥ .

٦ ــ انظر : لويس عوض : تاريخ الفكر المصري الحديث ، جـ ٢ الفكر السياسي والاجتماعي ، كتاب الهلال ، العدد ٢١٧ ابريل ١٩٦٩م ، ص ١١٢ ــ ١٤٦ .

Albert Hourani, Arabic Thought in The Liberal Age 1798-1939, Oxford University Press, London, 1962, pp. 69-84.

٧ ــ انظر مثلاً : يوميات نائب في الأرياف : مكتبة الآداب ــ القاهرة ، بدون تاريخ ، ص ١٦٤ ــ ١٦٥ ــ حيث يقارن الحكيم بين جريمة التخلف في « أبنوب » الصعيد وبين جرائم الحضارة والتقدم في « شيكاجو » بأمريكا . وقد حلل عبد المحسن طه بدر هذه الظاهرة ــ ظاهرة تبعية المثقف العربي للغرب ــ تحليلاً عميقاً في كتابه « تطور الرواية العربية الحديثة» ، دار المعارف ، ط ٢ ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ٤٣ ، ٢٣٠٢ ــ ٢١٠ ــ وهو تحليل أفدنا منه هنا إفادة بالغة .

٨ ــ لمزيد من الإحاطة بجوانب هذه الإشكالية انظر : عبد العزيز الأهواني : ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار في الشعر ، مكتبة النهضة ، القاهرة ١٩٧٠م .

9 - Osamu Ikeda, Arabic Teaching in Japan, in «Arab-Japanese Relation, Tokyo Symposium», Japan National Committee For The Study of Arab-Japanese Relation, 1981, pp. 75-76.

١٠ ــ السابق : ص ٧٥ .

١١ ــ اعتمدنا في حديثنا عن المؤلف على كتاب :

Kitosawa Sukeo, The Life of Dr. Nitobe, Hokuseido Press, Tokyo, 1953.

١٢ ــ راجع : Dia logue at Numayama, A Dilogue Between Yokoi Shonan and One of His Diciples, trans. by Isam R. Hamza,

Nihon Gakka Ho (Journal of Japanese Studies), Institute of Japanese Studies, Osaka University, No. 4, March 1985, pp. 35-52.

١٣ — حرب الأفيون سلسلة من الحروب شنتها بريطانيا على الصين ، وكان الهدف منها فتح موانئ الصين عنوة للتجارة مع الغرب والحصول على مزايا جمركية . وكانت حجة بريطانيا لشن هذه الحرب ما قامت به السلطات الصينية من حرق ٢٠ ألف صندوق من الأفيون بعد أن كانت قد ألغت تجارته قبل ذلك عام ١٧٩٩م رغم ما كان يدره من أرباح طائلة على التجار البريطانيين ومن يتعاون معهم من رجال الإدارة الفاسدين في الصين . في هذه الحرب احتلت بريطانيا هونج كونج عام ١٨٤١م ، وأوشكت على تهديد بكين نفسها بعد أن سقطت مدينة تشينكيانج Chinkiang . وقد استولت بريطانيا على هونج كونج طبقاً لاتفاقية نانكنج Nanking والتي منحت التجار البريطانيين كل حقوق الإقامة في موانئ أموى Amoy وكانتون Kanton وفوتشوFoochow وننجبو Ningbo وشنغهاي ، وبمقتضى هذه الاتفاقية أيضاً حصلت بريطانيا على خمسين ميلوناً من الدولارات تعويضاً . وفي عام ١٨٥٦ انضمت فرنسا إلى بريطانيا في الحصول على امتيازات تجارية من الصين ، وتزايدات الأطماع الأوروبية فاشتركت كل من بريطانيا وفرنسا وروسيا وأمريكا في اتفاقية تينتسن Tientsin التي قننت تجارة الأفيون . وفي عام ١٨٦٠م استولت بريطانيا على كولون Kowloon كما استولت روسيا على جزء من منشوريا .

انظر : The Concord Desk Encyclopedia, Vol. 3, Concord Reference Books, Inc., U.S.A., 1982.

١٤ — Wang Feng, International Relation on the Eve of The Meiji Ishinn in «Meiji Ishin», ed. by Nagai Michio and Miguel Urrutia, The United Nations Univresity Japan, 1985, p. 74.

١٥ — هذا رأى جيروكاميشيما Jiro Kamishima نقلاً عن :

The Transformation of The World, Vol. 2, Economy and Society, ed. by Mike Gonzalez and Others, United Nations University, Macmillan Press, 1984, p. 118.

16 - Keiichi Sakuta, Social Aspects of Endogenous Intellectual Activity: Principles of Group Formation in Japan, in «Intellectual Creativity in Endogenous Culture, ed. by Anwar Abdel-Malek, United Nations University, Japan, 1981, pp. 406-407.

١٧ — انظر Wang Feng في المرجع المشار إليه سالفاً ، ص ٧٣ .

١٨ — جيروكاميشيما ، في المرجع المشار اليه سالفاً ، ص ١١٨ — ١١٩ .

١٩ — Sakamaki Shunzo, Shinto: Japanese Ethnocentrism, in «The Japanese Mind, Essential of Japanese Philosphy and Culture» ed. by Chales A. Moore, Tut Books, Tokyo, 6 th edition, 1984, p. 31.

٢٠ — انظر : Keiichi Sakuta المرجع المشار إليه سابقاً ص ٤٠٤

21 - Yukawa Hideki, Modern Trend of Westrn Civilization and Culural Peculiarities in Japan, in «The Japanese Mind» quoted above, p. 59.

٢٢ — انظر : سيد قطب : الإسلام ومشكلات الحضارة ، مكتبة وهبة ، مصر ، ١٣٨٧هـ — ١٩٦٧م ، ص ١٨ .

23 - Nakamura Hajime, Toyojin no Shii Hoho 3, Shunjush, Tokyo, 1962.

نقلاً عن : Takeo Doi, The Anatomy of Dependence, trans. by John Bester, Kodansha International Ltd. Tokyo, 1983, p. 45.

٢٤ — انظر : ساكا ماكي شونزو : المرجع المشار إليه — القاص ٢٦ .

25 - Mimoto Shoson, The Relation of Philosophical Theory to Practial affairs in Japan, in «The Japenese mind», p. 6.

٢٦ — السابق نفسه ص ١٠ دارما dharma هو القانون ، هو تعاليم بوذا وهو الحقيقة المختفية وراء الظواهر ، الحقيقة النابعة من علاقة العلة بالمعلول بالمعنى الميتافيزيقي ، انظر :

Yasuji Kirimura, Fundamentals of Buddhisim, Nichiren Shoshu International Center, Tokyo, 1984, p. 26.

Ernest Wood, Zen Dictionary, Charles E. Tuttle Company Tokyo, p. 35.

27 - Nakamura Hajime, Legal, Political and Economic Thought, in «The Japanese mind», p. 158.

٢٨ — عن مبادىء الكونفوشيوسية : انظر :

Confucius, The Analects, ed. by Betty Radice, penguin Books, Britain, 1984, p. 18 of the Introduction.

٢٩ — اعتمدنا هنا على الترجمة الانجليزية التي نشرتها جريدة .

إهداء المؤلف

إلى عمي العزيز / توكيتوشي أُتا

Tokitoshi Ota

الذي علمني توقير الماضي ، وعلمني أن أحب أعمال الساموراي وأفعالهم ، أهدى هذا الكتاب الصغير .

مقدمة الناشر

□ □ هذا الكتاب الشيق الصغير عن « روح اليابان » يلاقي منذ طبعته الأولى عام ١٩٠٥ ترحيباً شديداً ، ويلاقي من القراء استجابة عظيمة . ولا يزال الإقبال عليه حتى اليوم ملحوظاً رغم « تَغَرُّب » اليابان ، أو رغم تحولها إلى « الغرب » .

ولعل السبب وراء هذا الإقبال ، أن الكتاب يقدم للغربيين كما يقدم لليابانيين أنفسهم تفسيراً لسيطرة بعض العادات والتقاليد وانتشارها في المجتمع الياباني .

لقد طرحت « **للبوشيدو** » تعريفات مختلفة متعددة . ويبدو أن التعريف الذي شاع واستقر أن **البوشيدو** هو القانون غير المدون الذي كان يحكم حياة نبلاء اليابان ويحدد سلوكهم . بهذا المعنى يكون **البوشيدو** مشابهاً من جهات مختلفة للفروسية الأوروبية .

لقد كان **الساموراي** هم فرسان الإقطاع الياباني ونبلاءه ، هم أتباع الدايميو Daimyo (السيد الإقطاعي) . ومعنى ذلك أن **البوشيدو** كان قانون السلوك الخاص **بالساموراي** ، وهم طبقة المحاربين الأرستقراط ، التي نشأت وتكونت خلال حروب القرن الثاني عشر الميلادي بين أتباع **تايرا** Taira وجماعة **ميناموتو** Minamoto ، وقد وصلت هذه الطبقة ــ طبقة **الساموراي** ــ إلى أقصى مراحل ازدهارها ومجدها في فترة **توكوجاوا** Tokogawa .

إن **الساموراي** هو الذي وضع أساس الفضائل العسكرية والحربية ، ولم يكن مِنْ ثَمَّ يهتم بالألم أو الموت في سبيل إخلاصه لسيده . لقد كان **الساموراي** يتميز عن غيره بحمل سيفين وتقلدهما ، وكان هذان السيفان فيما يقول د . **نيتوبي** هما « روح **الساموراي** » .

إن هذا الكتاب عن **البوشيدو** يشرح اليابان بلغة سهلة بسيطة ، ولكنها لغة مُخْلِصَة جداً ومؤثرة جداً . والمؤلف حريص على بيان أفكاره وتوضيحها للقارىء العربي ، ولذلك كثيراً ما يعطى أمثلة ونماذج موازية من التاريخ والأدب الأوروبي . وأهم من ذلك

كله أن المؤلف يؤمن « بالقانون المدون في القلب » ــ البوشيدو ــ ويعتقد في صحته .

لقد نشر هذا الكتاب في طبعته الأولى عام ١٩٠٥م في مدينة نيويورك بالولايات المتحدة ، وصدر عن دار أبناء ج . ب . بنتام G.P. Puntam's Sons .

* * *

مقدمـة الطبعـة الأولـى

□□ منذ عشر سنوات ، حين كنت ضيفاً لبضعة أيام على رجل القانون البلغاري الشهير ، المرحوم : م . **دى لافيليه** M. de Laveleye ، قادنا الحديث ذات مرة إلى موضوع الدين . وسألني الأستاذ الجليل :

ـــ هل تعني أنك لم تدرس في المدرسة أى شيء له علاقة بالدين ؟

وحين أجبت بالنفي ، صاح الأستاذ مندهشاً ، وأخذ يكرر بصوت لن أنساه أبداً :

ـــ كيف بالله إذن تنشرون الأخلاق والفضائل في مجتمعكم ؟

وصعقني السؤال وأذهلني ، فلم أستطع حينذاك الإجابة عنه ، إن المبادىء والمعايير الأخلاقية التي ثَقِفْتُها في طفولتي لم تكن تُلقَّن لنا في المدارس . ولم أكتشف الا مؤخراً ، وبعد أن بدأت في تحليل العناصر المختلفة التي تكوِّن أفكاري عن الصواب والخطأ ، إن **البوشيدو** هي التي زرعت في كياني هذه التعاليم الأخلاقية .

لقد كانت البداية الأولى لهذا الكتاب الصغير الردَّ على أسئلة زوجتي المُلِحَّة عن الأسباب التي تجعل هذه الفكرة أو تلك سائدة في اليابان . وحين حاولت البحث عن إجابة شافية مقنعة لسؤال الأستاذ **دى لافيليه** ، ولأسئلة زوجتي كذلك ، اكتشفت أن الأفكار والمفاهيم الأخلاقية لليابان المعاصر يمكن أن تظل كتاباً مغلقاً مالم نفهم **البوشيدو** ونفهم النظام الإقطاعي الذي كان في اليابان .

وقد أتاحت لي فرصة تمرغ إجباري ـــ بسبب مرض طويل أَلَمَّ بي ـــ أن أعيد تنظيم وترتيب بعض الأفكار التي تجمعت في ذهني خلال مناقشاتنا المنزلية أنا وزوجتي في شكل هذا الكتاب . وهذه الأفكار تتكون أساساً مما تعلمته ـــ وما تلقنته مباشرة ـــ في طفولتي وصباي الباكر حين كان النظام الإقطاعي هو النظام المسيطر السائد في اليابان .

وإنه لمن الصعب العسير الكتابة عن اليابان باللغة الانجليزية بعد ما كتبه الأستاذ

لافكاد يوهيرن Lefcadio Hearn ، وما كتبته السيدة / **هيو فرازر** Hugh Fraser من جهة ، وما كتبه السير **ارنست ساتو** Ernest Satow والأستاذ **شامبرلن** Chamberlain من جهة أخرى . إن ما يمكن أن يميزني عن هؤلاء السادة الأعلام أنني أكتب عن اليابان ممثلاً دور المتهم الذي يدافع عن نفسه ، أما كتاباتهم فتتمثل فيها روح المدعي العام ووكلاء النيابة . ودائماً ما يدور بخلدي : « لو كان لي مثل قدراتهم اللغوية لاستطعت أن أطرح قضية اليابان بطريقة أكثر بياناً وفصاحة » ، ولكن على من يتحدث بلسان مستعار ، وبلغة غير لغته الأم ، أن يقنع بمجرد القدرة على الإبانة والإفهام .

لقد حاولت فى هذا العرض أن أوضح الأفكار والمفاهيم التي أناقشها بإعطاء أمثلة ونماذج موازية لها من التاريخ والأدب الأوروبي ، إيمانا مني بأن ذلك يساعد على تقريب الموضوع لعقل القارىء الأجنبي .

وإذا كانت بعض تلميحاتي وإشاراتي للموضوعات الدينية ولرجال الدين قد تبدو في نظر البعض إشارات وتلميحات استخفافية ، فلا مجال على الإطلاق للتشكيك في حسن نواياى تجاه المسيحية ذاتها . إن عدم تعاطفي ينصب أساساً على الوسائل الكَنَسِيّة والأشكال التي تتعارض مع تعاليم السيد المسيح ، ولا تنصب على هذه التعاليم ذاتها ، إنني أومن بالدين الذي جاء به السيد المسيح والذي انتقل إلينا في الإنجيل (العهد الجديد) كما أومن أيضاً بالقانون المدون في القلب . وأعتقد فوق ذلك أن لله مع كل شعب وكل أمة « عهداً » يمكن أن أسميه « قديماً » بصرف النظر عن وثنية هذا الشعب أو يهوديته أو مسيحيته . وليس ثمة حاجة للإفاضة في شأن معتقداتي حتى لا أفرضها على القراء .

في ختام هذه المقدمة أود أن أعبر عن امتناني لصديقتي **أنا . س . هارتسهورن** Anna C. Hartsharne لملاحظاتها الكثيرة المفيدة .

المؤلف

مقدمـــة

□ □ بناء على طلب الناشر الذي ترك له د . **نيتوبي** بعض الحرية فيما يتعلق بأمر التقديم ، يسرني أن أساهم ببعض السطور تقديماً لهذه الطبعة الجديدة من كتاب « **بوشيدو** » لقراء اللغة الانجليزية في كل مكان . ولقد عرفت الكاتب معرفة فعلية منذ أكثر من خمسة عشر عاماً ، وإن كنت على صلة بموضوع الكتاب منذ حوالي خمسة وأربعين عاماً .

كان ذلك في فيلادلفيا عام ١٨٦٠م حين رأت عيناي أوَّلَ ياباني ، وحين قابلت أعضاء السفارة من **يدو** Yedo (وكنت قبل ذلك في فيلادلفيا قد رأيت تدشين بارجة الأميرال البحري **بري** Perry ، البارجة سوزكويهانا **Susquehanna** عام ١٨٤٧) .

لقد كنت في دهشة عظيمة من هؤلاء الغرباء الذين كان **البوشيدو** هو قانونهم الحي في الفكر والسلوك . وخلال ثلاث سنوات فيما بعد قضيتها مع مجموعة من الشباب الياباني في كلية روتجرز **Rutgers** في مدينة نيوبرونزويك **New Brunswick** في ولاية نيوجرسي ، مجموعة من الشباب قيل لي إنهم زملاء دراسة ، وجدت أن **البوشيدو** ــ التي كنا نتحدث عنها كثيرا ــ شيئا فاتنا ساحرا . نعم كانت **البوشيدو** كذلك كما تمثلت في حَيَواتِ هؤلاء الشباب الذين كانوا يمثلون في مستقبل اليابان « المحافظين والديبلوماسيين وقواد الجيش ورجال التعليم ورجال الاقتصاد » . لقد تمثلت **البوشيدو** أكثر من ذلك ، وبرزت في ساعات احتضار أكثر من واحد من أولئك اليابانيين « الذين استراحوا الراحة الأبدية » في مدافن **ويلوجروف** Willow Grove . لقد كان عبير هذه الزهرة ــ **البوشيدو** ــ القادمة من اليابان البعيد عبيراً فواحاً . ولن أنسى أبداً ما حييت رد الساموراي المحتضر **كوساكابي** Kusakabe حين دعوناه وهو يحتضر للخلاص بالمسيحية والإيمان بالسيد المسيح ، فرد قائلاً :

ــ حتى لو كنت قادراً على معرفة سيدكم فلن أقدم له ولو آخر ماتبقى من حياتي .

لقد كانت **البوشيدو** حية في كل شيء ، في المسابقات الرياضية على **ضفتي راريتان** Raritan القديم ، وفي النكات المرحة التي كنا نتداولها على مائدة العشاء ، حين نقارن بين الأشياء اليابانية ومثيلتها الأمريكية ، وكذلك في مناقشاتنا حول الفكر والأخلاق . كانت **البوشيدو** حَيَّة في كل ذلك لدرجة أنني أحسست رغبة في تقبل المهمة السرية التبشيرية التي كتب لي عنها ذات مرة صديقي **تشارلز دودلي وارنر** Charles Dudley Warner .

إن معايير اللياقة والأخلاق وقوانينهما قد تختلف في بعض النقاط ، ولكنه اختلاف هامشي في التفاصيل والحدود ، وليس اختلافاً جوهرياً يصل إلى حد التعارض والتضاد . لقد قال شاعرهم منذ ألف سنة تقريباً حين كان يعبر غابة صغيرة ، وتركت الزهور المحملة بالندى على ثوبه المطرز الذي احتك بها بعض قطرات نداها ذي البريق الساحر ، قال : « من أجل عبيرها لن أزيل عن أكمامي نداها » .

وكم كنت سعيداً حقاً لأنني سأخرج من دوامة الحياة هنا وأخاديدها ، تلك الأخاديد التي يقال إنها تختلف عن المقابر فقط من حيث الاتساع . أليس حقيقياً أن الذي لا يعرف في شئون الأخلاق والدين وقواعد السلوك إلا أمراً واحداً ــ أو ثقافة واحدة ــ لا يعرف شيئاً على الإطلاق ؟ وهل يمكن مقارنة الحياة في الثقافة بمجرد العلم بها من الكتب والقراءة فقط ؟!

كم كنت سعيداً حقاً حين دعيت عام ١٨٧٠م إلى اليابان بوصفي رائداً من رواد التعليم ، وذلك لكي أدرب اليابانيين على نظام المدارس الحكومية في أمريكا وروحه وطرائقه . كنت سعيداً لأنني سأترك العاصمة لأرى الإقطاع في صورته النقية الخالصة وهو يحكم ويسيطر في فوكوي Fukui في منطقة ايتشزن Echizen . هناك رأيت **البوشيدو** في تربته الأصلية بعد أن كنت أنظر إليه من قبل ..كشيء غريب طريف . وقد وجدت أن **البوشيدو** هو الذي يشكل سلوك الطبقة الأرستقراطية وعقائدها سواء في المدن المُحَصَّنة أو في الضواحي . كان **البوشيدو** حيًّا هناك بكل تفاصيله : حفلات الشاي Cha-no-yu والانتحار الشعائري Hara-Kira (Jiu-Jitsu) وسجدات الاحترام على الحُصُر والانحناءات في الشوارع ، وقواعد السيف وقواعد الطريق ، والحديث

المُوَشَّي بالأدب والاحترام ، وعبارات التحايا الكثيرة التي لا حصر لها ، ومعايير الفن والسلوك ، إلى جانب البطولة والتضحية في سبيل الزوجة والطفل والخادم . لقد رأيت بعيني كل ما ورثه د . **نيتوبي** ، وكل ما تخلل دمه وكيانه فكتب عنه بكل قوة واقتدار وسعة أفق . لقد انتهى الإقطاع من اليابان ولم يُتَحْ له أن يرى أكبرَّ أنصاره حماساً وأكثر المدافعين عنه قدرة على الإقناع . لقد كان الإقطاع بالنسبة له ـــ د . **نيتوبي** ـــ مجرد نسمة عابرة ، بينما كان بالنسبة لي « نبات النور وزهرته » .

ولأنني عايشت نهاية الإقطاع الذي هو جسد **البوشيدو** ، و**البوشيدو** بمثابة الروح له ، فإنني أشهد على صدق وصْف د . **نيتوبي** ، وعلى دقة تحليله وصدق نتائجه عامة . لقد خطط هذا الكتاب ورسم فيه صورة الإقطاع رسماً دقيقاً أبرز من خلاله الألوان والظلال التي تنعكس في الأدب الياباني بطريقة فذة لافتة منذ أكثر من ألف سنة . لقد نما قانون الفروسية وتطور خلال ألف سنة تقريباً . ومؤلفنا في هذا الكتاب يتابع بصبر وأناة تلك الزهور التي رَصَّعَت الطريق ـــ طريق الفروسية ـــ الذي عبرته ملايين النفوس النبيلة من أبناء جنسه .

لقد عمق التحليل النقدي إحساسي بقيمة **البوشيدو** وفعاليته في الحياة اليابانية . وعلى كل من يريد أن يفهم يابان القرن العشرين أن يعرف شيئاً عن جذورها في تربة الماضي .

إن دارس الفلسفة يجد في الطاقات المتراكمة من عصور سحيقة بعض الأفكار المعاصرة مهما بدت هذه الطاقات القديمة غير واضحة للأجيال الحديثة من اليابانيين أو الأجانب . إن أشعة الماضي السحيق يمكن أن تشرح لنا المرحلة الراهنة التي تُثَبِّت اليابان فيها أقدامها تأثيراً في السلام والحرب . إن كل المعاني الروحية نجدها قوية عميقة في تلك المعاني التي نشأت في أحضان **البوشيدو** . لقد ذابت الكتلة المتبلرة في الفنجان العذب المذاق ، ولكن العبير الطازج مازال قوياً فواحاً . لقد خضعت **البوشيدو** باختصار للقانون الأسمى الذي بدأه وأعلنه « واحد » احتفى به مؤيده وحياه نصيره واعترف به سيداً له ؟ « إن حبة القمح حين تعيش تظل حبة واحدة ، ولكنها بالموت تُحيي كثيراً من الحَبَّات » .

هل استطاع د . **نيتوبي** أن يحول **البوشيدو** إلى أفكار ومفاهيم ؟ والأهم من ذلك

أن نتساءل : كيف استطاع أن يحقق ذلك ؟ إنه يسمي نفسه « متهماً » . في كل المعتقدات والفرق والأنظمة ، يتغير المعتنقون ، وتختلف النماذج والأمثلة ، ولكن الأفكار تنمو وتتطور . إن القانون الذي يحدد ذلك هو قانون التراكم التدريجي والتوازن البطيء . **والبوشيدو** لم تصل أبداً إلى غاية نهائية ، لقد عاشت فترة طويلة جداً ، ثم ماتت أخيراً وهي في عنف قوتها وعظمتها . إن الصدام بين الإقطاع في اليابان وبين حركة العالم — المتمثلة في التأثيرات السريعة والأحداث المتتالية التي حدثت بعد **بري وهاريس** Perry and Harris لم يجد **البوشيدو** جثة محنطة هامدة ، بل وجدها روحاً حيَّة . إن ما واجهته حركة العالم الخارجي في الحقيقة فكان الروح الإنسانية الدفاقة ، وحينذاك انتقلت البركة من الأسمى إلى الأدنى . ودون أن تفقد اليابان أفضل ما في تاريخها وما في حضارتها ، بدأت — متابعة في ذلك نبلاءها الأسلاف — بالتكيف مع العالم الخارجي ، ثم بعد ذلك تبنت أفضل الأشياء التي قدمها العالم لها . لذلك صارت مهمتها عظيمة في حماية آسيا وحماية الجنس كله ، وقد تقبلت اليابان تلك المهمة عن طيب خاطر « وبرحابة لا مثيل لها » . وليست اليوم حدائقنا ومنازلنا وفنوننا فقط هي المليئة بالصور والزهور والتحف اليابانية الرقيقة المعمرة أو الموقوتة ، بل أهدى إلينا اليابانيون إلى جانب ذلك كثيراً من الأشياء التي أثرت في ثقافتنا المادية وفي شئون الصحة العامة ، وفي دروس الحرب والسلام .

ولم يكن د . **نيتوبي** في هذا الكتاب مجرد متهم يدافع عن نفسه ، بل كان نبياً وصاحب بيت ، حكيماً ، غنياً ، في معرفته بالماضي والحاضر ، لذلك كان قادراً على تعليمنا . وليس ثمة في اليابان من استطاع مثله أن يُقْرِنَ الفكرة بالعمل في تصوره **للبوشيدو** . لقد وحَّد بينهما في تناغم وتوازن ، في حياته وكده ، وفي عمله وعرقه ، وفي نتاج يديه ونتاج قلمه ، في حرث التربة وفي تثقيف النفس والروح . إن د . **نيتوبي** الذي أضاء لنا ماضي اليابان الكبير هو الصانع الحقيقي لليابان الحديث . كان في فرموزا هو الصلة الجديدة للامبراطورية اليابانية ، وكان في كيوتو الدارس ورجل العمل ، وكان في مسقط رأسه جامعاً بين أحدث العلوم وبين أقدم الأعمال وأكثرها كداً ومشقة .

إن هذا الكتاب الصغير عن **البوشيدو** لهو أكثر من رسالة هامة للشعوب الأنجلو

ساكسونية ، إنه إسهام عظيم وهام في حل أهم معضلات هذا القرن العشرين ، معضلة وحدة الشرق والغرب وتعاونهما . في العصور القديمة كانت هناك حضارات عديدة ، وفي المستقبل الأفضل لن يكون ثمة سوى حضارة واحدة . إن مصطلحي « الشرق » و « الغرب » بكل ما يحملانه من معاني العزلة والجهل المتبادل قد أوشكا أن يختفيا . وتبذل اليابان الآن قصارى جهدها لتقوم بدور الوسيط الكفء والهام بين حكمة آسيا وشموليتها وشيوعيتها من جهة وبين فردانية أوروبا وأمريكا وطاقاتهما من جهة أخرى .

و د . **نيتوبي** يثبت في هذا الكتاب بما لا يدع مجالاً للشك أهليته تماماً لمهمة تتلاءم مع طبيعته وذلك بحكم ثقافته في آداب العالم ، وبحكم معرفته بالقديم والحديث في تاريخ اليابان وثقافته . إنه في الحقيقة محلل جيد ، وموفق عظيم بين حضارة الغرب وحضارة الشرق .

وهو ليس بحاجة للاعتذار عن أفكاره عن السيد المسيح الذي آمن به واتبع دينه منذ فترة طويلة ، فإن الدارس الخبير بطرائق الروح والمتمرس بتاريخ الجنس البشري كما يحركه الراعي الأبدي للبشر (السيد المسيح) يتحتم عليه أن يضع خطاً فاصلاً بين تعاليم مؤسس الدين والوثائق الأصلية من جهة وبين الإضافات والتعديلات العقلية والعُرْفِّية والكَنَسية من جهة أخرى .

إن عقيدة الكتاب المقدس التي أشار إليها المؤلف في مقدمته هي تعاليم السيد المسيح الذي جاء بها لا لِيَهدِمِ ، بل لَيبنْي . وفي اليابان حين تخلع المسيحية عنها أرديتها ومسوحها الأجنبية ، حينذاك فقط ستنتهي « غربتها » ، وستمتد جذورها عميقة في التربة التي نما فيها **البوشيدو** . وحين تتخلى الكنيسة كذلك عن قيودها الشديدة وأقمطتها التي تعوق حركتها ، وحين تخلع عنها أزياءها الأجنبية ، حينذاك أيضاً .. تصبح كنيسة المسيح في أرض اليابان كنيسة محلية أليفة كالهواء .

ويليام اليوت جريفيس

ايتاكا مايو ١٩٠٥م

« ذلك الطريق
فوق الجبل ، من يقف عليه
يميل إلى الشك في حقيقة كونه طريقاً
ولكنه إن نظر اليه من الصحراء القفر ذاتها
وجده يمتد خطاً صاعدا هنالك واضحاً من القاعدة إلى القمة
لا تخطئه العين . وما قيمة شرخ أو اثنين
يبدوان من الصحراء القفر على جانبيه
وإذن (فلنقل بلغة فلسفية حية)
ماذا لو أن هذه الشروخ ذاتها كان عليها في النهاية أن تبرهن
أنها أكمل الوسائل
لتدريب عين الإنسان ، وتعليمه حقيقة الإيمان » .

روبرت براوننج Robert Browning
Bishop Blovgram's Apology

« ثمة أرواح قوية ثلاثة ـ لو كان لي أن أقول ذلك ـ تتحرك على سطح المياه من وقت لآخر ، وتعطى دفعات قوية مؤثرة للعواطف الأخلاقية للنوع البشري .

هذه الأرواح الثلاثة هي : الحرية والدين والشرف .

هلام Hallam
أوروبا في العصور الوسطى

«الفروسية نفسها هي شعر الحياة »

شليجل
فلسفة التاريخ

الفصل الأول
(البوشيدو ونظام أخلاقي)

الفصـل الأول
البوشيـدو نظام أخلاقي

☐ ☐ الفروسية زهرة ليست أقل من شعارها الرمزي ــ زهرة الكرز ــ أصالة في التربة اليابانية . وليست الفروسية في اليابان بقايا وعينات مُحَنَّطة من فصيلة قديمة نحتفظ بها في سجلات تاريخنا ووثائقه ، إنها لا تزال بيننا شيئاً حيًّا يحرك فينا مشاعر القوة والجمال . وإذا كنا اليوم لا نجد للفروسية شكلاً مادياًملموساً ، فإنها ــ على الأقل ــ لا تزال تعطر جونا الأخلاقي ، وتجعلنا من ثم على وعي بأننا لا نزال نحيا تحت تأثيرها الخفي . لقد انتهت الشروط الاجتماعية التي أنتجت الفروسية وجعلتها تزدهر ، ولكنها مثل تلك النجوم البعيدة التي كانت في مكانها هذا الذي نراها فيه منذ زمان بعيد ، ولكنها لا تزال تلقى إلينا بأشعتها ، كذلك **البوشيدو** مازالت تضيء طريقنا الأخلاقي مخلدة ذكرى النظام الإقطاعي الذي أنتجها . إنه لشرف لي أن أكتب عن هذا الموضوع بنفس لغة **بورك** Burke الذي بكى في مرثيته المؤثرة الشهيرة على النعش المهمل والتابوت المنسي للمثيلة الأوروبية **للبوشيدو** (الفروسية) .

إن ما قاله عالم شهير واسع الاطلاع مثل الدكتور **جورج ميللر** إنما يعكس نقصاً محزناً في المعلومات الخاصة بالشرق الأقصى ، وذلك أنه لم يتردد في تأكيد أن الفروسية ــ أو أى نظام مماثل ــ لا وجود لها عند الشعوب القديمة أو عند الشرقيين المعاصرين[1] . ولكن مثل هذا الجهل يمكن أن يُغتفر ، خاصة وقد ظهرت الطبعة الثالثة من كتاب الدكتور في نفس السنة التي طرق فيها القائد البحري **بري** Perry مداخل بلادنا المغلقة تماماً . وبعد أكثر من عقد من الزمان ، في الوقت الذي كان فيه نظامنا الإقطاعي في رَمقِه الأخير كتب **كارل ماركس** كتابه « رأس المال » ولفت فيه الانتباه إلى الأهمية الخاصة لدراسة المؤسسات السياسية والاجتماعية الخاصة بالإقطاع ، كما كانت

---

(1) History Philoso Phically Illstrated (3^{ed} ed., 1853), vol. ii., p. 2.

تتجلى آنذاك في شكل حي في اليابان وحدها . ويهمني هنا أن أنبه دارسي التاريخ والأخلاق الغربيين إلى أهمية دراسة الفروسية في اليابان المعاصر .

وليست غاية هذا الكتاب الاهتمام بتفاصيل الدراسة التاريخية المقارنة للإقطاع والفروسية بين اليابان والغرب ، ولكن غايتي هي : أولاً : الكشف عن أصول الفروسية في اليابان ومصادرها . ثانياً : الكشف عن تعاليمها وخصائصها . ثالثاً : الكشف عن تأثيرها على الناس . رابعاً : الكشف عن مدى استمرارية هذا التأثير ومقدار سيادته في الحياة اليومية .

من هذه النقاط الأربع ، ستكون النقطة الأولى سريعة ومختصرة ، والا كان عليَّ أن أصطحب القارىء في رحلة شاقة ومرهقة عبر طرق نائية وملتوية ، متشابكة ومعقدة ، في تاريخنا القومي . وسنعرض هنا للنقطة الثانية ببعض التفصيل نظراً لأهميتها بالنسبة لدارسي الأخلاق وعلماء الأثنولوجيا (علم الأجناس) المقارنة ، ذلك لأنها تكشف لهؤلاء الدارسين والعلماء عن طرائق تفكيرنا وعن سلوكنا . أما النقطتان الثالثة والرابعة فسنكتفي برصدهما بوصفهما نتائج طبيعية للنقطتين الأولى والثانية .

إن الكلمة اليابانية Bushido والتي ترجمتها ترجمة سريعة إلى « الفروسية » تعبر في أصلها الياباني عن شيء أكثر من مجرد الفروسية ، أو القدرة على سياسة الفرس . **البوشيدو** تعني حرفياً : « طرائق الفارس المحارب » ، الطرائق التي كان على النبلاء المحاربين أن يتبعوها ويخضعوا لها في سلوكهم اليومي كما يخضعون لها في بواطنهم وضمائرهم وفي سلوكهم العسكري . إنها باختصار « مبادىء الفروسية ومفاهيمها » أو واجبات نبلاء طبقة المحاربين . ولعلني الآن بعد أن كشفت عن المعنى الحرفي للكلمة أستطيع أن أستخدمها دون حاجة لترجمتها . وثمة سبب آخر لتفضيلي استخدام الكلمة اليابانية هو أن مثل هذه التعاليم والمفاهيم الشاملة المتميزة والتي أنتجت لنا هذا المستوى من الفكر والشخصية ، مثل هذه التعاليم والمفاهيم المحلية يجب أن تظل محتفظة على جبهتها بعلامة تفردها (الذي هو اسمها الخاص) . وثمة سبب ثالث لتفضيلي استعمال الكلمة الأصلية هو أن بعض الكلمات تحمل طابعاً قومياً معبراً عن خصائص الجنس ، طابعاً يعجز أفضل المترجمين عن إيجاد مقابله المعقول في اللغة التي يترجم إليها ، هذا إن لم

يرتكب في ترجمته كثيراً من العسف والجور . من يستطيع مثلاً أن يكشف بالترجمة ما تدل عليه الكلمة الألمانية Gemuth ؟ ومن الذي لا يحس فارق المعني بين كلمتين متشابهتين تماماً كالكلمة الانجليزية Gentleman ومقابلتها الفرنسية Gentilhomme ؟

البوشيدو إذن هو قانون المعايير والمبادىء الأخلاقية التي كان على الفرسان أن يخضعوا لها . إنه ليس قانوناً مدوناً مكتوباً ، ولكنه يتكون على الأكثر من بعض المبادىء التي انتقلت مشافهة ، أو التي دونتها أقلام بعض المحاربين أو العلماء المشاهير . والأهم من ذلك أن هذا القانون غير الملفوظ أو المدون كانت له السلطة العليا في تقييم كل الأفعال ، كما كان له كل قوة القانون المدون في ألواح القلب الإنساني ، لم يؤسس هذا القانون عقل إنسان واحد مهما كانت قدراته ، ولم يتكون عبر عمر إنسان واحد مهما كان طوله . لقد كان هذا القانون تطوراً عضوياً لقرون وعقود من العمل العسكري . إنه يحتل في تاريخنا الأخلاقي نفس المكانة التي يحتلها الدستور الانجليزي في التاريخ السياسي . ولا مجال للمقارنة — رغم ذلك — بين **البوشيدو** و**الماجنا كارتا** الفرنسية أو بينها وبين قانون الاستدعاء القضائي[1] Habeas Carpus Act. صحيح أنه في القرن السابع عشر تم إعلان القانون العسكري الياباني (Buke Hatto) ، ولكن مواده الثلاث عشرة القصيرة انصبت أساسا على الزواج وشئون القلاع والجماعات المختلفة .. إلخ ولم تمس إلا مساً هامشياً رقيقاً القواعد المنظمة لعملية التعليم والتلقين . لذلك لا يمكننا تحديد مكان معين أو وقت محدد قائلين « هاهنا بدأ **البوشيدو** » . ولكن لأنه حقق درجة من الوعي به في عصر الإقطاع فإننا يمكن أن نحدد أصوله الزمانية فى عصر الإقطاع . ولا يجب أن ننسى أن الإقطاع نفسه نسيج معقد من الخيوط ، وأن **البوشيدو** يشاركه هذه الطبيعة المعقدة المركبة . وإذا كنا في حالة انجلترا مثلاً نستطيع إن نقول أن المؤسسات السياسية للإقطاع ترتد في أصولها الزمانية إلى غزو النورمان لانجلترا ، فكذلك نستطيع أن نقول إن ظهور الإقطاع في اليابان كان موازياً ومعاصراً لظهور **يوريتومو Yoritomo**

---

(١) قانون صدر في انجلترا عام ١٦٧٩م يجعل من حق « المتهم » أو « المقبوض عليه » المثول أمام القاضي للتحقيق في شأن احتجازه ، ومدى قانونيته ، وهو يعد أحد الحقوق المدنية الهامة في القانون العام . وقد كان هذا الإجراء معروفاً في انجلترا في العصور الوسطى قبل أن يصدر في شكل قانون . والعبارة Habeas Corpus لاتينية معناها « لك البدن » . (المترجم)

وصعوده في أواخر القرن الثاني عشر . ورغم ذلك فكما كانت العناصر الاجتماعية للإقطاع موجودة في انجلترا قبل **وليم الفاتح** ، كذلك نجد أن بدايات الإقطاع وأسبابه كانت موجودة في اليابان قبل القرن الثاني عشر .

ومرة أخرى حدث في اليابان ما حدث في أوروبا إذ ظهرت طبقة المحاربين وسيطرت بشكل طبيعي مع بداية العصر الرسمي للإقطاع . هؤلاء المحاربون في اليابان هم الساموراي . والمعني الحرفي للكلمة مثل معنى الكلمة الانجليزية القديمة (Knecht, Knight) Cniht هو الحراس أو المرافقون . وهم يشبهون في خصائصهم الـ Soldüru الذين ذكر قيصر أنهم موجودون في أقطانيا ، أو يشبهون Comitati الذين كان يرافقون رؤساء القبائل الجرمان ويتبعونهم في عصر **تاكيتوس** Tacitus كما يشهد هو نفسه . وهم أيضاً — الساموراي — يشبهون Milites media الذين يقرأ عنهم الإنسان في تاريخ أوروبا الوسطى ، هذا إذا صحت لنا مثل هذه المقارنة وجازت . وقد استعيرت كلمة صينية يابانية هي buke, Bushido للإشارة إلى هؤلاء المحاربين في الاستعمال اليومي العادي . كانت هذه الطبقة طبقة متميزة لها امتيازات خاصة ، ولابد أنهم من نسل أسلاف غلاظ شداد جعلوا من القتال والحرب مهنة لهم . ومن خلال الحروب الطويلة المتصلة كان أكثر الأفراد رجولة وقدرة على المغامرة يُكَوِّنُون تدريجياً جسم هذه الطبقة ، حيث تم عن طريق الانتخاب الطبيعي إقصاء الضعفاء والجبناء ، ولم يبق في النهاية — اذا جاز لنا استعارة عبارة **امرسون** — « إلا الغلاظ الأشداء بقوتهم الوحشية » فَكَوَّنوا عائلات ، تكونت منها طبقة الساموراي . ومع إقرار ما تتمتع به هذه الطبقة من شرف عظيم وامتيازات ضخمة ، وما تتحمله مِن ثَمَّ من مسئوليات جسام ، أحس أفرادها بالحاجة إلى وضع معايير عامة للسلوك ، خصوصاً ، وقد كان أعضاء هذه الطبقة في علاقات متشابكة وينتمون إلى جماعات مختلفة . وكما يخفف الأطباء من حدة المنافسة بينهم بالمجاملات المهنية ، وكما يلجأ المحامون إلى دوائر فض المنازعات الخاصة حين تنتهك آداب مهنتهم ، كذلك يتعين على المحاربين أن يكون لهم مَفْزَعٌ يلجأون إليه ويُحَكِّمونَه إذا نشب بينهم خلاف

إن للعدالة في القتال دوراً . أي بذور خصبة للأخلاق تكمن في هذا الإحساس

البدائي بالتوحش والطفولة . أليس هذا جذر كل الفضائل العسكرية والمدنية وأصلها . إننا نضحك — كما لو كنا قد تجاوزنا هذه المرحلة وتخطيناها — ونحن نرى الرغبة الصبيانية للبيتوني الصغير **توم براون** في أن يسجل من بعده اسم زميل لم يَعْتدِ على من هو أصغر منه أبداً ، ولم يولّ ظهره أبدا لمن هو أكبر منه . ورغم ذلك فَمَنْ فينا لا يعرف أن هذه الرغبة هي حجر الأساس لأبنية أخلاقية قوية الأبعاد . ولعلى لا أبالغ حين أقول إن أكثر الأديان رقة ودعوة للسلام تتمسك بمثل هذا المطمح وتحض عليه . إن رغبة **توم** تلك كانت هي الأساس الذي قامت عليه عظمة بريطانيا . ولسنا في حاجة إلى طول عناء لنكتشف أن **البوشيدو** لا تقل أهمية عن ذلك بالنسبة لليابان . لو كان القتال في ذاته — هجوماً كان أم دفاعاً — شراً ووحشية كما يقول **كوكرز Quakers** بحق ، فإننا يمكن أن نقول مع **لسنج** « إن فضائلنا تنبع من حيث نعلم رذائلنا »[1] . إن « الرياء » و« الجبن » نعوت وألقاب لأسوأ أنواع الخزى والعار عند الطبائع البسيطة الصحيحة غير السقيمة . بهذه الأفكار والمفاهيم تبدأ الطفولة رحلتها مع الحياة ، وكذلك تبدأ الفروسية . ومع نمو الحياة واتساعها وتعدد علاقاتها تبحث هذه الأفكار الأولية لنفسها عن قانون تسند إليه ويعززها ، قانون من سلطة أعلى يستند إلى مصادر أكثر عقلانية تبرر وجوده وتحققه وتطوره . ولو أتيح للأنظمة العسكرية أن تقوم بدورها دون هذا السند الأخلاقي الأسمى لكانت هذه الأنظمة أبعد ما تكون عن الفروسية . لقد تم استيعاب الفروسية في أوروبا داخل نطاق المبادىء الروحية للمسيحية عن طريق تفسير المسيحية ذاتها تفسيراً يتفق مع مبادىء الفروسية « وصار الدين والمجد والقتال هي الأقانيم الثلاثة للفارس المسيحي الكامل » فيما يقول **لامرتين** . وفي اليابان كان ثمة مصادر عديدة **للبوشيدو** .

---

(١) كان رسكن **Ruskin** من أكثر البشر على وجه الأرض رقة قلباً وحباً للسلام ، ولكنه آمن بالحرب بكل حماس عاشق للحياة النشطة . يقول في « تاج الزيتون البري » **Crown of Wild Olive** حين أقول إن الحرب هي أساس كل الفنون ، فإنني أقصد أنها أيضاً أساس كل فضائل الإنسان وملكاته السامية . ومن الغريب جداً ، ومن المخيف كذلك ، أن يكتشف الإنسان ذلك ، ولكنها حقيقة لا يمكن إنكارها ... لقد وجدت باختصار أن كل الأمم العظيمة قد تعلمت في الحروب قوة الفكر وصدق الكلمة . إن الأمم العظيمة تزدهر في الحرب وتقوى ، وتذوى في السلام وتضعف ، تتعلم في الحرب ويسهل خداعها في السلام ، تتمرس في الحرب ويخونها أبناؤها في السلام ... وباختصار تولد الشعوب العظيمة من الحروب وتموت وتفنى في السلام .

الفصل الثانى
(مصادر البوشيدو)

الفصـل الثانـي
مصـادر البوشيـدو

□□ ولنبدأ هنا بالبوذية لأنها خلقت عند اليابانيين احساساً وديعاً بالثقة في القدر والاستسلام الكامل للأمر الواقع ، والهدوء الرواقي إزاء المصائب والأخطار ، وهي أيضاً التي خلقت في النفوس ذلك الازدراء للحياة والاستهانة بالموت . إن أحد كبار معلمي الفروسية قال لتلميذ له بعد أن انتهى من تدريبه على كل أدوات هذا الفن ووسائله : « لم يعد لدى ما أعلمك إياه ، عليك الآن أن تتعلم طريقة « زن » Zen و « زن » هي المقابل الياباني لـ « ديانا » Dhyana « وهي تعني محاولة الإنسان الوصول إلى مناطق من الفكر لا يسعها التعبير اللغوي ، وذلك بالتأمل والزهد والخلوة »[1] إن التأمل والخلوة والزهد هي وسائل Zen ومنهجها وطريقتها ، أما مضمونها ــ كما أفهمه ــ فهو الإيمان بمبدأ واحد تخضع له كل الظواهر ، لعمل هذا المبدأ هو المطلق ذاته ، ولذلك على الإنسان أن يسعى للتوازن مع هذا المبدأ المطلق والاتحاد به . من هذا المنطلق تتجاوز هذه الأفكار مجرد كونها عقيدة لإحدى فرق البوذية ، فكل من يصل إلى إدراك المطلق يرتفع فوق مستوى الأشياء الدنيوية الطارئة ، ويصل الوعي إلى « أرض جديدة وسماء جديدة » .

ولقد قدمت الشنتوية للبوشيدو ما لم تقدمه البوذية ، وكانت وافرة العطاء ، فهذا الإخلاص « للسلطة » والاحترام العميق لذكرى الأسلاف ، وتلك الطاعة الأسرية التي لا نجدها في أية عقيدة أخرى ــ كل ذلك قدمته تعاليم الشنتو ، وبذلك خففت إلى حد كبير من خشونة الساموراي ورعونته . في عقائد الشنتو لا مكان لفكرة « الخطيئة الأولى » ، وهي على العكس من ذلك تؤمن بفطرية الخير في الإنسان وأصالته في الروح الإنسانية . إن الروح الإنسانية تقترب في طهارتها من أرواح الآلهة . هكذا تنظر الشنتوية

(١) La Facdio Hearn, Exotics and Restros Pectives, p. 84.

بإكبار وإجلال لروح الإنسان ، وتعتبرها قدس الأقداس الذي تنبع منه كل الفضائل . ومن السهل جداً على أي إنسان أن يلاحظ خلو معابد الشنتو خلوّاً تاماً من أي زخارف أو تماثيل للعبادة . ليس ثمة سوى مرآة صافية معلّقة على حائط الهيكل ، وهي الجزء الرئيسي الهام في أثاث المعبد . إن وجود هذه المرآة يمكن شرحه وفهمه على أساس أنها تصور القلب الإنساني وتمثّله . وذلك القلب الذي يمكن أن تنعكس على صفحته صورة الآلهة إذا تطهر من الدنس وصار شفافاً . لذلك حين يقف الإنسان أمام الهيكل متعبداً يرى صورته منعكسة على هذا الوجه الصقيل ، ويكون فعل العبادة هنا موازياً للعبارة المسجلة على واجهة معبد « دلفي » « اعرف نفسك » . ومعرفة النفس هنا لاتقتصر — سواء عند اليونان أو عند اليابانيين — على معرفة الجانب الفيزيقي المادي في الإنسان أو معرفة تشريح جسده أو معرفة جانبه السيكوفيزيقي ، ولكن المعرفة المطلوبة هنا معناها المعرفة الأخلاقية ، تلك المعرفة التي تتحقق باستبطان طبيعتنا الأخلاقية . يقول **مومسن** Mommsen مقارناً بين اليونان والرومان : إن اليونان في صلاتهم يرفعون عيونهم إلى السماء لأن صلاتهم تأمل ، أما الرومان فيخفون وجوههم أثناء الصلاة لأن عبادتهم تفكير . ولقد أدَّت عبادتنا التي تعتمد على التفكير مثل عبادة الرومان إلى نمو الوعي القومي للفرد ، ولكنها لم تؤد إلى نمو وعيه الأخلاقي . إن عبادة الطبيعة في الشنتو قد زرع في أعماق نفوسنا حب الوطن ، في حين أدت عبادة الأسلاف — التي توارثها اليابانيون جيلاً بعد جيل — إلى أن تكون الأسرة الأمبراطورية أساس قوميتنا ومحور أمتنا . إن الوطن بالنسبة لنا ليس مجرد الأرض التي نزرع فيها الحبوب أو التراب الذي نستخرج منه الذهب ، إنه أكبر من ذلك بكثير ، إنه موطن الآلهة ومرقد أسلافنا العظام ، والامبراطورية أيضاً ليس مجرد حاكم أو راع أو حتى حام ، ولكنه أكبر من ذلك — إنه الرمز الذي تتجسد من خلاله كل من الأرض والسماء ، وتمتزج في شخصيته صفات الرحمة والجبروت . وإذا كان ما قاله م . **بوتمي** M. Boutmy صحيحاً[1] ، وأنا أظن أنه صحيح ، فيما يتصل بالولاء الإنجليزي ، وأنه « لا يقتصر

(1) The English People, p. 188.

على السلطة فقط ، بل يمتد للسلطة بوصفها رمزاً للوحدة القومية وتجسيداً لها » ، فإن ما قاله ينطبق بلا شك وبشكل أعمق على الولاء في اليابان . إن عقائد الشنتو تغطي أهم مجالين من مجالات حياتنا الشعورية وهما : الوطنية والإخلاص أو الولاء . ولقد أصاب آرثر ماي ناب Atchar May Knaap في قوله . « من الصعب أن نتبين في الأدب العبري ما إذا كان الكاتب يتحدث عن « الله » أو عن « المصالح المشتركة » ، عن السماء والجنة أو عن القُدْس ، عن المهدي المنتظر أو عن الأمة اليهودية نفسها[1] وبالمثل يمكن عندنا أن نلاحظ « غموضاً » وتشابهاً في الألفاظ التي تطلق للتعبير عن الولاء القومي . لقد استخدمت عامداً كلمة « غموض » لأنه من السهل جداً رفض عقائد الشنتو بسبب الاشتباه اللغوي فيها وذلك اعتماداً على العقل والمنطق . وعلينا أن نلاحظ أن الشنتو لم تَدَّعِ أبداً أنها فلسفة متكاملة ، ولم تتظاهر إطلاقا بأنها عقيدة عقلانية . ولكنها بالرغم من ذلك تمثل إطار مشاعرنا الوطنية وأحاسيسنا القومية . هذا الدين ، أو على الأصح تلك المشاعر القومية التي تعبر عنها هذه العقيدة ، زرعت في نفس « البوشيدو » حب الوطن والإخلاص للحاكم . وهاتان العاطفتان حركتا نفس البوشيدو لا بوصفهما عقائد بل بوصفهما تياراً دافقاً من المشاعر والعواطف ، وذلك لأن الشنتو ــ على عكس المسيحية ــ لم تفرض على معتنقيها عقيدة خاصة ، بل زودتهم ببرنامج للحياة يعتمد على البساطة والاستقامة .

وفيما يتصل بالعقائد الأخلاقية خاصة فقد كانت تعاليم **كونفوشيوس** هي المصدر الخصب **للبوشيدو** . إن إقرار **كونفوشيوس** للعلاقات الأخلاقية الخمس ــ بين الحاكم والمحكوم والأب والإبن والزوج والزوجة وبين الأخ الأكبر وأخيه الأصغر ، وبين الصديق وصديقه ــ لم يكن إلا تأكيداً لما أدركه الشعور القومي الياباني قبل أن تأتي إليه من الصين كتابات **كونفوشيوس** .

إن وداعة هذه التعاليم ولُطْفَها ورقتها ، بالإضافة إلى سمات الحِكْمة الدنيوية في أفكارها الأخلاقية السياسية ، كانت مناسبة تماماً للساموراي الذين كوّنوا الطبقة

---

(1) Feudal and Modern Japan, vol. 1, p. 183.

الحاكمة . لقد كانت النغمة الأرستقراطية المحافظة تتلاءم تماماً مع متطلبات رجال الدولة المحاربين أولئك . وبعد **كونفوشيوس** أثر منشيس Mencius في **البوشيدو** وتأثيراً عميقاً ، حيث أخذت نظرياته الديمقراطية القوية بألباب الناس ومشاعرهم بطريقة لم يسبق لها مثيل لدرجة أن الحكام منعوا كتاباته لفترة طويلة لأنها تمثل خطراً في رأيهم قد يؤدي إلى تدمير النظام الاجتماعي القائم . ورغم ذلك فقد احتلت كلمات هذا العقل الكبير من عقل **الساموراي** مكاناً لا تبارحه أبداً .

لقد كانت كتابات كل من **كونفوشيوس ومنشيس** بمثابة المصادر الوحيدة للشاب ، بينما كانت تمثل في مناقشات الشيوخ أصدق المصادر وأوثقها . ومع ذلك فلم يكن العلم التام الكامل بأقوال هذين الشيخين أمراً ذا قيمة كبيرة . وتسخر الأمثال الشعبية من هؤلاء الذين يقتصرون في فهم **كونفوشيوس** وفهم أقواله على مجرد الفهم العقلي على اعتبار أن هؤلاء مجرد ببغاوات لا يجيدون سوى الحفظ والتكرار ، وأنهم يجهلون المعنى الحقيقي لأقوال هذين الشيخين . ويطلق **الساموراي** الحقيقي على الشخص المتعلم اسم « فأر الكتب » ويقارن أحد **الساموراي** بين التعلّم (عن طريق الحفظ والاستظهار من الكتب) وبين الخضروات التي أوشكت على الفساد ، ومن ثم تحتاج قبل أن تؤكل إلى أن تطهى جيداً في الماء المغلي ، إن كثير القراءة يتميز يالتقعر الواضح البين ، أما قليل القراءة فيكون تقعره غير واضح ، وكلاهما شخص غير مرغوب فيه . إن ما يعنيه **الساموراي** الذي كتب هذه الأقوال أن المعرفة والعلم لا تؤتي ثمارها إلا إذا مزجت عقل المتعلم وظهرت في شخصيته وسلوكه . إن العالم المتخصص كان يُعْتَبر بمثابة الآلة ، وكان العقل نفسه يعد ثانوياً بالنسبة للمشاعر الأخلاقية وتابعاً لها . لقد فهم **البوشيدو** كلاً من الإنسان والعالم على أساس أن كلا منهما يتكون من روح وأخلاق ، ولا يمكن **للبوشيدو** من ثم أن يتفق مع **هكسلي** في حكمه على العمليات الكونية بأنها عمليات لا أخلاقية ، أو لا علاقة لها بالأخلاق . إن **البوشيدو** يحول المعرفة والعلم إلى نور ، فليس العلم مطلوباً لذاته ، بل هو مطلوب بوصفه وسيلة للوصول إلى الحكمة . ولذلك يعد آلة كل من لم يحقق هذه الغاية ، آلة يمكنها أن تلفق الأقوال أو أن تنظم الشعر . إن المعرفة في هذا الفهم ليست الا تطبيقها العملي في الحياة ، ولذلك يمكن القول بأن أفكار **سقراط** وجدت في الفيلسوف الصيني **وان يانج منج** Wan Yang Ming أكبر نصير لها ، فهو لا يمل من

تكرار « أن تعرف ليس إلا أن تفعل ، إنهما شيء واحد » .

وليسمح لي القارىء هنا مادمت بصدد هذا الموضوع ببعض الاستطراد ، ذلك أن بعض تعاليم **البوشيدو** النبيلة قد تأثرت تأثراً عميقاً بتعاليم ذلك الفيلسوف الصيني . وسيلاحظ القارىء الغربي بسهولة تشابهاً بين كتابة هذا الفيلسوف وبين بعض ما ورد في العهد الجديد ، مع التسليم بطبيعة الاصطلاحات الخاصة بالفيلسوف الصيني والفرق بينها وبين اصطلاحات العهد الجديد . إن الفقرة التي تقول : « عليك أولاً أن تجد مملكة الرب وأن تعرف صفات خيره وعدله فتجد أن كل ذلك سيكون لك » تقترب إلى حد كبير من فكرة نجدها مبثوثة في كل كتابات **وان يانج منج** . يقول أحد تلامذته اليابانيين وهو **ميوا شيساي** Miwa Shissai « إن رب السموات والأرض ورب كل الموجودات الموجود في قلب الإنسان يصبح عقله Kokoro ، لذلك فالعقل كائن حي ونور أزلي لا يخمد » ، ويقول أيضاً : « إن النور الروحي الذي نعتمد في وجودنا الأصلي عليه نور نقي طاهر ولا يتأثر بإرادة الإنسان أو يخضع لها . وحين يسري هذا النور فجأة في عقولنا ، فإنه يكشف لنا عن الصواب والخطأ ، وحينذاك نسميه الضمير ، ولكنه في الحقيقة ليس إلا النور الذي يأتي إلينا من رب السموات » . أليست هذه الأقوال مشابهة إلى حد كبير لأقوال **اسحاق بننجتون** Isaac Pennington أو لأقوال فلاسفة متصوفة آخرين . وأعتقد أن يتحتم على أن أقول إن العقل الياباني ــ كما عبرت عنه معتقدات الشنتو البسيطة ــ كان على استعداد لتلقي أفكار **وان يانج منج** . لقد طوَّر العقل الياباني فكرة **يانج** عن عظمة الضمير وبلغ بها آفاقاً عالية جداً ، حيث أسند له القدرة على إدراك الظواهر والحقائق المادية ، ولم يكتف بقدرته على التمييز بين الصواب والخطأ . لقد ذهب العقل الياباني ربما إلى أبعد مما ذهب إليه كل من **بركلي ونيتشه** في مثاليتهما من إنكار لوجود الأشياء في ذاتها خارج إطار العقل ، أو خارج إطار مُدْرِك إنساني يمنحها هذا الوجود . ولا شك أن هذا النظام الفكري والعقائدي ملىء بكل الأخطاء التي تُتَّهم بها « الذاتية » Solipsism[1] ولكنه رغم ذلك نظام له كله كفاءة

---

(١) Solipsism مذهب فلسفي يرى أن الإنسان معيار الحكم ، ومفهوم الإنسان في هذا المذهب هو « الأنا » بالمعنى السيكولوجي ، لذلك ترجمناها « الذاتية » .

الإيمان العميق ، ولا يمكن بالتالي إنكار دوره الأخلاقي في تطوير شخصية الفرد ، وفي تحقيق التوازن بين دوافعه .

وأياً كان المصدر أو المصادر التي استقت منها **البوشيدو** تعاليمها ومبادئها ، فإن المبادىء التي تَشَرَّبتها من هٰذه المصادر وتمثلتها كانت مبادىء قليلة وبسيطة ، ولكنها رغم ذلك كانت كافية لإقامة سلوك للحياة آمن حتى في إطار الأيام الخطرة ، وفي أشد الفترات التاريخية قلقاً واضطراباً في تاريخ أمتنا ، إن أسلافنا المحاربين بطبيعتهم الساذجة الغُفْل قد استمدوا لأرواحهم غذاءً طيباً من مجموعة من الأفكار المتناثرة العامة ، التقطوها من هنا وهناك وشكَّلوا منها ــ بوحي من مطالب عصرهم ــ نمطاً فريداً من البشر متميزاً . لقد لخص أحد علماء فرنسا الأفذاذ المسيو **Dela Mazeliere** انطباعاته عن القرن السادس عشر فقال : « ونحن نخطو نحو منتصف القرن السادس عشر يبدو كل ما في اليابان غامضاً : في الحكومة والمجتمع وفي الكنيسة ، ولكن الحروب الأهلية ، وعادات السلوك التي ارتدَّت إلى البربرية ، ورغبة كل فريق أن يحقق العدالة لنفسه ، هذه كلها كونت رجالاً لا يقلون عظمة عن أولئك الإيطاليين في القرن السادس عشر الذين مدح **تايني**Taine فيهم ، مبادرتهم الفعالة ، وحلولهم الحاسمة ، وتنفيذهم المتهور، وقدرتهم الهائلة على العمل والمعاناة ، لقد حول السلوك الخشن الفظ الشائع في القرون الوسطى الإنسان في كل من اليابان وإيطاليا إلى حيوان راق ، إلى محارب كامل ومقاوم باسل . هذا هو السبب أن القرن السادس عشر يعرض لنا بصورة واضحة إلى أقصى حد الصفة الأساسية المميزة للجنس الياباني ، كما أنه يمثل لنا هذا الاختلاف الهائل الذي يجده المرء بين العقول وبين الأمزجة . وإذا كان الناس في الهند وفي الصين أيضا يختلفون فيما بينهم في مستوى ذكائهم وفي قوة تحملهم ، فإن الناس في اليابان يختلفون أساساً في مكوناتهم الشخصية ، إن الفردية علامة التفوق الآن عند الشعوب وهى أيضاً علامة التقدم الحضاري حالياً . ولو جاز لنا أن نستخدم عبارة أثيرة عند **نيتشه** لقلنا أن الحديث عن الإنسانية في آسيا معناه الحديث عن السهول والبطاح ، أما في اليابان وأوروبا فالإنسانية يرمز لها بالجبال .

والآن لنتعرف على الخصائص التي تميزَّ بها أولئك الرجال الذي كتب عنهم المسيو **دى لامازلييه** ما نقلناه عنه منذ قليل ، ولنبدأ بصفة الاستقامة .

الفصل الثالث
(الاستقامة أو العدل)

الفصـل الثالـث
الاستقامـة أو العـدل

□ □ نتبين هنا أهم الأفكار المقنعة والمقبولة في قانون **الساموراي** . ليس ثمة شيء أبغض إلى قلب **الساموراي** من المعاملات المشبوهة والسلوك الملتوي المخادع . قد يكون مفهوم الاستقامة مفهوماً ضيقاً وخاطئاً ، يعرّف أحد **الساموراي** المعروفين الاستقامة بأنها « القدرة على اتخاذ قرار عاجل يتفق مع العقل إزاء سلوك خاص أو موقف بعينه . قد يكون هذا القرار هو الموت وذلك حين يكون الموت هو الحل ، وقد يكون القتال حين يكون القتال هو الحل » . ويعرفها **ساموراي ثان** على النحو التالي « الاستقامة أساس القوة وعماد مكانة الشخص . بدون العظام لا يمكن أن تستقر الرأس أعلا الجسد ، ولا يمكن لليدين أن تتحركا ولا للقدم أن تحمل الجسد ، كذلك دون الاستقامة لا يمكن للذكاء أو التعليم أن يصنعا من الإنسان « **ساموراي** » . ومع الاستقامة يمكن أن يتحقق كل شيء ، ولا مجال ثمة للفشل » . يقول **منشيس** إن الإحساس عقل الإنسان ، والاستقامة والفضائل طريقه ، ويشكو : « إن مما يثير الألم أن نغفل الطريق ولا نسير فيه ، وأن نفقد العقل ولا نبحث عنه مرة أخرى . إن الناس حين يفقدون طيورهم أو حيواناتهم يعرفون كيف يبحثون عنها مرة أخرى ، ولكنهم حين يفقدون عقولهم لا يعرفون كيف يبحثون عنها ويستعيدونها » . ألا نجد في هذا الكلام إرهاصات « قد تكون ضعيفة » للأقوال التي قالها المسيح بعد ثلاثمائة سنة في مناخ آخر ، قالها المعلم الأعظم الذى سمى نفسه بحق « المخلص » والداعي إلى الفضيلة !! ولكن هذه القضية تحتاج لمجال آخر وليس هذا مجالها . إن الفضيلة في مفهوم **منشيس** طريق ضيق مستقيم يتحتم على الإنسان أن يسلكه إذا كان يريد العودة للجنة التي طُرد منها .

وفي الأيام الأخيرة للإقطاع حين ازدهرت حياة طبقة **الساموراي** وانتعشت نتيجة لفترة السلام الطويلة ، وحين انتشرت نتيجة لذلك كل أنواع الفنون وازدهرت ، فإن اللقب **جيشي** Gishi (رجل الاستقامة) كان يعد أسمى الألقاب التي تطلق على كل

من يبلغ الغاية في الفن أو العلم . إن السبعة والأربعين مؤمناً والذين يتردد ذكرهم كثيراً في قصصنا الشعبي معرفون في اللغة اليومية باسم السبعة والأربعين **جيشي** .

وفي أوقات الحروب حيث كان المكر والخداع والتحايل جزءاً من التخطيط العسكري ، وحيث كانت الأكاذيب الصريحة تستخدم من أجل كسب المعارك وخداع العدو ، كانت صفات الصراحة والأمانة ــ تلك الفضيلة التي تعد من أهم معالم الرجولة ــ هي الجوهرة ذات البريق الخلاب ، وكانت هي الصفات التي تلقى من الاحترام والتبجيل أكثر من غيرها . إن الاستقامة قرين الشجاعة ، إنها فضيلة عسكرية أخرى . وقبل الحديث عن الشجاعة لأتوقف قليلاً عند صفة أعتقد أنها في أصلها جزء من الشجاعة ، ولكنها حين انفصلت عن أصلها تباعدت عن الشجاعة شيئاً فشيئاً حتى أصبح معناها في مفهوم العامة معنى سقيماً ، وأعني بهذه الصفة **جيري** Giri التي تعني حرفياً « التفكير السليم » ، ولكنها أصبحت تعني ــ بشكل غامض ــ الواجب الذي يرى الناس ضرورة فعله وإلزام الأفراد به وإجبارهم عليه . إن اللفظ Giri في أصل اشتقاقه كان يعني الواجب البسيط المحض ، لذلك يمكن أن نتحدث عن واجبنا Giri إزاء الوالدين ، أو تجاه المجتمع كله ، وهكذا .. هذه أمثلة للواجب ، أليس الواجب هو ما يتطلبه منا التفكير السليم ويأمرنا به ؟ أليس من المحتم أن يكون العقل السليم هو دليلنا الأوحد الخالص ؟

لا تعني **جيري** إذن إلا مجرد الواجب ، ويمكن القول بأن معناها مشتق من حقيقة أننا في سلوكنا ــ إزاء والدينا مثلاً ــ نحتاج إلى سلطة أخرى ضرورية لتفرض علينا طاعة الوالدين ، وذلك حين نفتقد شعور الحب الذي يجب أن يكون دافعنا الوحيد للسلوك في هذا المثال . هذه السلطة تشكلت في مفهوم **جيري** ، وما أصح هذا الترابط بين هذه السلطة وبين مفهوم **جيري** . ألا يتحتم علينا الاستناد إلى العقل الإنساني إذا كفّ الحب عن أن يكون دافعاً للفضيلة ! إن مهمة هذا العقل هي أن يسارع إلى إقناع الإنسان بضرورة السلوك الصحيح . والأمر صحيح أيضاً وينطبق بنفس الدقة على الواجبات الأخلاقية الأخرى ، فحين يكون فعل الواجب مرهقاً وشاقاً يتدخل العقل (التفكير السلم Giri) ليمنعنا من التهرب من فعله . وعلى ذلك فإن **جيري** عبارة عن

سيد قاس صلب يمسك بيده عصا غليظة يهدد بها الكسالى الذين يتوانون عن اداء واجباتهم ، إنها بمثابة قوة إضافية ثانوية للأخلاقيات هذه القوة الثانوية Giri أدنى قيمة بالطبع من العقيدة الأخلاقية المسيحية التي تعتمد على الحب ، الذي سيتحول بعد ذلك ليصبح هو القانون الأخلاقي . هذه القوة الثانوية أدنى من العقيدة المسيحية لأنها مجرد حافز أو دافع ، لكنها دون شك نتاج ظروف اجتماعية لمجتمع غير سليم ، مجتمع مصطنع إذا صح القول ، مجتمع تعتمد الفوارق الطبقية فيه على المحسوبية وعلى صدف الميلاد ، مجتمع الوحدة الاجتماعية الوحيدة فيه هي الأسرة ، وعامل السن أهم فيه من النبوغ العقلي ، مجتمع تتراجع فيه بالضرورة المشاعر الطبيعية مخلية مكانها للعادات الاصطناعية التي ابتدعها الإنسان . وبسبب هذه الاصطناعية انحدر مع الزمن معنى Giri وصار معنى فضفاضاً لمعايير اللياقة التي تبرر هذا الفعل وترفض ذاك ، كان نقول مثلاً لماذا يتحتم على الأم ـــ إذا حدث منها ذلك بالفعل ـــ أن تضحي بكل أطفالها لإنقاذ أكبرهم ، أو : لماذا تضطر فتاه لبيع طهارتها وعفتها لتستطيع أن تواجه إسراف أبيها ، وما أشبه من التبريرات . لقد بدأت **جيري** على أساس أن معناها هو « التفكير السليم » ولكنها انحدرت فيما أظن إلى مستوى التحايل وإصدار الفتاوى في شئون الضمير ، بل لقد انحرفت إلى أن تكون مجرد خوف من لوم الآخرين أو استهجانهم . ولعلي أقول عن **جيري** ما قاله **سكوت** عن « الوطنية » « رغم أنها أجمل المشاعر وأكثرها حقاً ، فإنها أيضاً أكثر المشاعر إثارة للشك ، ذلك أنها قد تكون قناعا لمشاعر أخرى خفية » . وبعيداً عن « التفكير السليم » أصبحت **جيري** ـــ خطأً ـــ عَلَماً على كل السخافات ، وأظلت تحت اسمها كل أنماط السفسطة والنفاق . ولو لم يكن عند **البوشيدو** معنى عميق وصحيح للشجاعة ـــ روح الجسارة والاحتمال ـــ لكان يمكن أن تصبح **جيري** بسهولة وكراً للجبن .

الفصل الرابع
(الشجاعة روح الجسارة والتحمل)

الفصل الرابع
الشجاعة روح الجسارة والتحمل

□ □ ليست الشجاعة فضيلة عند **الساموراي** مالم تكن دفاعاً عن الحق والصواب. وفي الأدب الصيني يعرف **كونفوشيوس** الشجاعة كعادته دائماً بتعريف نقيضها. يقول: « إن معرفة الصواب والحق وتجنبهما يعتبر نقصاً في الشجاعة ». ويمكن لنا أن نقول مستبدلين بالتعريف السلبي آخر إيجابياً « إن الشجاعة هي فعل الصواب والحق ». إن السعى إلى المخاطر، وإلقاء النفس في المهالك ــ وهى أمور من صميم الشجاعة ــ تعد في نظر القوانين والقواعد العسكرية تهوراً يعاقب عليه الجندي، ويطلق عليه **شكسبير** اسم « الشجاعة غير المشروعة ». وليس الأمر كذلك في مفاهيم الفروسية. إن الموت في سبيل قضية لا تستأهل الموت من أجلها يسمى « ميتة الكلب » يقول **أميرميتو** Mito : « إن الاندفاع إلى معمعة القتال والموت مسألة هينة، يستطيع الريفي الساذج أن يرتكبها، غير أن الشجاعة الحقيقية هي أن تحيا حين يكون الصواب أن تحيا، وأن تموت حين يكون الصواب أن تموت ». إن هذا الأمير بالقطع لم يسمع عن **أفلاطون** الذي يعرّف الشجاعة بأنها « معرفة الأمور التي يجب ألا يخافها الإنسان، والتمييز بينها وبين تلك التي يجب أن يخافها ويخشاها ». وفي الفكر الغربي ثمة تمييز بين الشجاعة المادية البدنية وبين الشجاعة الأدبية، وهذا التمييز معروف عندنا منذ زمن طويل، وذلك رغم أن رجال **الساموراي** لم يسمعوا أبداً عن البسالة الحقة ولا عن بسالة الخسيس Great Valour or Valour of Villain.

إن البسالة والصلابة والإقدام والشجاعة وعدم الرهبة كانت الفضائل التي يتنافس عليها الشباب منذ نعومة أظفارهم، وذلك لأنها هي الصفات المعنوية التي كانت قريبة إلى نفوس الشبيبة وقلوبهم، هذا إلى جانب أنها يمكن أن تكتسب بالتدريب والتعليم. وكانت قصص البطولات العسكرية تمثل جانباً كبيراً من القصص التي كانت تحكيها الأمهات للأطفال وهم لا يزالون في مرحلة الحضانة. وكانت الأم حين يبكي طفلها

من ألم هيّن أصابه تعنفه قائلة : « ياللجبن ، أتبكي من هذا الألم البسيط ، ماذا ستفعل إذن لو قطعت ذراعك في معركة ؟ أو ماذا سيكون سلوكك لو أمرت بالانتحار Hara-Kira ؟ » ومن المعروف عندنا الصلابة المؤثرة للأمير الطفل — أمير سنداي Senday الجائع الذي يقول لوصيفته في المسرحية المعروفة بهذا الاسم : « انظري لهذه العصافير الصغار في العش ، كيف فتحت مناقيرها الصفراء على اتساعها ، والآن انظري ها هي الأم تأتي بالديدان لتطعمهم ، انظري كيف يلتهمون الطعام بنهم وسعادة . ولكن الساموراي يشعر بالخزى والعار إذا راوده الإحساس بالجوع ومعدته خالية » . إن قصص الصلابة والإقدام جزء هام أصيل في حكايات الأطفال ، ومع ذلك فلم تكن القصص أبداً هى الوسيلة الوحيدة التي نزرع بها الجسارة والرهبة في نفوس الأطفال منذ سن باكرة جداً . لقد كان الأبوان بتصميم يصل أحياناً لحد القسوة يعرضان أطفالهما للمخاطر بهدف تعويدهم على حياة الخشونة والشظف من ناحية ، وبهدف استخلاص كل القوة والجرأة الكامنة في نفوسهم من جهة أخرى ، ويقولون في ذلك مثلاً هو أن « الدببة تلقي بصغارها في المضايق » . وقد كان الساموراي يتركون أبناءهم في الوديان القاحلة ، ويعرضونهم لمخاطر شبيهة بتلك التي كان يواجهها سيزيف في الأساطير اليونانية . كان الحرمان لفترة معينة من الطعام ، وتعريض الطفل للبرد القارس يعتبر اختباراً عسيراً لمقدرته وكفاءته ، ويهدف إلى تعويده على التحمل . أما الأطفال الأصغر والذين كانوا لا يطيقون هذا الاختبار فقد كان أهلوهم يبعثون بهم برسائل لأشخاص أغراب تماماً بالنسبة لهم ، فكان عليهم أن ينهضوا من نومهم قبل بزوغ الشمس ، وعليهم — قبل تناول الافطار — أن يقوموا بتدريبات القراءة اليومية ، ثم يتوجهون بأقدام حافية في برد الشتاء إلى دور معلميهم . وكثيراً ما كان هؤلاء الأطفال يجتمعون مرة أو مرتين كل شهر في جماعات صغيرة حيث يقضون الليل كله دون نوم في ترتيل بعض النصوص بالتناوب بصوت عال نوعاً من التدريب على القراءة ، وهذا لا يُحدث عادة إلا في أعياد الاحتفال بآلهة العلم والمعرفة ويقوم بها الكبار . وأحياناً ما يأمر الأهل أطفالهم بالذهاب في جماعات إلى الأماكن المخيفة مثل ساحات الإعدام والمقابر والبيوت المهجورة التي كانوا يعتقدون أن العفاريت والأشباح تسكنها ، وكان الشباب في الماضي

مغرما بمثل هذه العادات . وبعد أن أصبح تنفيذ حكم الإعدام يتم علناً لم يكن الآباء يكتفون بإرسال أبنائهم لمشاهدة المشهد المخيف ، بل كانوا يحتمون عليهم أن يذهبوا وحدهم ليلاً إلى ساحة الإعدام ويتركوا على رأس جثة القتيل التي لم ترفع من مكانها بعد علامة تؤكد ذهابهم[1] .

قد يثير مثل هذا الأسلوب في التربية ـــ الذي يشبه أسلوب اسبرطة المتطرف ـــ الرعب والشك في نفس عالم النفس الحديث ، الشك فيما إذا كان مثل هذا الأسلوب يمكن أن يؤدي إلى توحش الطفل ، كما يؤدى إلى قتل براعم العواطف الرقيقة في نفسه . ولننتقل إلى الفصل الخامس لنرى بعض مفاهيم **البوشيدو** الأخرى عن « الشجاعة » .

---

(١) يتمثل الجانب المعنوي للشجاعة واضحاً في الثبات ورباطة الجأش وهدوء العقل وحضوره . إن هذا الهدوء هو الشجاعة الكامنة ، إنه المظهر الساكن الاستاتيكي للشجاعة في حين تمثل أفعال الجسارة مظهرها الديناميكي النشط . إن الإنسان الشجاع النقي حقاً هو المتماسك الهادىء دائماً الذي لا يؤتي أبداً من غفلة أو على غرة ، إنه الإنسان الذي لا يخل شيء ، باتزانه ، ففي المعارك يحتفظ بهدوء أعصابه ، ويتمسك بعقله وفكره وسط المآسي والمصائب ، لا تزلزله الزلازل ويضحك في وجه الأعاصير . وكم هو عظيم وقوى من يملك نفسه وقت الخطر الكاسر ، من يستطيع مثلاً والخطر موشك محدق أن ينظم شعراً أو يترنم في وجه الموت بالغناء . إن مثل هذا الاستغراق وعدم اهتزاز الخط في الكتابة أو الصوت في الغناء تعد مؤشرات قوية صائبة تدل على الثبات وقوة الطبيعة . كلها علامات تدل على ما نطلق عليه اسم « العقل الرحب » **Yoyu** ذلك العقل لا يضيق عن شيء ما دام لم يختلط أو يتشوش .

لا نزال حتى الآن نقرأ القصة التالية ونسمعها تروى على أساس أنها قصة حقيقية وقعت في تاريخنا : بينما كان أوتا دوكان **Ota Dokan** مطعوناً برمح ، وقد طعنه قاتله الذي كان يعلم بميوله نحو الشعر وهو يترنم بهذه الأبيات :

آه .. كم في لحظات مثل هـذه
يضن القـــلب بنـــور الحيـــاة

فأجاب البطل المحتضر الذي لم يأبه بجرحه القاتل مثقال ذرة بهذه الأبيات فوراً ، وهي على نفس الوزن والقافية قائلاً :

هذا إذا لم يكن في فترات السلام
قـــد تعلـــم الاستهانـــة بالحيـــاة

بالإضافة إلى ذلك فثم جانب لطيف طريف في طبيعة الشجاعة ، ذلك أن ما هو خطير عند الإنسان العادي يعد عند الشجعان أمراً تافهاً لا يُعْتَدُّ به أو بمثابة لعب الأطفال ، ولذلك لم يكن من النادر في الحروب قديماً أن يتبادل الطرفان المحاربان بعض العبارات والاجابات السريعة البارعة في شكل منافسة بلاغية ، فلم يكن القتال عندهم مجرد قوة غاشمة ، بل كان إلى جانب ذلك صراعاً عقلياً .

بمثل هذه الطريقة كانت المعركة التي دارت على ضفاف نهر **Koromo** في نهاية القرن الحادي عشر تسير . لقد بدأ الجيش الموجود في الناحية الشرقية والذي كان تحت قيادة **ساداتو Sadato** في الانسحاب وتعقبه خصمه في هجوم عنيف وهو يصيح به : « ما أشد عار المحارب الذي يولى ظهره لعدوه » وفي التوكر ساداتو عائداً ، وحينذاك أنشد القائد المنتصر هذه الأبيات المرتجلة : =

=

لَقَدْ تَمَزَّقَ الثَّوْبُ بَـدَدًا

وَتَفَـرَّقَتْ خُيُـوطُ نَسِيجِـهِ

ولم يكد ينتهي من التلفظ بأبياته حتى جاوبه القائد المهزوم دون تردد أو تلعثم :

لأَنَّ الْعُمْرَ قَـد اسْتَهْـلَكَ

بالاستِعْمَـــالِ خُيوطَـــهِ

وفجأة أرخى القائد المنتصر **يوشي** Yoshiie عنان قوسه الذي كان على وشك إطلاق السهم ، ثم استدار تاركا خصمه يفعل ما يريد . وحين سئل بعد ذلك عن سبب تصرفه الغريب ذلك أجاب أنه لم يجرؤ على جلب العار لمحارب لم يفقد اتزانه أثناء مطاردة خصمه العنيفة له .

إن الأسف والحزن اللذين سيطرا على كل من **أنطولي و أكتافيوس** بعد موت **بروتس** تجربة عادية عند كل الشجعان . لقد بكى **كنشن** Kenshin بصوت عال حين بلغه نبأ موت خصمة **شنجن** Shingen الذي تحارب معه أربعة عشر عاماً متصلة ، وذلك لأنه فقد « أفضل الأعداء » . لقد كان **كنشن** هذا هو نفسه الذي ضرب أنبل مثال لكل العصور في تعامله العسكري مع **شنجن** . لقد كانت المناطق التي يسيطر عليها **شنجن** مناطق جبلية بعيدة عن البحر ، ولذلك كان يعتمد فى الحصول على الملح على مناطق **هوجو** Hojo في Tokaido بصورة أساسية . وذات مرة أراد أمير **هوجو** أن يُضْعِف موقف **شنجن** دون سبب ـــ اذ لم يكن في حرب صريحة معه ـــ فقطع عنه كل الإمدادات التي تزوده بهذه المادة الهامة . وحين يسمع **كنشن** بما أصاب خصمة ، وكان هو قادراً على الحصول على الملح من الشواطىء الخاضعة له كتب إلى **شنجن** قائلاً : « إن أمير **هوجو** قد ارتكب في رأيه فعلاً وضيعاً جداً دنيئاً ، وأنه ـــ أي **كنشن** ـــ أصدر الأمر لبعض رعاياه أن يزوده بما يشاء من الملح وأضاف قائلاً : « إنني أحارب السيف لا الملح » . أليس هذا بالضبط ما قاله **كاميلو** Camillus « نحن الرومان لا نحارب الذهب ، ولكنا نحارب الحديد » .

وكأن **نيتشه** كان يخاطب قلب **الساموراي** حين كتب : « عليك أن تفخر بعدوك ، فيكون نجاحه وانتصاره نجاحاً لك أيضاً وانتصاراً » . والحقيقة أن الشجاعة وكذلك الشرف يتطلبان منا أن يكون أعداؤنا في الحرب هم من يستحقون صداقتنا في السلام . حين تصل الشجاعة إلى هذا المستوى الرفيع وإلى هذه القمة السامقة فإنها تصبح قرينة الفتوة[١] موضوع الفصل التالي .

---

(١) لم نجد خيرا من هذه الكلمة لترجمة الكلمة الإنجليزية Benevslence ، خاصة أن هذا المفهوم يمكن أن يقارن بمفهوم « الفتوة » في الثقافة العربية .

الفصل الخامس

(الرحمة والتعاطف)

الفصل الخامس
الرحمة والتعاطف

□ □ كانت الرحمة والتعاطف والإحساس بآلام الآخرين ، والحب والشهامة كذلك تعد في اليابان أسمى الفضائل التي توصف بها النفس الإنسانية . كانت تعتبر من فضائل الأمراء ، وذلك من زاويتين وبمعنيين : لأنها أولاً : من أهم صفات النفس النبيلة ، ولأنها ثانياً : صفات تتناسب عملياً مع مهام الإمارة . ولم نكن بحاجة إلى **شكسبير** لكي ندرك أن الرحمة أفضل جوهرة في تاج الأمير ، وأنها أكبر من نفوذه وسلطانه « إن الأمير يحتاج إلى الرحمة والرأفة أكثر من حاجته إلى الصولجان ، واذا تدثرت سلطته وقوته بالرأفة والحب كانت أبلغ أثراً » . لم نكن بحاجة إلى **شكسبير** لندرك كل ذلك ، وإن احتجنا إليه ــ شأننا في ذلك شان بقية الشعوب ــ للتعبير عنه . وكم ردد كل من **كونفوشيوس ومنشيوس** الحاجة الملحة إلى حاكم يعتمد الرحمة والإحساس أساساً لحكمه . يقول **كونفوشيوس** : « إذا تمثل الأمير بالفضيلة اجتمع حوله الناس ، وإذا التف حوله الناس منحته الأرض خيرها ، فإذا صار ثرياً أحسن استخدام ثروته . إن الفضيلة هي الأصل ، وليست الثروة إلا الفرع والثمرة » . ويقول أيضاً : « ما من حاكم أحب الرحمة وتمسك بها إلا وأحبت رعيته الفضائل وتمسكت بها » . ويقول **منشيوس** في نفس الاتجاه : « يحدثنا التاريخ عن بعض الأمراء الذين تصدروا مراكز القوة والسلطة في دولة بعينها وإن لم يكونوا مزودين بفضيلة الرحمة ، ولكننا لم نسمع أبداً عن امبراطورية كبيرة أسلمت قيادها لمثل أولئك الأمراء . ومن المستحيل أن يحكم إنسان ما شعباً دون أن يكون هذا الشعب قد أسلم له زمام قلبه ونفسه » .. « إن الرحمة هي الإنسان » هنا يحدد كل من **كونفوشيوس ومنشيوس** هذه الفضيلة التي لا غنى عنها للحاكم .

ولا شك أننا مدينون لهذه الفضيلة ــ الرحمة ــ بعدم وقوعنا في أشد أنواع الاستبداد ، وذلك في ظل النظام الإقطاعي الذي كان يمكن أن ينحدر بكل بساطة إلى هاوية العنف العسكري . إن الاستسلام الكلي للحاكم من جانب المحكومين « بأرواحهم

وأجسادهم » يفتح الباب على مصراعيه لأن تكون الإرادة الذاتية للحاكم هي المسيطرة ، وهذا من شأنه أن يؤدي إلى نتيجته الطبيعية من انتشار الاستبداد الذي كثيراً ما كان يحمل صفة الاستبداد الشرقي في كتابات المستشرقين ، وكأن التاريخ الغربي بريء تماماً من الاستبداد والإقطاع !

ولا يظنَّن ظان أنني أحبذ أي شكل من أشكال الاستبداد ، ولكن من الخطأ التوحيد دائماً بين الاستبداد والإقطاع ، لقد ظن فقهاء القانون أن ثمة مرحلة جديدة في تطور الحرية ستبدأ حين كتب **فردريك** الأكبر « أن الملك هو الخادم الأول للدولة » . ومن الصدف الغريبة أن يقول حاكم ياباني نفس الكلام في نفس الفترة تقريباً ، هو **يوزن** Yozan حاكم مقاطعة يونيزاوا Yonezawa الواقعة في منطقة الغابات في شمال غرب اليابان . لقد كان هذا الإعلان بمثابة بيان يؤكد أن النظام الإقطاعي لم يكن كله استغلالاً واستبداداً . لقد كان الأمير الإقطاعي يحس إحساساً هائلاً بالمسئولية إزاء أسلافه وإزاء الآلهة ، وإن لم يكن يولي اهتماماً كبيراً لواجباته إزاء الرعية . لقد كان يعتبر نفسه أباً لهؤلاء الذين وضعتهم السماء تحت حكمه ورعايته . وطبقاً لما ورد في « كتاب الشعر » الصيني القديم كان أهل **ين** Yin من الحكام قادرين على الظهور أمام آلهة السماء إلى أن فقدوا حب شعبهم لهم . وقد ذهب **كونفوشيوس** في « تعاليمه » العظيمة إلى أن « الأمير يكون أباً لشعبه حين يحب ما يحبه الناس ، وحين يكره ما يكرهه الناس » . هكذا امتزجت الديمقراطية بالاستبداد ، وامتزجت ارادة الحاكم بالرأي العام . وهكذا أيضاً استطاع **البوشيدو** أن يساهم في إقامة حكومة « أبوية » تتناسب مع مفاهيمه ، حكومة أبوية أكثر أهمية من نقيضها ومقابلها حكومة العمومة — أو الخئولة — (التي تمثل في حكومة — العم **سام** — إن الفارق بين الحكومة الاستبدادية والحكومة الأبوية يكمن في أن الناس تكون مكرهة على الطاعة في الحالة الأولى ، بينما يكون الخضوع في الحالة الثانية « ممتزجاً بالفخر الأمر الذي يجعل الطاعة طاعة كريمة نابعة من القلب ، ويجعل روح الحرية النبيلة حياً حتى في إطار العبودية ذاتها »[1] . ولم يكن ما أطلق

---

(1) **Burke, French Revolution.**

على ملك انجلترا من أنه « ملك الشياطين خطأ تماماً ، « وذلك بسبب تمرد رعيته الدائم ضد أمرائهم ، ومطالبتهم دائماً بتغييرهم » . ولم يكن خطأ أيضاً ما أطلق على ملك فرنسا من أنه « ملك الحمير » بسبب الضرائب الفادحة التي كان يفرضها دائماً على الرعية . وعلى عكس ذلك قيل عن ملك أسبانيا أنه « ملك الرجال » للطاعة الصادقة التي تمتع بها من جانب رعيته . وتلك كلها أمثلة كافية .

وقد يصدم العقل الأنجلو ــ ساكسوني أن تجتمع الفضيلة والسلطة المطلقة لتخيله أنهما صفتان متعارضتان . ولكن **بوبيدونوستسف** Pobeyedonstseff استطاع أن يرسم لنا بشكل واضح الصورة الأخرى ، وذلك فى اختلاف الأسس التي قامت عليها المجتمعات الانجليزية عن تلك التي قامت عليها المجتمعات الأوروبية الأخرى ، إذ قامت هذه الأخيرة على أساس « المصلحة المشتركة » بين الأفراد ، بينما تميز المجتمع الانجليزي باعتماده أساساً على مفهوم الشخصية المستقلة الناهضة جداً . وما يقوله رجل الدولة الروسي أيضاً من اعتماد أفراد شعوب القارة الأوروبية ــ والشعوب السلافية خاصة ــ على بعض الروابط الاجتماعية والعلاقات العرقية ، وكذلك ما يقوله من اعتمادهم في النهاية على الدولة يصدق تماماً على حالة اليابانيين . ولا يكفي هنا ان نقول أن الحكم المطلق في اليابان لم يكن له نفس وطأة الحكم المطلق في أوروبا ، بل لابد كذلك أن نضيف أن إحساس الرعية في اليابان بتلك الاعتبارات الأبوية التي أشرنا إليها كان يخفف إلى حد كبير من وطأة الحكم المطلق وثقله . يقول **بسمارك** « إن الحكم المطلق يتطلب في الحاكم الأمانة والتواضع الذاتي والإخلاص في أداء الوجب ، وكذلك النزاهة » . وإذا كان لي أن أضيف استشهاداً آخراً ، فليكن من خطبة الامبراطور الألماني **كبلنج** Cobleng حين تحدث عن الملكية بالتفويض الإلهي ، وعن واجباتها الثقيلة ، ومسئولياتها العظيمة إزاء الله الخالق وحده ، تلك المسئولية التي لا يعفي الملك منها أي إنسان أو وزير أو برلمان .

لقد عرفنا أن الرحمة فضيلة رقيقة أشبه بعاطفة الأمومة . وإذا كانت الصرامة والحزم صفات ذكورية ، فإن الرحمة تتميز بالرقة والقدرة على الإقناع الأنثوي . وقد تعلمنا أن نحذر الوقوع في أسر العواطف الإنسانية الغامضة دون أن نمزجها بالحزم والصرامة

لقد عبر **ماسوموني** Masamune عن ذلك جيداً في قولته المأثورة : « إذا تجاوز الحزم حده صار قسوة ، وإذا وضعت الرحمة في غير موضعها صارت ضعفاً » .

ومن حسن الحظ أن الرحمة على جمالها ورقتها ليست نادرة الوجود ، ومن الشائع المتعارف عليه في كل الثقافات أن « الأكثر شجاعة هم الأكثر رقة ، وأن الأكثر قدرة على الحب هم الأكثر جسارة » . إن في رقة المحارب **الساموراي** Bushido-no-Nasake صدى يخاطب مباشرة ما هو نبيل في نفوسنا ، ليس لأن رحمة **الساموراي** مختلفة من حيث نوعها عن الرحمة عند سواه من البشر ، ولكن لأنها تعني الرحمة مقترنة بالعدل والحزم ، لا الرحمة بالمعنى الغامض المبهم الكلمة ، إنها عند **الساموراي** ليست مجرد عاطفة قلبية شعورية ، بل هي بالإضافة إلى ذلك الرحمة القادرة على التحقق في الفعل الخارجي ، حيث تساندها القوة والقدرة على الثواب والعقاب بالإنقاذ أو القتل . وكما يتحدث علماء الاقتصاد عن قانون « الطلب » ومتى يكون فعالاً ، كذلك يمكن لنا أن نقول إن رحمة **البوشيدو** هى الرحمة الفعالة ، وذلك لأنها تعني القدرة على فعل الخير ، كما تعني القدرة على محاربة الشر .

لقد كان **الساموراي** ــ رغم افتخارهم الدائم بقوتهم المهولة وبقدرتهم على استخدامها ــ يسلمون تسليماً مطلقاً بما قاله **منشيوس** عن القدرة على الحب والرحمة : « تستطيع الرحمة أن تقهر نقيضها كما يقهر الماء النار . إن الشك في قدرة الماء على إطفاء النار يثور حين نحاول إخماد نيران عربة كاملة محملة بالقش المشتعل بكوب واحد من الماء » . ويقول أيضاً : « إن أساس الرحمة هي الإحساس بالشفقة والرأفة ، ولذلك فالإنسان الرحيم يفكر دائماً في أولئك الذين يعيشون في فاقة وفي أزمة ، أولئك الذين يعانون » . هكذا نجد أن **منشيوس** يشارك **آدم سميث** فلسفته الأخلاقية التي أقامها على أساس التعاطف .

إن هذا التقارب في قوانين الفروسية وفي معايير الشرف بين الثقافات أمر مدهش حقاً ، أو لنقل بكلمات أخرى : أليس من المدهش أن تجد الأفكارُ الشرقيةُ عن الأخلاق ــ تلك الأفكار التي أُسيء فهمها في الغرب ــ مثيلاً لها في أنبل مبادىء التراث الغربي ؟ إننا إذا عرضنا السطرين المشهورين التاليين على مواطن ياباني ، فليس من المستبعد أن يتهم الشاعر الملحمي **مانتون** Mantuan بانتحال جزء من التراث الياباني .

هذه هي المبادىء ، بها تحقق لنفسك الهدوء والسلام ،
وللآخرين تمنحهم القوت والغذاء ،
وبها تقهر قوة الصلف والغرور

إن الرحمة بالضعيف والعاجز كانت دائماً من أهم الصفات المرتبطة ارتباطاً وثيقاً **بالساموراي** . ولا شك أن عشاق الفن الياباني يعرفون جيداً صورة (الراهب) ، ذلك الذي يمتطي ظهر بقرة في وضع معكوس : الوجه ناحية الذيل ، والظهر ناحية الرأس . لقد كان هذا الراهب الراكب محارباً استطاع أن يقرن اسمه بالرعب والفزع . وفي معركة **سومانو أورا** Sumano-Ura عام ١٨٨٤م ، وهي إحدى المعارك الوحشية الفاصلة في تاريخ اليابان ، فاجأ هذا المحاربُ محارباً من الأعداء وتمكن منه ، فطوقه بذراعيه القويتين . وتتطلب تقاليد الحرب في مثل هذه الأحوال ألا يقتل المحارب غريمه — ولا يريق نقطة واحدة من دمه — إلا إذا كان مساوياً له في الرتبة وكفؤاً له من حيث القوة والقدرة . لذلك كان لابد للمحارب الشرس — بطل القصة — أن يعرف اسم المحارب الذي وقع تحت سيطرته ، ولكن المحارب المهزوم رفض الإفصاح عن اسمه ، واضطر البطل إلى أن يكشف عن وجه غريمه القناع بعنف وقوة . وحين ظهر من تحت القناع وجهُ شاب جميل المحيا لم تنبت لحيته بعد ارتخت من الدهشة عضلات الفارس المنتصر عن جسد غريمه ، ثم ساعده على النهوض والوقوف على قدميه ، وتوسل إليه في صوت أبوي قائلاً : « ارحل أيها الأمير الشاب والحق بأمك ، إن سيف **كوما جايه** Koma Gaya لا يمكن أن يبتل بنقطة واحدة من دمك ، أسرع قبل أن يفاجئك الأعداء » . لكن المحارب الشاب رفض الذهاب ، وتوسل إلى **كوما جايه** أن يقتله حفاظاً على شرفهما كليهما ، ولمع نصل السيف القاتل فوق رأس المحارب العجوز الأشيب . ذلك النصل الذي كم قطع شرايين الحياة كثيراً من قبل ، وهذا القلب الجرىء الجسور ، كلاهما جبن هذه المرة وقد تخايلت لعيني المحارب العجوز صورة ولده الذي بدأ تدريبه العسكري على صمت البوق ، وهو لا يزال في سن هذا الشاب الماثل أمامه . ارتعشت اليد القوية ، وتوسل المحارب لضحيته الشاب مرة أخرى لكي يفر بحياته ، ولكنه وجد ألا جدوى من الرجاء والتوسل . وحين أحس بخطوات رفاق الفرسان تقترب منهما

صاح بالشاب : « لو جاء هؤلاء فقد يقتلك من هو أدنى مني شرفاً ورتبة ، أيتها السماء اقبلي روح هذا الشاب » ، وفي لحظة خاطفة لمع السيف في الهواء ، وحين تهاوى كان عالقاً به اللون الأحمر لدم الشاب البرىء . وعاد بطلنا بعد انتهاء الحرب بالنصر المظفر ، ولكنه عاد أيضاً وقد زهد في الشرف وفي الشهرة ، فاعتزل حياة الحرب والسلاح ، وحلق رأسه ، وتزيا بزي الرهبان ، وكرس بقية عمره للرهبنة والسياحة في الأرض . ولم يُدِر ظهره بعد ذلك أبداً ناحية الغرب ، حيث فردوس الخلاص ، وحيث ترحل الشمس كل يوم إلى مقرها .

قد يجد النقاد في هذه القصة بعض المطاعن ، فهي قابلة للنقد من حيث صدقها الحرفي . وقد تكون القصة بالفعل غير حقيقية ، ولكنها تكشف بطريقة جلية كيف أن الرقة والرحمة والحب كانت الصفات والفضائل التي يتحلى بها أكثر **الساموراي** وحشية وقسوة . لقدَ كان مبدأ قديماً معروفاً بين **الساموراي** أن « الصياد لا يليق به أن يقتل الطير الذي يلوذ به » . ولعل هذا يمكن أن يفسر لنا ما لقيته حركة الصليب الأحمر — الوثيقة الصلة بالمسيحية — في اليابان من ترحيب وقبول ، حيث وجدت في هذه المبادىء تربة صالحة مستعدة لقبولها واحتضانها وقبل أن نسمع عن اتفاقية جنيف بعشرات السنين جعلنا الروائي الياباني العظيم **باكين** Bakin على وعي بضرورة تقديم الرعاية الصحية لأسرى الأعداء . ومن أهم مبادىء **الساتسوما** Satsuma التي اشتهرت بتقاليدها الحربية وروحها العسكرية التدرب على الموسيقي ، وهى عادة انتشرت بين الشباب ، وليس المقصود بتعلم الموسيقى هنا مجرد القدرة على نفخ البوق أو دق الطبل ، ذلك النذير الصاخب بالدم والموت والدمار والذي يثير الإنسان ويدفعه إلى تقليد أفعال النمور المفترسة — بل المقصود بالموسيقى الإيقاع الحزين الناعم على أوتار آلة البيوا Biwa — آلة تشبه الجيتار — ذلك الإيقاع الذي يهدىء الأرواح المضطربة والنفوس الهائجة ، وينتشل الأفكار من مناظر المذابح ومن رائحة الدم . وفي هذا الصدد يحدثنا **بوليبيس** Polybiys عن دستور أركاديا الذي يفرض على الشباب تحت سن الثلاثين التدرب على الموسيقى ، لعل هذا الفن الجميل يخفف من الطبيعة القاسية الصارمة للمنطقة . وينسب **بوليبيس** إلى تأثير الموسيقى غياب العنف في هذه المنطقة .

ولم تكن **ساتسوما** المكان الوحيد في اليابان الذي يطبع الرقة في قلوب **الساموراي** فأمير **شيراكاوا** Shirakawa الذي دون أفكاراً متفرقة بطريقة مركزة ، يقول ضمن ما يقول : « لا تطردها وإن كانت تتسلل إليك في هدأة الليل وساعات صمته ، بل تمتع بها ، تلك هي روائح الزهور ، وصدى الأجراس البعيد ، وهمهمة الحشرات في الليل البارد » . ويقول أيضا : « عليك أن تسامح هؤلاء الثلاثة وإن كانوا يجرحون مشاعرك ، هؤلاء هم : الريح التي تنشر أزهارك وتبددها ، والسحب التي تخفي عنك وجه القمر ، والإنسان الذي يحاول أن يثيرك للشجار معه » .

ليس التعبير اللغوي نفسه إلا مجرد الظاهر ، والباطن الحقيقي والباعث على كتابة هذه الأفكار التي هي والشعر سواء هو زرع هذه المشاعر الرقيقة في النفوس فعلا . لذلك نجد في شعرنا تياراً خفياً من العاطفة والرقة . يؤكد ذلك قصة شائعة عن **ساموراي** ساذج طلب منه سيده أن يتعلم نظم الشعر . وحين أعطيت له كراسة النظم The Warbler's Nates ليبدأ محاولته الأولى ، عبَّرت نفسه الفزعة عن احتجاجها ، وألقى عند قدمي سيده بهذا النتاج الفظ السقيم :

إن المحارب الشجاع يتبرَّأُ
من الأذُنِ التي قد تصغي
إلى أغاني العندليب .

ولكن سيده غير مبال أو هيَّاب من هذه العواطف الفظة ، ظَلَّ يشجع **الساموراي** الشاب ، حتى استيقظت موسيقى روحه ذات يوم ، واستجابت لأنغام العندليب العذبة ، فكتب :

يتوقف المحارب قوياً ومسلحاً
لينصتِ إلى أغنية العندليب
وهو يشدو بأعذب ألحانه من بين الأشجار

إننا نستمتع جداً ونُعْجَبُ بتلك الحادثة البطولية في حياة **كورنر** Korner القصيرة ، الذي حفر قصيدته « وداعاً للحياة » بينما كان ملقى جريحاً في ساحة القتال . وليست الأحداث الشبيهة بتلك الحادثة قليلة في حروبنا ، إن أشعارنا البليغة المحكمة تتلاءم تلاؤماً

خاصاً مع ارتجال العواطف الجزئية . وقد كان كل المتعلمين إما شعراء أو متذوقين للشعر . ولم يكن من النادر المستغرب أن يتوقف أحد المحاربين عن السير ، ويستخرج من نطاقه ورقة يكتب عليها شعراً . وقد كانت مثل هذه الورقات بعد ذلك يتم العثور عليها في خوذات الجنود أو في جيوبهم بعد استشهادهم .

ان ما فعلته المسيحية في أوروبا من إثارة روح التعاطف وسط رعب القتال في المعارك قد فعله حب الموسيقى والشعر في اليابان . إن زرع مشاعر الرقة والرحمة قد تولد عنه الإحساس بمعاناة الآخرين . ان التعاطف والتواضع حين يتمثلان في احترام شعور الآخرين تكون هي جذور الأدب في السلوك والأخلاق .

□□□

الفصل السادس
(الرقة والأدب)

الفصل السادس
الرقـة والأدب

□ □ يلاحظ كل السواح الأجانب أن الرقة والمجاملة من خصائص السلوك الياباني . والرقة والمجاملة فضائل لاقيمة لها إذا كان الإنسان يتظاهر بها فقط خشية إيذاء الذوق ومشاعر الآخرين ، في حين أنها يجب أن تكون مظهراً يعبر عن التعاطف مع الآخرين وعن مشاركتهم مشاعرهم وأحاسيسهم .. وهما أيضاً يتضمنان مراعاة معايير التناسب والتوافق بين الأشياء ، ولذلك يهتم الإنسان الرقيق المجامل بمراعاة فروق الموقع الاجتماعي ويحترمها ، وليس معنى ذلك الاعتداد بالفروق الطبقية التي تعتمد على الثروة والجاه ومراعاتها ، ذلك أن هذه الرقة والمجاملة في السلوك كانت تهتم أساساً بالفوارق الخاصة بين البشر من حيث أهليتهم الفعلية وقدراتهم الذاتية ، وكانت تُعْتَدُّ بهذه الفوارق دون غيرها .

والرقة والمجاملة في أرقى أشكالها تقترب من الحب ، ونستطيع أن نقول بكل تأكيد : إن الأدب في السلوك هو « الصبر والشفقة وعدم الحسد أو التبجح أو الغرور » ، كما يعني أيضاً « ألا يظهر الإنسان أبداً في شكل لا يليق به ، وألا يكون غاية جهده البحث عن منفعته الخاصة ومصالحه الذاتية » كما يعني ذلك « إن الشخص المؤدب في سلوكه لايجب أن يتأثر كثيراً بالإساءة التي تُوَجَّه إليه .. كما أنه لايكون من السهل استثارته » . لاعجب إذن أن يضع الأستاذ دين **Dean** الأدب في السلوك في أسمى مكانة وأرقاها بوصفه أنضج ثمار التعامل الاجتماعي ، وذلك عند حديثه عن عناصر التعامل الاجتماعي الإنسانية الستة .

وإذا كانت الإنسانية قد نظرت هذه النظرة المتسامية لقواعد آداب السلوك ، فلا مجال إذن للاعتراض عَلَيَّ حين أضعه في مقدمة الفضائل وعلى رأسها . وعند التحليل نجد أن أدب السلوك يرتبط بفضائل أخرى من مستوى أرقى ، فليس ثمة فضيلة من الفضائل تقف وحدها معزولة عن غيرها . ولأن الأدب في السلوك قد تمتع دائماً باحترام عميق

بوصفه سلوكاً مقترناً اقتراناً حميماً بالنظام العسكري ومهنة القتال والحرب ، ولأنه أيضاً قد لقي دائماً تقديراً يتجاوز ما يستحقه ، فقد ظهر للوجود ــ مقارناً له تقريباً ــ شبيهه الزائف ، الأدب الظاهري . لقد كان **كونفوشيوس** يكرر دائماً وباحترام أن اللوازم والمظاهر الخارجية والتوابع الخاصة بالأدب في السلوك إنما تمثل جزءاً بسيطاً جداً من حقيقته ، إنها تمثل ما تمثله الأصوات بالنسبة للموسيقى .

وقد كان طبيعياً ومتوقعاً حين تحول الأدب في السلوك وارتفع إلى مستوى الضرورة الاجتماعية في التعامل اليومي أن يظهر للوجود خاصة بين الناس العاديين نظام شامل لآداب السلوك والتعامل ، نظام يتم على أساسه تدريب الشباب على مقتضيات السلوك الاجتماعي القويم ، كأن يتعلم الشاب مثلاً كيف يجب أن ينحني حين يخاطب الآخرين أو يتحدث إليهم ، وكيف يجب أن يسير أو أن يجلس ، ومتى . كل ذلك كان يتلقنه الشباب بغاية الدقة والإتقان ، حتى أن آداب المائدة وتناول الطعام تطورت حتى صارت علماً ، وكذلك ارتفع أدب تقديم الشاى والمشروبات إلى مستوى الشعيرة والاحتفال الخاص ، وكان يتوقع من الإنسان المتعلم أن يكون مجيداً لكل هذه الأشياء طبعاً . لقد أصاب السيد **فبلن Veblen** في كتابه إلهام « **نظرية الطبقة المرفهة** » حين جعل اللياقة وآداب السلوك « ثمرة طبيعية لحياة الطبقة المرفهة »[1] .

لقد سمعت بعض الملاحظات البسيطة من بعض الأوروبيين عن مجال إدراكنا الواسع لآداب السلوك . وكان ثمة نقد لهذا على أساس أنه يحتل من تفكيرنا مساحة أكبر مما ينبغي ، وعلى أساس أن الحرص الدائم على الطاعة العمياء لآداب السلوك ومعاييره في كل التفاصيل أمر مرهق جداً ، وأعترف أنه قد يكون في مراعاتنا للياقة واحتفائنا بآداب السلوك بعض المغالاة غير الضرورية ، ولكن ثمة سؤالاً يلح على ذهني دون إجابة ، هذا السؤال هو : هل هذه المغالاة مساوية لِلَهْث الأوروبيين الدائم والمرهق وراء الموداتِ التي تتغير كل يوم ؟ ومن جانبي لا أعتبر المودات نزوات فارغة ، بل أنظر عليها على العكس من ذلك على أساس أنها بحث دائم لايتوقف من جانب العقل الإنساني عن

---

(1) Theary of the leiser class, N. Y. 1899, p. 46.

الجمال .. هل نستطيع بعد ذلك أن نعتبر المجاملات الكثيرة تافهة كلها ؟ بالطبع لا ، فإنها ثمرة لطول الممارسة وعمق التأمل بحثاً عن الوسيلة المثلى لتحقيق بعض النتائج الخاصة . إن الإنسان إذا كان عليه أن يؤدي عملاً فثمة طريقة مثلى لتحقيق هذا العمل ، والطريقة المثلى هى الطريقة الأكثر اقتصاداً والأكثر شرفاً واحتراماً . إن اللياقة والشرف هما أكثر وسائل الحركة اقتصاداً كما يقول سبنسر . إن احتفال الشاى يزودنا بطرائق بعينها للتعامل مع إناء الشاى ومع الملعقة ومع المنديل الورقي .. إلخ . هذه الطرائق قد تبدو مضجرة ومملة بالنسبة للمبتدئين ، ولكن سرعان ما يكتشف الإنسان أن الطريقة التي تعلمها هى في النهاية أكثر الطرق اقتصاداً في الوقت والجهد ، أو بكلمات أخرى هى أكثر الطرق اقتصاداً في استهلاك الجهد ، أو هى — طبقاً لمعيار سبنسر — أكثر الطرق جمالاً ورشاقة .

إن المغزى الروحي كامن هناك خلف أساليب السلوك ومعايير الذوق الاجتماعي . وقد أقول مستعيراً بعض مفردات « فلسفة الأزياء » : إن الباعث الروحي الذي تعد الاحتفالات ومظاهر السلوك مجرد ثياب خارجية له « أقل حجماً » من هذه المظاهر التي تشد انتباهنا إليها ، وتُنسينا ما وراءها من مغزى .. ومن الممكن بالطبع أن أطبق ماقاله سبنسر وأتتبع أصول القواعد الاحتفالية في ثقافتنا لكى أصل إلى بواعثها الأخلاقية الروحية ، وأُبرز الأصول التي أنتجتها ، ولكن ليس هذا ما أهتم به هنا ، لأنني أريد أن أكتفي ببيان التدريبات الأخلاقية التي تتبدى في السلوك اللائق الذي يمكن ملاحظته فعلاً ، والذي يتحقق في السلوك الخارجي .

لقد ذكرت من قبل أن آداب السلوك قد تطورت في شكل مظاهر عديدة جميلة كالرقة والدماثة والوداعة ، حتى أنه وجدت في اليابان مدارس مختلفة تفرض كل منها على أبنائها نظاماً سلوكياً مختلفاً ، لكن هذه المدارس جميعها اتفقت على القواعد الأساسية الضرورية . وهذا ماعبر عنه واحد من أكبر المؤسسين لمدرسة **أوجاساوار Ogasuwara** وهى أشهر مدرسة في آداب السلوك ، حيث قال : « إن غاية كل آداب السلوك أن تساعد عقلك على التمكن من الاحتفاظ بهدوئه دائماً ، حتى إن أكثر البشر خشونة وفظاظة لايجسر على الاعتداء عليك ، ولو كنت جالساً في هدوء وسكون » . إن هذا

معناه أن التدريب المستمر المتواصل على السلوك القويم وآدابه ينظم ملكات الإنسان ، كما أنه ينظم أجزاء الجسم وأعضاءه بطريقة مثلى ، ويجعل الإنسان في حالة توازن وتلاؤم تام مع نفسه ومع البيئة المحيطة به حتى إن روحه تسيطر على جسده . أى معنى جديد وعميق تكتسبه عندنا الكلمة الفرنسية **Biemséance** والتي تعني أصلاً الاستقرار التام والتمكن في وضع الإنسان .

وإذا كان الأدب في السلوك يعني كما قلنا الاقتصاد في استهلاك الجهد ، فمن المنطقي نتيجة لذلك أن يؤدي التدريب المستمر على أساليب السلوك وحسن التعامل إلى ادخار القوة والجهد والاحتفاظ بهما ، لذلك فالآداب الحميدة هى القوة في حالة سكون . إن برابرة **جايلز Gauls** الذين تجرأوا على جذب لحى الشيوخ الأجلاء حين اقتحموا مجلس الشيوخ خلال نهب روما ليسوا ملومين على سلوكهم هذا ، والذي يستحق اللوم فعلاً — فيما أتصور هم هؤلاء الشيوخ أنفسهم ، ذلك أن إحساسهم بالقوة والكرامة كان مفتقداً آنذاك ، ولكن هل يمكن حقاً من خلال مراعاة قواعد السلوك وآدابه أن يحقق الإنسان مستوى روحياً شامخاً ؟ ولم لا — أليست كل الطرق تؤدي إلى روما .

ولأضرب احتفال الشاى **Cha-no-yu** مثلاً .. أكشف من خلاله كيف أنَّ أبسط الأشياء يمكن أن يتحول إلى فن ، ويتحول من ثم إلى ثقافة روحية عميقة . قد يتعجب متعجب : وهل ارتشاف الشاى فن ؟ ونحن بدورنا نجيب : ولم لا ، لقد كانت الصور التي حفرها الإنسان على الصخور وداخل جدران الكهوف وكذلك كانت الرسوم التي يخطها الأطفال على الرمال مقدمات وإرهاصات **لرفائيل ومايكل أنجلو** . وأكثر من ذلك يمكن أن يقال عن تناول أى مشروب يبدأ بالتأمل الباطني العميق المتعالي ، التأمل الذي يشبه تأمل الناسك الهندي الذي يود أن يكون نموذجاً للدين والأخلاق ، إن الهدوء العقلي ، وصفاء المزاج ، والتأنق ، ورباطه الجأش في السلوك والتصرف تعد أموراً جوهرية في حفل الشاى . وهى أيضاً دون شك الشروط الأساسية للقدرة على التفكير السليم والشعور الصافي ، إن النظافة التامة الدقيقة للحجرة الصغيرة المعزولة عن أصوات الزحام الصاخب وعن مشاهده أيضاً هى في حد ذاتها عامل — أو عوامل — مؤثرة في توجيه فكر الإنسان بعيداً عن العالم وهمومه ومشاغله . إن الداخل — داخل

الحجرة ـــ العاري من أي زينة لايشد انتباه الإنسان كما هو الأمر في القاعات الغربية المزدحمة بالتحف والصور الكثيرة ، أما وجود **الكاكي مونو** Kake-Mono ــ وهي لوحة ورقية قد تكون رسماً وقد تكون مجرد حروف رمزية ، وهى تستخدم للزينة ـــ فهو يلفت انتباهنا إلى أناقة التصميم أكثر مما يلفته إلى جمال اللون . إن الهدف من وراء كل ذلك هو تصفية الذوق والإحساس تصفية تامة ، ومن أجل ذلك يتم التخلص من كل ما يمت إلى مايشبه العرض بصلة ، وبطريقة تكاد تقترب من الحساسية الدينية ، لقد تم ابتداع احتفال الشاى بهذه الطريقة التنسكية في وقت كانت فيه الحروب ـــ أو إشاعات الحروب وتوقعاتها ـــ لا تتوقف ، وهذه الحقيقة تدل دلالة فعلية على أن هذا الاحتفال ـــ أو هذه الشعيرة ـــ لم يكن مجرد وسيلة لتمضية الوقت والتسلية . لقد كان على الجماعة التي تشارك في هذا الاحتفال أن تتخلص من الإحساس بالقتال الشرس ، وأن تخلى عقولها من شئون الدولة ، كما تخلع عنها سيوفها ، قبل الدخول إلى غرفة الشاي واجتياز حدودها الهادئة الآمنة ، وذلك حتى تتمكن من تحقيق الصداقة والسلام .

ليس احتفال الشاي إذن مجرد احتفال ، إنه فن جميل ، شعر ذو إيقاع فعلي يعتمد على حركات الجسد ، إنه طريقة للأداء تعتمد على معرفة بالنفس وعلم بأحوالها . إن أعظم قيمة لهذا الاحتفال تكمن في هذا الجانب الأخير . وإذا كانت الجوانب الأخرى كثيراً ما يكون لها مركز الصدارة في عقول المريدين ـــ أو المشاركين ـــ فان هذا لا ينهض دليلاً على أن جوهر الاحتفال وغايته ليس جوهراً روحياً .

ولو لم يكن للأدب في السلوك غاية سوى إنه يزين السلوك بالأناقة لكانت غاية يستحق من أجلها أن يكون مطلباً عظيماً ، فما بالنا ووظيفته لا تقف عند هذا الحد .

إن السلوك القويم النابع من بواعث الرحمة والتواضع ، والذي يتجسد في المشاعر الرقيقة تجاه حساسية الآخرين لهو تعبير طيب أبداً عن التعاطف ، إنه يتطلب منا أن نبكي مع الباكين ، وأن نبتهج مع المبتهجين . وحين تنتقل مثل هذه المطالب التعليمية التي نتلقنها إلى مستوى التفاصيل اليومية الصغيرة في الحياة والسلوك ، فإن هذه ـــ لو أمكن إداركها . وملاحظتها ـــ فإنها تبدو « مضحكة للغاية » كما قالت ذات مرة إحدى السيدات التي عاشت في اليابان عشرين عاماً عضواً في البعثة التبشيرية . من أمثلة هذه

المواقف أن يابانيا من معارفك قد يلقاك وأنت تسير تحت ظل الشمس الحامية دون أن يكون معك ما تستظل به ، ومن الطبيعي أن تحييه ، وعلى الفور يرفع الياباني قبعته تحية لذلك ، وليس في ذلك شيء من الغرابة ، فالأمر حتى الآن طبيعي جداً . ولكن السلوك « المضحك للغاية » أنه يظل طوال مدة حديثه معك خافضاً مظلته ، واقفاً مثلك تحت حَرِّ الشمس الحارق ، ياللغباء ! نعم ، خاصة إذا عرفنا الباعث على مثل هذا السلوك ، وهو ليس من أقل : « أنت واقف في الشمس ، إنني أتعاطف معك . كان بودي أن أظلك معي تحت مظلتي لو كانت أكبر من ذلك ، أو لو كانت علاقتنا أعمق من ذلك . وحيث إنني لا أستطيع أن أمنحك ظلاً ، فلا أقل من أن أشاركك هذا العناء » إن مثل هذه الأفعال والتصرفات الطريفة ، والتي ربما تكون أحياناً أكثر غرابة وطرافة ، ليست مجرد تصرفات أو تقاليد ، إنها « التحقق المادي » المتجسد للمشاعر العميقة والرغبة في راحة الآخرين .

وثمة عادة أخرى « مضحكة للغاية » تمليها علينا قواعد آداب السلوك ، ولكن كثيراً من الكتاب المغرمين بكتابة الغرائب عن اليابان يتجاهلون هذه العادة ، أو ينسبونها ببساطة إلى الفوضى العامة أو اللخبطة ـــ التي يتخيلونها عن العقل الياباني . إن كل من لاحظ تلك العادة من الأجانب يعترف بعجزه عن تفسيرها تفسيراً مقنعاً . إن الأمريكي حين يقدم هدية لصديق فإنه يعدد له مزاياها ، وهذا أمر مستقبح في اليابان . إن الفكرة بالنسبة للأمريكي هي : « هذه هدية قيمة ، ولو لم تكن كذلك ما قدمتها لك ، لأنه يكون من قبيل الإهانة أن أقدم لك شيئاً غير قَيِّم أو جميل » . والمنطق الياباني على العكس من ذلك يجري على النحو التالي : « كم أنت طيب وكريم ، وليس في العالم كله هدية تناسب قدرك عندي . إنك لا تقبل ما أقدمه عند قدميك إلا بوصفه رمزاً لمشاعري الطيبة تجاهك ، لذلك أرجو أن تتقبل مني الهدية لقيمتها الرمزية ، لا لقيمتها الحقيقية . سيكون من قبيل الإهانة لقدرك أن أتصور أن أفضل الهدايا تناسب قدرك ومقامك » . ضع الفكرتين جنباً إلى جنب ، وقارن بينهما ، وستجد أن أساسهما في النهاية واحد . ليست إحدى الطريقتين إذن « مضحكة للغاية » ، فالأمريكي يتحدث عن المادة أو المواد التي تتكون الهدية منها ، أو يتحدث عن جانب الهدية المادي ، ولكن

الياباني يتحدث عن الروح الذي يتقمصها .

ولأن إحساسنا بأناقة السلوك يكشف عن نفسه في أصغر التفاصيل في سلوكنا ، فلم يكن غريباً إذن أن نأخذ أقلها أهمية نموذجاً نحلل من خلاله المبدأ ذاته ونقيمه . ما هو الأهم : أن تأكل ، أم أن تراعي القواعد الصحيحة لآداب المائدة ؟ يجيب عالم صيني عن هذا السؤال قائلاً : « في الحالة التي يكون فيها الطعام أكثر أهمية ، وتكون مراعاة قواعد آداب الطعام أقل أهمية لماذا حين تقارن بينهما لا تقول إن الطعام هو المهم ؟ إن المعدن أثقل من الريش ؟ لكن هل معنى ذلك أن رقيقة واحدة من المعدن أثقل من عربة محملة بالريش ؟ خذ قطعة من الخشب في مثل سمك القدم ، وارفعها فوق واجهة معبد ، ولن يقول أحد أبداً إن الخشبة أطول من المعبد » . وبالنسبة للسؤال : « أيهما أهم أن تكون مؤدباً أم أن تكون صادقاً ، فيقال إن إجابة اليابانيين عن هذا السؤال تخالف مخالفة تامة الإجابة التي يطرحها الأمريكيون لنفس السؤال ، غير أني أترك التعليق على ذلك الآن لكي أتحدث عن الإخلاص والصدق .

□□□

الفصل السابع

(الصدق والاخلاص)

الفصل السابع
الصدق والإخلاص

□ □ إن أدب السلوك إذا خلا من الصدق والإخلاص يصبح أُضحوكة ، ويتحول إلى مجرد مظهر سطحي . يقول **ماساموني** : « إن الدقة والأناقة فى غير موضعهما يصبحان أكذوبة » . وثم شاعر قديم تفوق على **بولون** Polonius وذلك فى نصيحته : « كن صادقاً مع نفسك ، وإذا لم تصل إلى الحقيقة الكامنة فى قلبك ، فإن الآلهة رغم ذلك ستحميك وتحفظك دون أن تطلب منها ذلك ولن تكون الآلهة فى حاجة لدعائك وصلاتك » . ولقد عبر **كونفوشيوس** عن مدى تمجيده للإخلاص ، حتى إنه فى « فكرة الوسيلة » Doctorine of the Mean ينسب إلى الإخلاص قوة خارقة تكاد تساوى بينه وبين « المطلق » . يقول : « الإخلاص بداية كل شيء وغايته ، والعالم يفنى إذا خلا من الإخلاص » . ثم يشير بعد ذلك إلى طبيعة الإخلاص الخالدة السرمدية ، ويشير كذلك إلى قدرته على التأثير فى الأشياء دون أن يتأثر هو بها . إن الإخلاص يحقق الهدف منه بمجرد وجوده ودون بذل أي جهد . إن الحرف الصيني (الكانجى) الذي يعني « الإخلاص » مكون من رسم مركب يدل على معني « كلمة » وعلى معني « الكمال » أيضاً ، الأمر الذي يغري بالموازنة بين هذا المفهوم وبين نظرية « اللوجوس » فى الأفلاطونية المحدثة . إلى أي حد حلَّق هذا العالم ، وإلى أي اسماء ارتفع وارتقى فى معراجه الصوفي النادر .

لقد ارتبط الكذب والخديعة فى التراث الياباني بالجبن . وكان **الساموراي** يعتقد أن مكانته الاجتماعية العالية تفرض عليه نمطاً من الصدق والصراحة أرق من صدق التاجر والفلاح . إن مجرد **بوشي يتشي جن** Bushi-no-ichi gon — الكلمة التي تعني **ساموراي** ، أو بترجمة ألمانية أدق Rittervort — كانت تعد ضمانة كافية لصدق الوعد . لقد كانت كلمة **الساموراي** وحدها كافية ، وكان لها من الثقل والوزن مايجعلها وسيلة لعقد الاتفاقيات ولتنفيذها دون حاجة إلى تدوين هذه الإتفاقيات ، بل كان

التدوين يعد انتقاصاً من كرامة **الساموراي** . والقصص التي تروى عن أولئك الذين ضحوا بحياتهم تكفيراً عن عدم قدرتهم على الوفاء بوعودهم أكثر من أن تحصى .

لقد كان الاعتداد بالصدق والإخلاص كبيراً لدرجة أن كثيراً من **الساموراي** كانوا ينظرون للقَسَم بامتهان بوصفه أمراً مخلاً بالشرف ، وذلك على عكس كثير من المسيحيين الذين يخالفون أوامر السيد المسيح ألا يقسموا . نعم إنني على وعي بأنهم ــ **الساموراي** ــ كانوا يقسمون بكثير من الآلهة ، كما كانوا يقسمون على سيوفهم ، ولكنهم أبدا لم يحنثوا في أيمانهم عن عمد ، ولم يستخدموا القسم أبداً بطريقة تقلل من قيمته أو توهن من توقيره واحترامه . لقد كان الختم بالدم تقليداً متبعاً وذلك للتعبير بطريقة حرفية عن صدق تحقيق الوعد . وهنا أحب أن ألفت انتباه **القاريء** إلى شخصية « **فاوست** » عند **جوته** ، وذلك من أجل مزيد من فهم هذا التقليد وتفسيره إن أراد .

يقول أحد كتاب أمريكا المعاصرين ــ وهو بالقطع مسئول عما يقول ــ « إذا سألت مواطناً يابانياً عادياً : أيهما تفضل : الكذب أم أن تكون غير مؤدب ؟ فلن يتردد الياباني في تفضيل الكذب » وصاحب هذا القول ــ د . **بيرى** Peery[1] ــ محق فى بعض قوله ، ومخطيء في بعضه . هو محق في أن المواطن الياباني العادي ــ وكذلك **الساموراي** ــ سيجيب الإجابة التي توقعها ، أي سيفضل الكذب على أن يكون غير مؤدب . ولكن د . **بيري** أخطأ خطأً فاحشاً حين ترجم المفهوم الياباني إلى « الكذب » ، فالكلمة اليابانية uso تدل على أي شيء غير صادق (makoto) أو غير حقيقي (honto) . ولقد تنبه **لويل** Lowele إلى أن الشاعر **ورد زورث** لم يكن يستطيع أن يميز بين الحقيقة fact والصدق truth ، من هذه الزاوية يشبه المواطن الياباني الشاعر **ورد زورث** . سل يابانياً ، أو أمريكياً مثقفاً ، : أهو متضايق من وجودك ، أم أنه يعاني من بعض الآلام في المعدة ؟ ولن يتردد أحدهما طويلا قبل أن يكذب مجيباً : كلا إنني أستلطفك ، أو : شكرا لك فأنا بخير . إن التضحية بالصدق والحقيقة فقط في سبيل الأدب كانت تعد « شكلاً فارغاً KYO- rei » و « خداعاً معسول الكلام » .

---

(1) The Gist of Japan

ومن الضروري الآن أن أناقش فكرة **البوشيدو** عن الصدق والصراحة ، ولعلي لا أخرج عن الموضوع إذا أضفت بعض الملاحظات عن صدق اليابانيين من الزاوية التجارية ، وهى مشكلة قرأت كثيرا من الشكايات عنها في الكتب والصحف الأجنبية . إن أسوأ وصمة لسمعة بلادنا هى تلك الأخلاقيات المرنة الفضفاضة التي يتبناها رجال الأعمال ، ولكن علينا قبل المسارعة بإساءة استخدامها لإدانة المجتمع كله على أساسها أن نناقشها في هدوء . ولاشك أن هذه المناقشة ستؤتي ثمرتها التي تفيد في المستقبل .

لقد استُبعِدَت مهنةُ التجارة دون كل المهن الموجودة في المجتمع استبعاداً تاماً من مجال العمل العسكري . وكانت المهن تُصَنَّف بطريقة تضع التاجر في أدنى الدرجات ، فالفارس يأتي أولاً ، ثم الفلاح ، ثم الصانع ، وأخيرا يأتي التاجر . لقد كانت كل ثروة **الساموراي** تأتي من غلة الأرض ، وكان يمكن له لو أراد أن يمارس فلاحة الأرض على سبيل الهواية ، أما التجارة ــ مهنة العَدِّ وترتيب الأرفف ــ فقد كانت بالنسبة له مهنة ممقوتة . ونحن نعرف الحكمة وراء هذا التصنيف الاجتماعى دون شك ، فقد أوضح **مونتيسكيو** بطريقة جلية كيف أن إقصاء طبقة النبلاء عن أعمال التجارة كان سياسة اجتماعية جديرة بالإعجاب ، وذلك لأنها منعت من تكدس الثروات في أيدى الأقوياء ذوى السلطة . إن الفصل بين الثروة والسلطة ساهم في المحافظة على المساواة النسبية في توزيع الثروة . ولقد نبهنا الأستاذ **ديل Dill** مؤلف كتاب « المجتمع الروماني خلال القرن الأخير للإمبراطورية الغربية »[1] أن أحد أسباب انحلال الامبراطورية الرومانية كان السماح للنبلاء بممارسة التجارة ، الأمر الذي أدى إلى اجتماع الثروة والسلطة في أيدي بعض العائلات القليلة في مجلس الشيوخ .

لذلك لم تزدهر التجارة في اليابان الإقطاعي ، ولم تصل إلى درجة التقدم أو التطور التي كان يمكن أن تحققها في ظروف أكثر ملاءمة . إن عدم الاحترام الذى كان يرتبط باسم « التاجر » انتهى إلى نتيجته الطبيعية من حصر الاسم داخل هذا السياج ، ومن ثم لم يأبه أصحاب الاسم كثيراً بأمر السمعة الاجتماعية . « إذا وصمت إنساناً بأنه

---

(1) Roman Society in the Last Century of the Wostern Empire.

« لص » فإنه لا محالة « يسرق » . يقول **هو بلاك Hug Black** : إذا وصمت اسماً من الأسماء بصفة قبيحة فلا شك أن أصحاب هذا الاسم سيتكيفون مع أخلاقيات هذه الصفة ، إذ من الطبيعي أن يستجيب ضمير الإنسان العادي استجابة سريعة لما يُفْرضَ عليه ، فيسقط بسهولة في إطار النموذج الأخلاقي المتوقع منه » . ولا حاجة بنا لأن نقول إنه لا يمكن ممارسة عمل من الأعمال ــ تجارة أو غيرها من المهن ــ بدون بعض المعايير الأخلاقية . ولا شك أن تجار العصر الاقطاعي في اليابان كانت لهم بعض المعايير الأخلاقية المتفق عليها بينهم ، والتي استطاعوا من خلالها تطوير مهنتهم . لقد استطاعوا ــ وإن بشكل جنيني ــ إقامة بعض المؤسسات التجارية مثل البنوك والبورصة وشيئاً شبيهاً بالنقابة أو الاتحاد ، وكذلك طوروا نظاماً للتأمينات والشيكات وأوراق النقد .. إلخ ، كان لتجار العصر الاقطاعي إذن بعض المعايير الأخلاقية للتعامل فيما بينهم ، ولكنهم كانوا مخلصين جداً ، بل ربما أكثر مما ينبغي ، لسمعة اسمهم السيئة في علاقتهم مع هؤلاء الذين لا ينتمون لمهنة التجارة .

وحين فتحت اليابان أبوابها للتجارة الخارجية ، أو على الأحرى حين أرغمت على فتحها ، سارع المغامرون من التجار وأقلهم صدقاً إلى الموانى ، في حين ظلت البيوت التجارية ذات السمعة الطيبة لفترة طويلة تؤسس فروعاً لها داخل اليابان ، وذلك استجابة للنداءات الملحة من جانب السلطة السياسية آنذاك . والآن لنتساءل : أكان **البوشيدو** عاجزاً عن الصمود في وجه تيار الغش التجاري ؟

يذكر أولئك الذين لهم إلمام بتاريخنا القومي أنه بعد سنوات قليلة من فتح الموانى للتجارة الخارجية جاءت نهاية الاقطاع ، وفقد **الساموراي** نتيجة لذلك كل امتيازاتهم ، ولكنهم في مقابل ذلك منحوا بعض السندات التجارية . وقد يتساءل البعض : لماذا لم يستطع **الساموراي** أن يزرعوا من خلال علاقاتهم التجارية الجديدة فضائلهم المثلى من الصدق والإخلاص ، فيصلحوا من هذا الخلل القديم ؟ إن العيون لم تبك والقلوب لم تَدْمَ بما فيه الكفاية أسفاً على مصير كثير من **الساموراي** النبلاء الأمناء الذين فشلوا فشلاً ذريعاً في مجال التجارة والصناعة الجديدين وغير المألوفين لهم ، وكان فشلهم نتيجة عجزهم التام عن التكيف مع منافسيهم القساة . وإذا عرفنا أن ثمانين بالمائة من البيوت

التجارية قد أصابها الفشل في مواجهة المجتمع الصناعي بالولايات المتحدة ، فلا عجب أن واحداً بالمائة فقط من **الساموراي** الذين مارسوا التجارة بعد انتهاء العصر **الإقطاعي** هم الذين حققوا بعض النجاح في مهنتهم الجديدة . ولاشك أنه سيمر وقت طويل قبل أن نتمكن من معرفة كم من الثروات قد تبدد في محاولة **البوشيدو** ممارسة التجارة طبقاً لمعاييرهم الأخلاقية ، أو محاولتهم تطبيق معاييرهم الأخلاقية في مجال العمل التجارى ، ولكن كان من الواضح البين لكل ذى عقل وبصر أن طريق الشرف ليس بالقطع طريق الثراء . على أى معيار إذن يختلف الطريقان ؟

ثم ثلاثة بواعث للأمانة والدقة والصدق عَدَّدَها **ليكي** Lecky على النحو التالي : الباعث الصناعي والباعث السياسي والباعث الفلسفي . في **البوشيدو** لا نجد للباعث الأول وجوداً على الاطلاق ، وقد تطور الباعث السياسي تطوراً هيناً ضعيفاً في إطار المجتمع السياسي في ظل النظام الإقطاعي في اليابان . أما الباعث الثالث — الفلسفي — فقد كان هو الإطار الذي احتلت فيه الأمانة والصدق أعلى مكانة في قائمة الفضائل عند اليابانيين . ومع كل إحترامي وتوقيري للشرف التجاري الراقي للجنس الأنجلو — **ساكسوني** ، فإنني سُئلت عن الباعث الأساسي الجوهري له ، تكون الاجابة « الأمانة خير سياسة » بمعنى أن **الأمانة** مربحة . أليست هذه الفضيلة جزاء ذاتها ؟ إن **البوشيدو** قد يفضل « الكذب » على « الصدق » لو قلت له : إن الأمانة فضيلة لأنها أكثر تحقيقاً للربح المادي من الكذب .

وفي حين يتقبل التاجر الحصيف أي مقابل تعويضي لخسارته برضاً وسماح ، نجد أن **البوشيدو** يرفض الفكرة تماماً . وقد لاحظ **ليكي** بحق أن فضيلة الصدق والأمانة مدينة في انتشارها ونموها للتجارة والصناعة اليدوية . إن الأمانة فيما يقول **نيتشه** هي أصغر الفضائل سناً وأكثرها شباباً ، أو لنقل بكلمات أخرى إنها ربيبة الصناعة الحديثة التي بدونها تكون الأمانة كاليتيم النبيل لا يتبناه ويرعاه إلا ذوو العقول الرزينة والحكماء . وقد كانت أمثال هذه العقول الرزينة الحكيمة كثيرة عند **الساموراي** ، بيد أن الطفل اليتيم لم يعش طويلاً لأنه كان في حاجة إلى مربية أكثر ديمقراطية وأكثر عملية . وكلما ازدهرت الصناعة فإن الأمانة تثبت أكثر مدى فعاليتها وأهميتها العملية في السلوك . وإذا

عدنا للوراء قليلاً ، إلى عام ١٨٨٠ نجد أن **بسمارك** أرسل خطاباً دورياً إلى القناصل التجاريين للإمبراطورية الألمانية محذراً إياهم من « عدم الثقة المؤسف في الشحنات التجارية كماً ونوعاً » . وفي أيامنا هذه لا نكاد نسمع إلا قليلاً عن عدم اهتمام الألمان وعن عدم صدقهم في التجارة . لقد تعلم التجار الألمان في عشرين سنة أن الأمانة هى التي تربح في النهاية ، وأكتفي هنا بإحالة القارىء لكتابين لكاتبين معاصرين إذا كان يريد أحكاماً دقيقة عن هذا الموضوع[1] . وجدير بالملاحظة في هذا الصدد أن الشرف كان هو الضمان الأكيد الذى يقدمه حتى التاجر المدين في شكل خطاب وفاء ، فقد كان المعتاد تماماً أن تدرج في خطابات الوفاء عبارات من مثل « في حالة عدم سداد المبلغ الذي اقترضته لا اعتراض لي إطلاقا على التشهير بي علناً » أو مثل « في حالة عدم السداد لك كل الحق أن تصمني بصفة « الغبي » .

وكثيراً ما أتساءل عما إذا كان الباعث وراء أمانة **البوشيدو** وصدقه شيئاً آخر سوى الشجاعة ، فقد كان الكذب لا يعد خطيئة ، خاصة في حالة غياب أي نص قانوني يعاقب على « الكذب » أو على شهادة الزور . لقد كان الكذب بكل بساطة يُعَدُّ ضعفاً ، ولذلك فهو جدير بكل احتقار . لقد امتزجت الأمانة امتزاجاً تاماً بالشرف وتوحدت به ، وذلك واضح في اشتقاق الكلمتين المعبرتين عنهما في كل من الألمانية واللاتينية .. وقد حان الوقت لكي نشرح مبررات هذا الترابط بين الأمانة والشرف في عقائد الفروسية عند **البوشيدو** .

□□□

---

(1) Knapp, Feudal and modern Japan, vol. 1, ch., iv. Ransome, Japan in Transition, ch. Viii.

الفصل الثامن
(الشرف)

الفصل الثامن
الشرف

□□ يمثل الشرف بما يتضمنه من معنى الإحساس الحي بالكفاءة والكرامة الشخصية أهم سمات **الساموراي** الذي تربى على أساس احترام امتيازاته وواجبات مهنته . ورغم أن الكلمة التي تعني اليوم « الشرف » لم تكن واسعة الاستخدام آنذاك فإن فكرة الشرف كانت واضحة في إستخدام كلمات مثل nu و men-moku و guai-bun ، الأولى تعني « اسم » بينما تعني الثانية « وجه أو ملامح » ، أما الثالثة فمعناها « ضئيل القدر والسمعة » . وهذا الاستخدام يذكرنا بالاستخدام التوارتى للكلمة « name » كما يذكرنا أيضاً بتطور كلمة Personality عن « القناع » وكذلك تطور كلمة « Fame » إن الاسم الطيب الذي يكوّن سمعة الإنسان والذي هو الجزء الباقي منه وما سواه هو الجانب الحيواني ، هذا الاسم أمر مألوف وطبيعي ، وأي انتهاك لحرمته يعد عاراً . وقد كان الإحساس بالعار من بواكير العواطف التي تلقنها **الساموراي** في مراحل تعليمه الأولى ، فقد كانت عبارات مثل : « لاشك أن هذا يجعلك موضع سخرية » أو : « ياللفضيحة التي تسببها لنفسك » أو : « ألا تخجل من ذلك » « هى العبارات التي تستهدف تقويم سلوك الصبي أو الشاب المعوج » . ولقد كانت مثل هذه العبارات ـ عبارات الانتقاص من الشرف ـ تمس من قلب الطفل أكثر أجزائه حساسية ، كما لو كان قد تشبع فكرة الشرف وهو لا يزال جنيناً في رحم أمه . والحقيقة إن لفكرة الشرف تأثيراً على الطفل قبل ولادته وذلك بحكم ارتباطها الوثيق بالإحساس القوى بالرابطة العائلية . يقول **بلزاك** : « حين تختل الروابط العائلية وتنحل يفقد المجتمع القوة الأساسية التى يسميها **مونتسيكو** الشرف » . ويبدو لي في الحقيقة أن الإحساس بالعار هو المؤثر الأول الدال على الوعي الأخلاقي للأمة . إن أول عقاب تعرض له الإنسان لأكله من « ثمرة الشجرة المحرمة » ـــ وهو أسوأ عقاب في نفس الوقت ـــ لم يكن فيما أظن هو معاناة الولادة وآلامها ، ولم يكن الجوع والعطش ، بل كان في

الحقيقة يقظة الإحساس بالعار . وليس في أحداث التاريخ ووقائعه ما هو أشد إيلاماً وتأثيراً من منظر « **حواء** » وهي تحاول أن تحيك بأصابعها المرتعشة ممسكة بإبرتها البدائية الخشنة ـــ وصدرها يضطرب ـــ أوراق التين القليلة التي جمعها **آدم** الحزين المكتئب من أجل **حواء** لكي تخفي عورتها . وقد التصقت بالإنسان ثمرة هذه المعصية الأولى وتشبثت بوجدانه تشبثاً هائلاً ، ولذلك لم تفلح كل براعة الإنسان في الحياكة حتى الآن أن تصنع له إزاراً يخفي الإحساس بالخجل . لقد كان ذلك **الساموراي** محقاً حين رفض أن يقبل أدنى إهانة يمكن أن توجه إليه في صباه أو شبابه ، وعلل ذلك قائلاً : « إن العار مثل ضربة فأس في جذع شجرة ، يتسع مع مرور الأيام ولا يضيق أو يختفي ».

ومنذ قرون قال **مينشيوس** كلاماً يشبه إلى حد كبير ما قاله **كارليل** : « إن الإحساس بالخجل أو العار هو التربية التي تنبت فيها كل الفضائل ، ومنها ينبع السلوك القويم والأخلاق الحميدة .

لقد كانت خشية العار عظيمة ، ورغم أن أدبنا يفتقد بلاغة مثل تلك التي وضعها **شكسبير** على لسان **نورفولك** Norfolk فقد كان الخوف من العار معلقاً على رأس كل **ساموراي كسيف ديموقليس** Domocles مسبباً له الحزن والاكتئاب . وباسم الشرف كانت ترتكب أعمال يستحيل أن يكون لها في معايير **البوشيدو** مبرر آخر ، فقد كان **الساموراي** المعتز بنفسه وقوته يهاجم خصمه محتكماً للسيف وذلك عند أقل بادرة أو تخيل إهانة . وهكذا ضاعت حياة الكثيرين نتيجة خلافات تافهة لا مبرر لها ، لكنها خلافات أثارها الإحساس بالشرف . إن قصة المواطن الطيب حسن النية تعد نموذجاً لما نقول ، فقد لفت هذا المواطن انتباه أحد **الساموراي** إلى « برغوث » يتقافز على ظهره ، وكانت النتيجة أن شطر **الساموراي** ذلك المواطن نصفين بسيفه ، والسبب بسيط وبديهي ، فقد كان من قبيل الإهانة التي لا تغتفر أن يقارن ذلك المواطن الطيب ـــ بإشارته تلك الساذجة ـــ بين **الساموراي** المحارب النبيل وبين الحيوان الذي تتغذى من دمه الحشرات الطفيلية ومنها « البرغوث » . إن مثل هذه القصص يصعب تصديقها ، ومع ذلك فانتشارها يدل على : إما أنها اخترعت للتهويل على الناس العاديين ولتخويفهم ، واما أن الناس العاديين هم الذين اخترعوها للسخرية من مفاهيم

الساموراي عن الشرف ، أما دلالتها الأهم فهي أنه كان لديهم إحساس حي حاد بالخجل والعار . وليس من العدل أن نستشهد بهذه الأمثلة الشاذة لِنُقَيِّم مفهوم الشرف ذاته ، فذلك يشبه أن نحاكم المسيحية الحقيقية ونقيمها استناداً إلى ما أسفر عنه التعصب الديني ، أو إلى قصص التطرف والتجاوز التي نجدها في محاكم التفتيش ، أو في تلك المظاهر الكاذبة الخادعة للمسيحية . ولكننا كما نجد في التطرف الديني ـــ الذي يقارب الجنون ـــ شيئاً نبيلاً يمس القلب إذا قورن بحركة السكير الهائجة واهتزازاته غير المنتظمة ، ألا يمكن أن نجد أيضا في حساسية **الساموراي** الحادة إزاء كل ما يتصل بالشرف قوام الفضائل المثلى .

إن الطبيعة المَرضِيَّة التي كتب على المعني السامي للشرف أن ينزلق إليها كانت مباديء الشهامة والصبر تخفف منها وتعيدها إلى التوازن بدرجة كبيرة ، لذلك كان الهجوم والثورة لأقل بادرة أو إثارة أمراً محتقراً بوصفه دليلاً على « ضيق الأفق » . وقد كان هناك مثل مأثور يقول : « إن احتمالك ما لا تتصور احتماله هو التحمل الحقيقي » . وقد ترك **أياياسو** Iyeyasu العظيم للأجيال التي تلته بعض المباديء ، منها : « إن الحياة رحلة طويلة يقوم بها الإنسان وعلى كتفيه حمل ثقيل . لا تتعجل في أمورك ولا تلم أحداً ، وكن دائماً على وعي بنقائصك .. التحمل والصبر أساس طول العمر » . ولقد عاش **أياياسو** حياته كلها طبقاً لهذه التعاليم . وهناك طرفة أدبية تُروى على لسان ثلاث شخصيات شهيرة في تاريخنا بعض العبارات ذات المغزى ، تُنسَبُ هذه الحكاية إلى **نوبوناجا** Nobunaga أنه قال : سأقتل العندليب إن لم يغن في موعده ، « وتنسب إلى **هيدايوشي** Hideyosh أنه قال : « سأرغمه على أن يغني لي » . أما **أياياسو** فقد نسبت إليه أنه يقول : « سأنتظره حتى يحرك منقاريه للغناء » .

لقد كان الصبر والقدرة على الاحتمال الطويل من الفضائل التي امتدحها **مينشيوس** مدحاً عظيماً حتى إنه يقول : « لا يضرني أن تهينني وتعلي من شأن نفسك ، فإن إهاناتك لا تستطيع أن تلوث روحي » . ويقول في مكان آخر : « إن الغضب للإهانة التافهة أمر لا يليق بالإنسان العظيم ، والمطلوب هو الغضب للأمور العظيمة . »

إن ما قاله **الساموراي** أنفسهم يعكس لنا مدى ما كان يمكن أن يصل إليه **البوشيدو**

من تواضع ومن حلم وصبر أحيانا إلى حد الخنوع الذي لا يتوافق مع الطبيعة العسكرية . ولنضرب مثلاً ما قاله **أوجاوا Ogawa** : « لا تقابل الشر بالشر ولو أهانك الآخرون وَسَبُّوك بكل أنواع السباب ، بل أظهر لهم أنك لا تهتم بإهاناتهم وسبابهم قدر اهتمامك بواجباتك » . ومثال آخر مما قاله **كومازاوا Kumazawa** إذا لامك الآخرون فلا تلمهم ، وإن غاضبوك لا تغاضبهم ، فالغبطة والسعادة لا تتحقق لك إلا إذا فارقت أهواءك وتخلصت من عواطفك ورغباتك » وثمة مثال ثالث يمكن أن نستشهد به من **سايجو Saigo** ذلك **الساموراي** الذي لا يجرؤ العار أن يقارب « جبينه المتوعد الصارم : « إن الصراط المستقيم هو صراط السماوات والأرض ، ومهمة الإنسان ألا يخرج عن هذا الصراط ، فعليك أن تجعل توقير السماء وتبجيلها هدف حياتك . إن السماء تحبك وتحب الآخرين أيضاً ، لذلك يجب عليك أن تحب الآخرين كما تحب نفسك ، لا تتخذ الإنسان شريكاً بل اجعل السماء شريكك ، وإذا كانت السماء شريكك فابذل كل وسعك . لا تلعن الآخرين أبداً ، بل تأكد من أنك غير مقصر في أداء ما عليك من واجب . » قد تذكرنا بعض هذه الأقوال ببعض المحاورات والنصائح المسيحية ، وتكشف لنا إلى أى مدى يمكن أن يقترب الدين الطبيعى من الدين السماوى ويساويه في مجال الأخلاق العملية . ولم تكن هذه الأقوال مجرد عبارات وألفاظ ، ولكنها تجسدت بالفعل في أعمال واقعية .

ولابد من الاعتراف بأن قليلين هم الذين وصلوا إلى تلك الدرجة من الصبر والحلم والقدرة على الصفح والغفران . ومن المؤسف حقا ألا نجد في التراث ما يكشف لنا عن أصول فكرة الشرف أو عن مكوناتها ، ولكن بعض العلماء كان على وعي أن الشرف « يوجد بلا شرط » وبأنه كامن في سلوك كل من يؤدي واجبه على الوجه الأكمل ، إذ لم يكن أسهل على الشبيبة من أن ينسوا في غمار أفعالهم وحدة احتكاكاتهم ما سبق لهم أن تعلموه في لحظات الهدوء من أقوال **مينشيوس** . يقول هذا العالم : « إن حب الشرف كامن في قلب كل إنسان ، ولكن قليلين هم الذين يدركون أن ما هو جدير بالشرف حقاً موجود داخل نفوسهم لا خارجها . إن الشرف الذي يسعى وراءه الرجال ليس هو الشرف الحق ، وهؤلاء الذين كرمهم **تشو Chao** يمكن أن يحط من

قدرهم ويحقرهم مرة أخرى » . ورغم ذلك فكثيراً ما كانت أدنى إهانة تثير الاستياء والغضب السريع ، ثم يكون الموت عقابها كما سنرى فيما بعد . أما الشرف ــ الذى لم يتجاوز بدوره إطار الخيلاء والزهو الدنيوي ــ فكان أسمى منزلة في منازل الوجود الدنيوي . لقد كانت الشهرة هي الغاية القصوى التي يسعى وراءها الشباب دون الثروة أو العلم والمعرفة . وقد كان كثير منهم يقطع على نفسه عهداً ــ وهو يعبر عتبة منزل والديه ــ أنه لن يعود إلى عبورها أبداً إلا بعد أن يحقق لاسمه شهرة في العلم . وكانت كثيرات من الأمهات الطموحات يرفضن رؤية أبنائهن مرة أخرى إلا « إذا عادوا يرفلون في الثياب المطرزة بالقصب » . ولم يكن أبناء **الساموراي** يبالون بشيء في سبيل محو العار واجتلاب الشهرة ، ولو كلفهم ذلك كثيراً من الصعوبات والمعاناة والمتاعب الجسدية والذهنية . لقد كانوا يعرفون أن الشرف الذى يكتسبه الإنسان ، والسمعة التي يحققها في شبابه ينموان مع تقدمه في العمر . وفي حصار **أوساكا** كان الابن الأصغر **أياياسو** في مؤخرة الجيش رغم رغبته القوية وحرصه على أن يكون في المقدمة ، وكان الفتى يبكي بكاءً حاراً حين سقط الحصن ، وحاول أحد القادة أن يخفف من حزنه ويواسيه بكل الطرق الممكنة ، فقال له : « مهلا سيدي ، إن المستقبل ممتد أمامك وكم من الفرص سيتيحها لك العمر لكى تبرهن على شجاعتك » . ولكن الفتى ركز نظراته الخابية على وجه الرجل وقال : « ما أغبى كلماتك ! هل أعود مرة أخرى إلى سن الرابعة عشرة » . لقد كانت الحياة نفسها رخيصة إذا كان الشرف والشهرة هما الغاية ، وحيثما سنحت الفرصة أو القضية التى تعد نادرة من حيث الشرف الذي تمنحه ، كان **الساموراي** يضحي بحياته بكل بساطة وقوة وإخلاص .

وكان واجب الولاء والإخلاص للسيد يعد من الواجبات التي تعد الحياة إلى جوارها لا قيمة لها ، لقد كان هذا الواجب الذي كم ضحى **الساموراي** حياتهم من أجله هو حجر الزاوية في بناء الفضائل الإقطاعية .

الفصل التاسع
(واجب الولاء)

الفصل التاسع
واجب الولاء

□ □ تشارك الأخلاقيات الإقطاعية النظم الأخلاقية المرتبطة بالطبقات الأخرى كثيراً من خصائصها ، ولكن خصيصة الإخلاص والولاء التام للسيد تمثل ملمحها الأساسي المميز . ولاشك أن الإخلاص والولاء الشخصي عقيدة أخلاقية موجودة عند كل البشر في كل الظروف ، فعصابة النشالين مثلا تخلص الولاء لزعيمها . ولكن عقيدة الإخلاص والولاء لا تكتسب أهميتها القصوى إلا في النظام الأخلاقي للفروسية .

ولقد انتقد **هيجل**[1] عقيدة الولاء في المقاطعات الإقطاعية ، وذلك على أساس أنه ولاء تجاه شخص بعينه لا تجاه المصلحة المشتركة ، وهو — من ثم — رابطة تقوم على أساس مبدأ غير عادل على الإطلاق . ولكن أحد مواطني **هيجل** العظام تفاخر بأن الولاء فضيلة ألمانية . وقد كان **بسمارك** محقاً في هذا التفاخر ، لا لأن الإخلاص الذي افتخر به حكر على وطنه أو مقصور على شعب أو جنس ، بل لأن هذه الثمرة الطيبة من ثمار الفروسية قد إمتدَّ أمدُها وطال عند الشعوب التي طال أمد الإقطاع فيها . وقد تكون هذه الأفكار التي نحترمها ونعلي من شأنها — عن الإخلاص والولاء الذي نحسه إزاء حكامنا — من وجهة نظر الأمريكان — حيث « كل إنسان مساوٍ للآخر » و « أفضل أيضا » كما يمكن أن يقال — « ممتازة في حدود معينة ». ولكنها منافية للعقل والمنطق بالطريقة التي توجد بها بيننا نحن اليابانيين . ومنذ زمن طويل شكا **مونتسكيو** من أن الحق يختلف من مكان إلى مكان ، فما هو حق في أحد جانبي جبال البرانس يكون باطلاً في جانبها الآخر ، بمعنى أن ما هو حق في فرنسا قد يكون باطلاً في أسبانيا والعكس صحيح . وقد أثبتت محاكمة **دريفوس Dreyfus** الأخيرة صدق هذا الرأي ، هذا بالإضافة إلى أن جبال **البرانس** لم تكن الحدود الوحيدة التي تحدد معايير العدالة

---

(1) Philosophy of History (Eng. tran. by Sidree), pt. iv., sec.

الفرنسية وتحصرها . وقد يكون للإخلاص كما نفهمه أيضاً قليل من المعجبين في أماكن أخرى . وليس سبب هذه القِلَّة أن مفهومنا عن الولاء خاطيء ، بل السبب أنها فضيلة أخشى أن أقول إنها نُسيت ، هذا إلى جانب أننا نمارسها بطريقة لا تُمارس بها في بلد آخر . وقد كان جريفز Griffis[1] محقاً حين قرر أن الواجبات الإنسانية في اليابان هي الإخلاص والولاء ، في حين جعلت الأخلاق الكونفوشيوسية طاعة الوالدين هي الأساس الأول . ورغم أن ما يقال هنا قد يصدم بعض القراء الطيبين فسأحكي قصة « خادم استمر في خدمة سيده الذي أذلته الظروف والمقادير » ، وبذلك استحق دور البطولة في القصة كما يؤكد شكسبير .

إنها قصة واحد من أعظم الشخصيات في تاريخنا ، قصة ميتشيزاني Michizane الذي انتهى به الأمر إلى أن يُطَرد من العاصمة بسبب غيرة أعدائه وحسدهم له . ولم يكتف الأعداء بذلك بل سعوا للقضاء التام على عائلته وأسرته . وقد أسفر بحثهم المستمر الدؤوب عن ابنه الذي لم يكن قد يتجاوز مرحلة الصبا الباكر إلى العثور عليه في إحدى المدارس بإحدى القرى الصغيرة . وكان يدير المدرسة أحد الجنزو Genzo من أتباع ميتشيزاني السابقين . وحين تلقى مدير المدرسة أوامر بإرسال رأس الطفل المذنب في يوم بعينيه كانت الفكرة التي سيطرت على ذهن هذا الرجل أن يجد بديلاً مناسباً لابن سيده يرسل برأسه إلى المطالبين بها . وبدأ يستعرض تلاميذ مدرسته بعين فاحصة أثناء دخولهم قاعات الدرس ، ولكنه لم يجد بينهم من يشبه الطفل المطلوب . ولكن يأسه لم يَطُل أكثر من دقيقة حيث لاحظ أن ثمة طفلاً جديداً وفد إلى المدرسة ، طفلاً وسيماً ــ من نفس عمر ولد سيده ــ مصحوباً بأم نبيلة الملامح .

ولم يكن الطفل الجديد والأم أقل إدراكاً للتشابه مع الطفل المطلوب في المدرسة ، فقد اتفق كلاهما في البيت سراً على التضحية . يضحي الطفل بحياته بينما تضحي الأم بقلبها ، وذلك في سرية تامة وهدوء خالص دون أدنى بادرة أو إشارة قد ينكشف بها الأمر خارج البيت ، ودارت نفس الفكرة برأس صاحب المدرسة ، الذي لم يكن يدري

---

(1) Religions of Japan.

بالطبع شيئاً عن اتفاق الأم وطفلها .

ها هو إذن كبش الفداء ، وتدور القصة باختصار على النحو التالي : في اليوم الموعود حضر الضابط الموكل باستلام الرأس والتعرف عليها ، أيمكن للضابط أن ينخدع بالرأس المزيف ؟ لقد كانت يد جنزو المسكين على مقبض سيفه استعداداً أن يقتل الضابط أو أن يقتل نفسه فى حالة فشل الخطة . ولكن الضابط أخذ الشيء الرهيب ، وبهدوء تأمل الملامح ، ثم أعلن بنبرة عملية مقصودة أنها هي الرأس المطلوبة . وفى المساء كانت الأم التي اصطحبت الطفل البديل إلى المدرسة تنتظر في البيت الصامت . ترى هل تدري بمصير ولدها ؟! إنها لم تكن بالقطع في انتظار عودته وهي تنظر بقلق بالغ إلى الباب الصغير متوقعة انفتاحه . لقد كان حموها واحداً من رعايا ميتشيزاني وأتباعه الذين كان يرسل لهم بانتظام ولفترة طويلة بعطاياه ، ورواتبه السخية . ودفعت الظروف زوجها منذ طَرْدِ ميتشيزاني واختفائه إلى الالتحاق بخدمة أعداء عائلة السيد المُحْسِن . ولأنه الزوج لا يستطيع ألا أن يكون مخلصاً لسيده الجديد القاسي فقد وقع العبء على الطفل الصغير لكي يقدم شيئاً في سبيل سيد جده . وكان الأب هو الضابط الذي أُسْنِدَت إليه مهمة التعرف على رأس الصبي المطلوب بحكم علاقته السابقة بالعائلة التَّعِسة . وهاهو الآن عائد إلى بيته بعد أن أنهى عمل اليوم ، بل عمل الحياة . وسمع زوجته تهتف به وهو يعبر عتبة الباب : « ابتهج يازوجي فقد أثبت طفلنا أنه قادر على خدمة سيده . » .

وأكاد أسمع صيحات بعض القراء ، « ياللفظاعة » ! أيضحي أبوان هكذا بحياة طفلهم البريء لإنقاذ حياة طفل آخر ! « ولكن هذا الطفل لم يكن ضحية مُرْغَمة ، بل كان ضحية واعية راضية . إنها قصة الفداء ، وهي تحمل نفس المغزى الذي تحمله قصة إبراهيم (عليه السلام) حين همَّ بالتضحية بإسماعيل ، كما أنها تثير نفس الإشكالات التى تثيرها القصة الدينية . كانت الطاعة في كلتا الحالتين طاعة لنداء الواجب ، وكانت خضوعاً تاماً يأمر به النداء الأسمى ، سواء كان هذا النداء صادراً من قوة مرئية أو غير مرئية ، وسواء كان هذا النداء نابعاً من الداخل أم مسموعاً من الخارج . ولا أتوقف عند هذا الحد خشية الإسترسال في الوعظ والخطابة .

إن فردانية الغرب ، تلك الفردانية التي تؤمن باستقلال مصالح كل من الأب والابن ،

والزوج والزوجة ، تتخفف إلى حد كبير من عبء الواجبات التي يدين بها أطراف هذه العلاقات إزاء الأطراف الأخرى . ولكن **البوشيدو** يؤمن أن مصلحة العائلة ومصلحة كل فرد من أفرادها من ثم شيء واحد لا ينفصل في الحقيقة . وهي مصلحة تقوم على روابط الحب والمودة ، الحب الطبيعي الغريزي الذي يستحيل مقاومته . ما الغرابة إذن أن يموت الإنسان في سبيل من يحبه ذلك الحب الطبيعي ، (وتلك على أى حال خليقة من خلائق الحيوان .) « إذا لم تحب إلا من يحبك ، فأي فضل لك ؟ أليس ذلك من شيمة التجار والباعة ! »

ولقد عبر **سانيو Sanyo** في تاريخه الكبير بلغة مؤثرة عن ذلك الصراع الداخلي الذي عاناه **شيجيموري Shigemori** ازاء سلوك أبيه المتمرد حيث قال : « لو نظرت من خلال ولائي لسيدي لرأيت أبي مُخَرِّباً ، ولو أطعت أبي وتبعته ، لذهب ولائي لسيدي سدي » **بالشيجموري** المسكين ! كم كان يتوسل بكل نفسه وروحه ضارعاً إلى السماء أن تريحه من هذا العناء بالموت ، بمفارقة هذا العالم الذي يصعب على الإنسان أن يعيش فيه محتفظاً بطهارته ونقائه .

وكم من **شيجموري** تمزقت نياط قلوبهم في ذلك الصراع بين العاطفة والواجب . أن مفهومنا لعاطفة الولاء ko لا نجد تعبيراً كاملاً عنه سواء في العهد القديم أو عند **شكسبير** . ففي مثل هذا الصراع بين العاطفة والواجب لا يتردد **البوشيدو** أبداً في اختيار الولاء . ونساؤنا يشجعن أطفالهن على التضحية بكل شيء في سبيل الإمبراطور . وكم كانت زوجة **الساموراي** على أهبة الاستعداد لتضحي بأبنائها في سبيل الولاء والإخلاص ، شأنها في ذلك شأن **ويدو ويندهام Wido winham** وأمثالها في تصميمهن .

لقد فهم **البوشيدو** ، كما فهم **سقراط** وبعض علماء الاجتماع المعاصرين ، أن الدولة أسبق من الفرد وأهمّ ، وفهم أن الفرد يولد في الدولة بوصفة جزءاً صغيراً منها ، وعليه من ثم أن يموت ويحيا من أجلها ومن أجل استقرار سلطتها الشرعية . إن من قرأ **كريتو Crito** لابد أن يتذكر ذلك الجدل الذي يتخيل **سقراط** فيه أن قوانين الدولة ومؤسساتها تناقشه حول موضوع هروبه من السجن يقول **سقراط** على لسان الدولة : لقد نشأت وترعرعت وتعلمت في ظلي ، فكيف تجرؤ على إنكار أبوتي لك وسيادتي

عليك وعلى أبويك من قبل . » هذه الكلمات ليست غريبة على آذاننا نحن اليابانيين ، وهي من ثم لا تفاجئنا ولا تُدهشنا ، فقد قال **البوشيدو** مثلها منذ زمن بعيد ، مع فارق هو أن الدولة والقوانين تتمثل عندنا في شخص واحد . وليس الولاء إلا محصلة أخلاقية لهذه النظرية السياسية .

إنني بالطبع على وعي بوجهة نظر السيد **سبنسر** الذي يرى أن الطاعة السياسية ــ الولاء ــ مرهونة بوظيفة مؤقتة انتقالية [1] ــ ولعل الأمر كذلك بالفعل ، ولعلها تقتصر على يوم واحد فقط ، ولكننا قد نعود إليها مرة أخرى ونتبناها عن رضا وطيب خاطر . ويعتقد اليابانيون أن « اليوم » فترة طويلة من الزمن ، من خلاله ــ فيما يقول نشيدنا القومي :ــ « يستحيل الحصى الصغير إلى صخور ضخمة مكسوة بالطحالب » .

وعلينا في هذا السياق أن نذكر أنه حتى بين الشعوب الديمقراطية نفسها وعلى رأسها الشعب الإنجليزي « انتقلت عاطفة الولاء من أن تكون ولاء لشخص أو لذريته ــ وهي العاطفة التي كان يُكنها أسلافهم الجرمانيون لرؤسائهم ــ إلى أن تكون ولاءً عميقاً للدم والجنس كما يتجسدان في الدولة والأمراء الذين يُكِنُّ لهما الإنجليز ولاءً ملحوظاً » فيما يقول مسيو **بوتمي Boutmy** » .

ويتوقع السيد **سبنسر** أن ينتهي الخضوع السياسي إلى أن يُقْصِر دور الولاء على الخضوع لما يمليه الضمير به فقط ، ولنفترض أن توقعه صحيح ، فهل معنى ذلك أن الولاء ــ وما يرتبط به من عاطفة التقدير والاحترام ــ سيزول إلى الأبد ؟ إن الولاء ينتقل من الولاء لسيد إلى الولاء لسيد آخر ، دون أن يعني ذلك أي خيانة لأحدهما ، فنحن نكون رعايا حاكم يستولي على تقاليد السلطة الزمنية ، ثم نصبح خدماً للمليك الذي يتربع متوجاً في حشايا قلوبنا[٢] ولقد ثار منذ سنوات قليلة خلاف عقيم بين أتباع **سبنسر** المتعصبين ، أدى إلى حالة من الفوضى والاضطراب بين المثقفين اليابانيين . لقد أتهم هؤلاء الأتباع المسيحيين بالشروع في الخيانة على أساس أن ولاءهم للسيد المسيح

---

(1) Principles of Ethicsm vol. 1, Phii. ch. x.

(٢) يقصد الكاتب « السيد المسيح » كما سيتضح بعد ذلك .

يتناقض مع مفهوم الإخلاص التام والولاء الكامل للعرش . وأثاروا جدلاً يبدو عليه طابع الفكر ، وهو في حقيقته جدل عقيم ، وجعجعة فارغة خالية من البرهان العلمي . إنهم لا يدركون أبداً أن الانسان يمكن « أن يخدم سيدين دون أن يقلل ولاءه لأحدهما من ولائه للآخر ويتجاهلون أن الإنسان يمكن أن يعطي مالله لله ومالقيصر لقيصر » ألم يرفض **سقراط** رفضاً حاسماً أن يتنازل عن ذرة واحدة من ولائه لإلٰهه ، ولكنه في نفس الوقت ، وبنفس الإخلاص والولاء ، أطاع أوامر الدولة ، السيد الأرضي ! لقد أطاع **سقراط** ضميره حياً ، وخدم وطنه بالموت . وما أبعد اليوم الذي تصبح الدولة فيه قوية إلى أحد أن تعتمد في طاعة رعيتها على ما تمليه عليهم ضمائرهم .

ولا يطلب منا **البوشيدو** أبداً أن نجعل من ضمائرنا عبيداً لأى ملك أو سيد . كان **توماس موبراى** Thamars mowbray يُعَبِّر عنا بصدق حين قال :

تحت قدميك أيها الحاكم الجبار أُلْقي بنفسي
تستطيع أن تأمر بقتلي ، ولكنك لا تستطيع أن تلوثني بالعار
لك عليّ حقُ الواجب ، ولكنّ اسمي
الذي سيظل رغم الموت مكتوباً فوق قبري
لن أسمح لك أن تلوثه بالخزي الأسود

إن من يضحي بضميره من أجل الإرادة المتقلبة للحاكم ، أو من أجل نزواته ، وأهوائه ، هو من منظور الأخلاق إنسان ساقط . لقد كان **البوشيدو** ينظر باحتقار لمثل هذا الإنسان ، على أساس أنه إنسان مزور nei- shin يبني بالتملق المقيت قصراً ، أو على أساس أنه مريض cho- shin يستولى على حب سيده بالإذعان الذليل . وهذان الصنفان من البشر يتماثلان تماثلاً تاماً مع النمطين اللذين وضفهما **أياجو** : أحدهما وغد مذعن ، يحبو على ركبتيه مدللاً على عبوديته وخنوعه ، يضيّع ـــ كالحمار ـــ وقت سيده . والآخر يبدو من حيث الظاهر متفانياً في خدمة سيده ، ولكنه في الحقيقة غائب القلب عنه ، مشغول بنفسه وبشئونه . وحين يختلف التابع مع سيده يحتم عليه ولاؤه له أن يحاول بكل الطرق الممكنة أن يمنع سيده من الخطأ ، كما فعل **كينت** مع الملك لير ، وإذا فشل في ذلك فليترك السيد يفعل به ما يشاء . ولقد كان الأمر الطبيعي

المعتاد بالنسبة **للساموراي** في مثل هذه الظروف أن يتوجه لذكاء سيده ولضميره بنداء أخير ، وذلك بأن يقتل نفسه إثباتاً لإخلاصه وصدق ولائه .

وإذا كانت الحياة بأسرها مجرد أداة لخدمة السيد ، وفي تحقيق الشرف واكتسابه يتمثل اسمى درجات الوجود ، فقد كان كل ما تَلقّنه **الساموراي** من تعليم ، وكل ما ثقفه من تدريب ، يهدف إلى تحقيق هذه الغاية .

□□□

الفصل العاشر

(تعليم الساموراي وتدريبه)

الفصل العاشر

تعليم الساموراي وتدريبه

□ □ لقد كان أهم جانب في تعليم الفروسية هو بناء الشخصية ، على حين كانت الأمور الدقيقة كالملكات العقلية والذكاء والجدل المنطقي ، تحتل مكانة ثانوية . ولقد سبق أن أشرنا إلى المكانة الهامة التي تحتلها الإنجازات الجمالية والفنية في عملية تعليم **الساموراي** وبالرغم من أن تلك الأمور العقلية الدقيقة لا يمكن لأي متعلم أن يتجاهلها فإنها كانت بالنسبة **للساموراي** مجرد زينة ، ولم يمثل تعليمها جانباً هاماً في تكوينه وتدريبه ، وقد كان للتفوق الذهني والعقلي تقديرٌ بالطبع ولكن كلمة chi — التي كانت تستخدم للدلالة على حدة الذهن — كانت في بدء استخدامها تعني « الحكمة » ، وكانت المعرفة العقلية تعد بالنسبة لها أمراً ثانوياً . لقد كانت المفاهيم الثلاثة التي تدعم الإطار (الأخلاقي) **للبوشيدو** هي الحكمة chi والرأفة jin والشجاعة yu ، وكان **الساموراي** أساساً رجل الفعل والعمل والحركة ، ولم يكن العلم — بمعني المعرفة العقلية التحصيلية — داخلاً في نطاق نشاطه . وكان **الساموراي** يكتفي من العلم بما يفيده في مهنته العسكرية . لقد كان الدين والعقيدة أمراً من اختصاص الكهنة ، وإنما يهتم **الساموراي** منه بالجوانب التي تؤجج فيه قيمة الشجاعة . لقد آمن **الساموراي** — مثل ذلك الشاعر الإنجليزي — « أن العقيدة ليست هي التي تساعد الإنسان على الخلاص ، بل الإنسان هو الذي يعطي للعقيدة مبرر وجودها . » لقد كان الأدب والفلسفة جزءاً أساسياً من التدريب العقلي **للساموراي** ، ولكنه لم يكن في درسه لهما يبحث عن الحقيقة الموضوعية . لقد كان الأدب بالنسبة **للساموراي** مجرد تزجية لوقت الفراغ ، أما الفلسفة فكانت تمثل عاملاً في تكوين شخصيته ، عاملاً يساعده على فهم بعض المشكلات العسكرية أو السياسية وعلى حلها .

وعلى ذلك فلم يكن من الغريب أن يسير نهج الدراسة من منظور **البوشيدو** على الترتيب التالي : المبارزة ، والرماية ، ومصارعة الجودو **jiujutsu or yawara** وركوب

الخيل ، ورمي الرمح ، والتكتيك ، والكتابة بالريشة ، والأخلاق ، والأدب ، والتاريخ .
وقد يحتاج الجودو والكتابة بالريشة ــ دون غيرهما ــ بعض الشرح والايضاح . في ثقافتنا اهتمام عظيم بجودة الخط وحسنه ، ولعل السبب في ذلك أن حروفنا ، أو رموزنا الخطية الكتابية الدالة ــ وهي ذات طابع تصويري غالباً ــ تتحلى ببعض القيم الجمالية ــ ويضاف إلى ذلك أن الخط يدل ــ في ثقافتنا ــ على شخصية الكاتب .
أما الجودو فيمكن تعريفها بأنها نوع من المصارعة يعتمد على تطبيق المعرفة التشريحية في حالتي الهجوم والدفاع . إنها تختلف عن المصارعة العادية **wrestling** في أنها لا تعتمد على القوة البدنية ، كما تختلف عن غيرها من أنواع القتال في أنها لا تستعين بأي سلاح . إنها تعتمد في الغلبة على اكتشاف جزء ضعيف في جسد الخصم والإمساك به أو ضربه بطريقة تؤدي إلى فقد الوعي والإحساس ، وبالتالي تجعل الخصم غير قادر على المقاومة . إن غايتها ليست القتل ، بل غايتها التعجيز المؤقت عن الحركة .

ومن العلوم التي كنا نتوقع وجودها في التعليم العسكري ، والتي يشير غيابها من تعليم **البوشيدو** بعض الشكوك ، الرياضيات . لكن هذا أمر يمكن تعليله تعليلاً جزئياً على أساس أن الحروب الإقطاعية لم تكن تخضع في التنفيذ للدقة العلمية المتوهمة . وعلاوة على ذلك فلم يكن **الساموراي** يستسيغ العمليات الحسابية ، ولم يكن تدريبه من ثم يشجع تعليم الرياضة .

ليس بين الفروسية والاقتصاد أى تآلف . أنها تعد « الفقر المدقع » أحد مفاخرها ، وهي لذلك تتفق مع **فِنْتيديس** **ventidius** حيث يقول :

« إن الطموح ــ الذي هو فضيلة الجندي المحارب ــ قد يختار الخسارة على الكسب الذي يُشَوِّه الشرف أو ينتقص منه ، » ولذلك كان **دون كيخوته** يثق في حصانه الهزيل وفي رمحه الضعيف أكثر من ثقته في الذهب والأرض ، ولاشك أن **الساموراي** يتعاطف أعمق التعاطف مع تآلف **دون كيخوته** ــ المبالغ فيه ــ مع **لامانشا** . إن **الساموراي** يزدري المال ويحتقر طرائق جمعه واختزانه ، إذ كل ذلك بالنسبة له كسب شائن قبيح . إن التعبير الذي أصابه الابتذال من كثرة التكرار وهو ذلك الذي يصف عصراً بالاضمحلال على النحو التالي : « عصر يحب الناس فيه المال ويخشى الجنود فيه من

الموت . » لقد أثار البخل بالمال وبالحياة من الاستهجان والهجاء مثل ما أثاره السخاء بهما من مديح ، وتقول إحدى الحكم الشعبية : « ما أحرى الناس أن يحتقروا المال أكثر من أي شيء آخر ، فالأثرياء هم الذين يتسببون في ضياع الحكمة » . وهكذا كان أطفالنا يتربون على مقت كنز المال . كان الحديث في الشئون المالية دليلاً على سقم الذوق وانعدامه ، وكان الجهل بقيمة أنواع العملات دليلاً على حسن التربية . لم يكن ثمة مناص من العلم ببعض « الحساب » بحكم أهميته في توزيع الرواتب والإقطاعيات ، وبحكم أهميته أيضاً في عمليات حشد القوات في الحروب . ومع ذلك فقد كان أمر التعامل المباشر في الشئون المالية يترك للناس العاديين . وكان الذي يشرف على الشئون المالية العامة في كثير من الإقطاعيات **ساموراي** من طبقة أدنى ، أو كان أمر ذلك يسند لبعض الكهنة . ولا شك أن أي **ساموراي** عاقل يدرك يقينا أن المال عصب الحرب ، ولكنه أبداً لم يرفع قيمة « احترام المال وتقديره » إلى مستوى أحد الفضائل . ولقد استمتع **البوشيدو** حقاً بالقوة والعافية ، ولكن قوته وعافيته لم تكن نابعة من رفاهية اقتصادية ، بل كانت نابعة من التعود على الخشونة والتقشف . لقد آمن **البوشيدو** أن حياة الرفاهية تمثل تهديداً لخشونة الرجل ، وكانت البساطة المتناهية في الحياة هي أهم مطالب هؤلاء الرجال المحاربين ، حتى إنه فرضت في كثير من الجماعات والإقطاعيات قوانين خاصة بالإنفاق .

إننا نقرأ أن الملتزمين والقائمين على الشئون المالية في روما القديمة كانوا يترقون تدريجياً حتى يصلوا إلى مرتبة الفرسان . وهكذا كانت الدولة تعبر عن تقديرها لخدماتهم وعن عرفانها كذلك لأهمية المال ذاته . ولاشك أن مثل هذا التوجه يتلاءم مع ما اشتهر به أهل روما من رفاهية وحب المال . ولكن الأمر لم يكن كذلك في معتقدات الفروسية ومفاهيمها ، إذ كانت تصر على وضع الشئون المالية في مرتبة أدنى تنظيمياً من حيث علاقتها بالمعايير والقيم الأخلاقية والعقلية .

إن هذا التجاهل الصارم للمال وحبه قد حرر **البوشيدو** لمدة طويلة من آلاف النقائص والعيوب التي يسببها التعلق بالمال . وهذا وحده كاف ليفسر لنا ابتعاد رجال السلطة في بلادنا ولمدى طويل عن التورط في الفساد . ولكن ما أسرع ما وجدت حكومة

الأثرياء للأسف طريقها إلى السيطرة على بلادنا في جيلنا هذا ووقتنا هذا .

ان الانضباط الذهني والدقة العقلية التي يكتسبها الإنسان من دراسة الرياضيات — هذه الأيام — كان **الساموراي** يحققها من خلال المناقشات والشروح الأدبية والأخلاقية . أما المسائل التجريدية — التي كان الغرض من تعليمها لهم كما سبقت الإشارة مجرد صقل الشخصية — فلم تكن تحتل من تفكيرهم مكانة كبيرة . ولم يكن الذين يجعلون من عقولهم مجرد مخزن للمعلومات يتمتعون بكثير احترام من جانب **البوشيدو** . ومن بين الأهداف الثلاثة التي حددها **بيكون** للدراسة والتحصيل — وهي المتعه والوجاهة والكفاءة — يفضل **البوشيدو** الهدف الثالث ، وذلك للدور الذي يلعبه في « الإنجاز والحسم في الممارسة العملية » . وسواء كانت تلك الكفاءة « توظف في الممارسة الفعلية للعمل ، أو كانت ذات غاية عملية ، انطلاقا من قاعدة أن التعليم قرين العمل . يقول **كونفوشيوس** : « التعليم بلا عمل جهد ضائع ، والعمل بلا تعليم خطر » .

حين يكون الموضوع الذي يهتم به المعلم ويثقفه وينميه هو الشخصية لا مجرد العقل ، وهو النفس لا الرأس فإن مهمته تكتسب قداسة خاصة إلى حد كبير . « إذا كان أبي هو الذي أنجبني فإن المعلم هو الذي صنع مني رجلاً » من هذا المنطلق كانت مكانة المعلم عند **البوشيدو** مكانة راقية سامية . والإنسان الذي يكن له الشباب كل هذا الاحترام وكل هذه الثقة لابد أن يكون قد تربى على يدي من هو أسمي منه وأعلى مكانة دون أن يعني ذلك أى نقص في مهارته أو معرفته . كان المعلم بمثابة الأب لمن لا أب له ، وكان بمثابة الناصح والهادي لمن يضل السبيل . وهناك مثل يقول : « إن أباك وأمك كالسماء والأرض ، أما معلمك وسيدك فهما كالشمس والقمر . »

لم يكن للنظام الحديث — الذي يدفع الإنسان فيه مقابلاً لكل ما يتلقى من خدمات — وجود بين أتباع **البوشيدو** الذين آمنوا بقيمة تقديم الخدمات دون مقابل مادي ، كانت الخدمات الروحية التي يقدمها الكهنة والمعلمون لا تقابل بذهب أو فضة ، لا لأنها كانت بلا قيمة ، ولكن لأن قيمتها تتجاوز كل تقدير . من هذا المنطلق كان الإحساس الفطري بالشرف الذي يخضع للمساومة يلقن حامله دروساً أعمق وأكثر

صدقاً من تلك التي يتعلمها الإنسان من علم الاقتصاد السياسي .
يتعلم الإنسان أن كل ما يمكن تعويضه من خدمات ـــ سواء بالأجر أو المرتب ـــ إنما هي خدمات ذات عائد محدود قابل للقياس والتقدير ، أما تلك الخدمات التي تقدم من خلال عملية التعليم ـــ وهي أفضل الخدمات على الإطلاق لأنها تهتم أساساً بتهذيب النفس ـــ (ويدخل فيها خدمات رجال الدين) فهي خدمات ذات عائد غير محدد وغير قابل للقياس أوالتقدير ، وعلى ذلك يكون المال ـــ المقياس المزعوم للقيمة ـــ إزاءها مقياساً بلا قيمة وبلا فائدة . إن الطلاب ـــ استناداً إلى العرف والعادة ـــ يقومون بتقديم بعض الهدايا والأموال لمعلميهم خاصة في مواسم الحصاد في فصول السنة المختلفة ، ولكن هذه الأموال والهدايا ليست أجوراً . لقد كانت هدايا يتلقاها المعلمون بكل ترحاب ، إذ كانوا عادة رجالاً ذوي طبيعة صارمة متقشفة ، يتباهون دائماً بفقرهم الشريف المدقع ، ولكن كرامتهم ومكانتهم لم تكن تسمح لهم بمزاولة الأعمال اليدوية أو التكفف . لقد كان هؤلا المعلمون تجسيدا حياً للروح السامية التي لا تنال منها المحن ولا تؤثر فيها الخطوب . كانوا تجسيداً لكل ما نعتبره اليوم خلاصة العلم وثمرة المعرفة . كانوا من ثم نماذج حية لضبط النفس ، علم العلوم الذي كان غاية ما يسعى إليه الساموراي ويطمح .

□□□

الفصل الحادى عشر
(ضبط النفس)

الفصل الحادي عشر
ضبط النفس

□ □ أن التماسك وما يرتبط به من قدرة هائلة على التحمل دون شكوى وكذلك الأدب بما يتطلبه منا ألا نفسد متعة الآخرين وبهجتهم وصفاء نفوسهم عن طريق التعبير عن آلامنا ومتاعبنا ـــ قد يولد كلاهما في العقل تحولاً رواقياً ، يؤدي بالتدريج إلى تأكيد نوع من الرواقية وتثبيتها في مفاهيم الأمة وعقائدها . أقول « نوع من الرواقية » لأنني لا أعتقد أن الرواقية التامة يمكن أن تكون سمة لأمة بأسرها ، هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى لأن سلوكنا ــ أو بعض سلوكنا ــ وعاداتنا قد تبدو أحياناً للعين الأجنبية سلوكاً وعادات تدل على الغلظة والقسوة .

وأجدني أكثر ميلاً إلى الاعتقاد أننا يتحتم علينا أن نتألم ـــ بمعنى ما ـــ أكثر مما يتألم الآخرون ، بل أضعاف تألمهم ، وذلك لأن محاولاتنا المستمرة لضبط المشاعر الدفاقة وكبحها تؤدي بنا إلى الألم والمعاناة وذلك أن تتخيل الصبية وكذلك الفتيات ، وقد تربوا على الحذر من البكاء وسكب الدموع ، ومن التأوه كذلك ، تخفيفاً عن عواطفهم ، إنها مشكلة فيزيقية ، فهل تجعلهم محاولات الكبح والضبط هذه أكثر حساسية ، أم أنها تجمد مشاعرهم وأعصابهم !

لقد كان إظهار العواطف على ملامح الوجه من علامات انعدام الرجولة عند **الساموراي** .وكانت العبارة التي تستخدم دائماً لوصف الشخصية القوية : « لا تبدو على وجهه أبداً بوادر الفرح أو الغضب . وكانت أكثر العواطف طبيعية يتم التحكم فيها والسيطرة عليها . لقد كانت رغبة الأب في احتضان ولده ثمنها كرامة الأب واحترام الآخرين له .

لم يكن للزوج أن يقبِّل زوجته في حضور الآخرين مهما كان سلوكه معها حالة الانفراد . ولعل ما قاله أحد الشباب إن « الأزواج في أمريكا يقبلون زوجاتهم في العلن ويضربوهن في السر ، في حين أن اليابانيين يضربون زوجاتهم في العلن ويقبّلوهن في

السر » ، عبارة صادقة تماماً .

إن هدوء الحركة وعمق التفكير لا يجب أن تؤثر عليهما أي عاطفة . وأذكر أن إحدى الفرق العسكرية ــ في حربنا مع الصين ــ كانت على وشك مغادرة إحدى المدن ، وذهب عدد كبير من الناس إلى محطة السكة الحديد لوداع الفرقة الراحلة ووداع قائدها . وكان من بين المودعين مواطن أمريكي توقع أن يرى مظاهرة وداع صاخبة ، وذلك بسبب حالة الحماس الفياض التي كان يعيشها الناس . كان الزحام مكوناً من آباء الجنود وأمهاتهم ومحبوباتهم ، ولكن توقعات المواطن الأمريكي لم تتحقق ، فبمجرد أن ارتفع صوت القطار وبدأ في التحرك رفع آلاف المواطنين قبعاتهم في صمت ، وأحنوا رؤوسهم في وداع وقور . لم يكن ثمة مناديل يلوح بها ولم يتلفظ أحد بكلمة ، لم يكن سوى صمت عميق يسمع خلاله بالكاد نشيج متقطع . وداخل البيوت أيضاً عرفت أن أباً قضى الليل واقفاً خلف الباب يتنصت إلى صوت تنفس طفله المريض ، وذلك خشية أن يضبطه أحد متلبساً بضعفه الأبوي ، وأعرف أمّاً أحجمت في لحظاتها الأخيرة عن استدعاء ولدها ، وذلك حتى لا يرتبك في دراسته . وحياتنا وتاريخنا مليئان بالأمثلة والنماذج المؤثرة التي أوردها **بلوتارك** . بين فلاحينا من تشبه **آيان ماكلارن** lan Maclarn وهناك بالتأكيد كثيرات يشبهن **مارجريت هاو** Margreat Howe .

إن القدرة على ضبط النفس هي الفضيلة التي يعتد بها في الكنيسة المسيحية في اليابان ، وتتجلى في قلة عدد الأعداء والحاقدين أو المنافسين . وحين يحس الإنسان ، رجلاً كان أم امرأة ، بأن نفسه موشكة على الغضب والثورة ، فإن غريزته تدفعه إلى كبح جماح هذه الثورة وكبت هذا الغضب ، وقليلاً جداً ما تؤثر قوة النفس على اللسان فلا يستطيع مقاومتها ، وهذه الظروف النادرة تحدث عندما يتمتع الإنسان . بموهبة الفصاحة المرتبطة بالحماس والإخلاص ، ومبدأ التعبير الفصيح عن تجارب الروح وخفايا النفس والضمير أحد الوصايا ، بل هو ثالثها . إن الاستماع إلى الكلمات والعبارات العظيمة يعد من أكثر التجارب الروحية والنفسية كتماناً وخفاء ، ولذلك تتأذى أذن الياباني وهو يستمع إلى أمثال هذه الكلمات والعبارات ، ويراها تتبدد وسط هرج المجموع وضوضائها . كتب أحد **الساموراي** في يومياته : « إذا أحسست بتربة نفسك

تفور بالأفكار الدقيقة فهو وقت خروج الثمار من البراعم ، لا تشوش على نفسك ولا تجعلها تضطرب بالضوضاء ، بل دعها تعمل وحدها في هدوء وإصرار » .

إن التعبير عن الأفكار والمشاعر الباطنية العميقة للإنسان بكلمات اللغة العادية يعد بالنسبة لنا دليلاً حاسماً على أن الأفكار ليست عميقة وليست صادقة . يقول أحد الأمثال الدارجة . « إن ثمر الرمان فقط هو الذى يريك ما في قلبه حين يفتح فمه . » . وليس من قبيل اللؤم دائما بالنسبة للإنسان الشرقي أن يصمت الإنسان لكي يخفي عواطفه ، أو أن يمتنع عن الكلام عند أول بادرة لتحرك العاطفة ، ذلك أننا أيضا نتكلم ، وكلامنا — كما يعرفه أحد الفرنسيين — « فن إخفاء الأفكار » .

ولكي تتأكد من ذلك يمكنك أن تزور أحد أصدقائك اليابانيين في وقت من أوقات المحنة بالنسبة له ، وسترى أنه يستقبلك ضاحكاً بينما عيناه محمرتان وخداه مبتلان . قد تعتقد أنت في البداية أنه في حالة هيستيريا أو هياج عصبي ، ولكن حاول أن تلح عليه في السؤال عن حاله ، ولن تنتزع منه إلا بعض العبارات الفضفاضة ، مثل : « إن للحياة أحزانها » أو « لابد فيما اجتمع أن ينفصل ويفترق » أو « الموت حتم على كل مولود » أو « من الغباء أن تعدد عمر طفل فارق الحياة ، ولكن كم ينغمس قلب النساء في الغباء » وما أشبه ذلك من العبارات . من أجل ذلك نجد أن عبارة **هوهنزوليرن** Hohenzollern النبيل الثمينة : « تعلم كيف تخفي مشاعرك وعواطفك » قد وجدت استجابة حارة من كثير من العقول ، وذلك قبل أن يتفوه بها بزمن طويل .

وحين يكون الضعف البشري الطبيعي محل اختيار عنيف يلجأ اليابانيون في الحقيقة إلى المرح والدعابة . ولدينا لتفسير ذلك مبرر أفضل من مبرر **ديمقريطس** ، فالضحك بالنسبة لنا يستر شيئا آخر هو محاولة استعادة التوازن حين يضطرب المزاج لعوامل خارجية ، محاولة لاستعادة التوازن بين الأسف والغضب .

إن اصرارنا على كبح مشاعرنا وانفعالاتنا يقابله ويوازيه التنفيس عن هذه المشاعر في الحكم والأقوال الشعرية . كتب أحد شعراء القرن العاشر : « في اليابان ، وكذلك في الصين ، حين تتحرك المشاعر الإنسانية وتضطرب العواطف بالحزن يكون الشعر هو العزاء الأسمى . » وحين تحاول الأم اليابانية أن تجبر انكسار قلبها فإنها تهمهم وهي

تتخيل طفلها الراحل قد غاب غيبته في مطاردة الفراشة : —

ترى إلى أي مدى في مطاردته
للفراشة أنطلق صيادي الصغير ؟

ولست أدرى داعياً للإستشهاد بأمثلة أخرى ، فمن الظلم الفادح لأدبنا أن أحاول أن أنقل إلى لغة أجنبية تلك المشاعر والأحاسيس التي تجمعت من دماء القلوب قطرة قطرة حتى انتظمت في خرزات نادرة القيمة . وآمل أن أكون قد استطعت الكشف — إلى حد ما — عن البعد العميق لعقولنا التي تعرض نفسها دائما في مظهر من الصلابة والقسوة ، أو في خليط هيستيري من الضحك والاكتئاب ، تلك العقول التي يظن البعض أنها غير طبيعية ويتهمها البعض الآخر بالجنون .

ومما قيل أيضا إن قوة تحملنا للألم وأن لامبالاتنا بالموت منبعهما عدم حساسيتنا من الناحية العصبية . وهذه فكرة شائعة ومقبولة تقريبا في كل مكان . وثمة سؤال يفرض نفسه : لماذا تتميز أعصابنا بأنها أكثر هدوءا وأقل توتراً ؟ لعله المناخ الذي لا يثيرنا كما هو الأمر عند الأمريكان ، أو لعله النظام السياسي الامبراطوري لحكومتنا الذي لا يثيرنا كما أثار النظام الجمهوري المواطن الفرنسي ، أو لعل مرد ذلك أننا لم نقرأ كتاب « الأبطال » بالحماسة التي يقرؤها بها المواطن الإنجليزي . لكنني أعتقد أن فرط حساسيتنا واستعدادنا للانفعال والثورة هما اللذان حتَّما علينا أن نفرض على أنفسنا هذا الضبط القوى للنفس ونهتم به . وأياً كانت العلة أو السبب فإننا يجب أن نضع في اعتبارنا دائماً تلك السنوات الطويلة من ممارسة ضبط النفس والتمرن عليه .

ولاشك أن مثل هذا التعود على ضبط النفس يمكن أن يتجاوز حده بسهولة شديدة ، وذلك حين يؤدي إلى كبح تيار التدفق النفسي العبقري الخلاق ، كما يمكن أيضا أن يسبب الاضطراب والتوحش ويؤدي إلى التعصب الأعمى والنفاق وتبلد العاطفة . إن ضبط النفس فضيلة قد تؤدي — رغم نُبْلها وسموها ، إلى نقيضها وضدها ، وعلينا في كل الفضائل أن نقف عند حدود مزاياها الإيجابية ، لذلك يجب أن يقتصر دور ضبط النفس على مهمة الحفاظ على توازن العقل كما نقول ، أو الوصول إلى حالة الـ euthymia إذا صح أن نستعير هذا المصطلح اليوناني ، وهي الحالة التي

يسميها **ديمقرطيس** الفضيلة الآسمى .

وتتمثل قيمة هذه الفضيلة وذروتها خير تمثيل في القاعدة الأولى من القاعدتين اللتين سنتعرض لهما في الفصل التالي ، وهما الثأر والانتحار الشعائري .

□ □ □

الفصل الثانى عشر

(قاعدتا الانتحار الشعائري والثأر)

الفصل الثاني عشر
قاعدتا الانتحار الشعائري والثأر

□ □ كتب كثير من الأجانب عن هاتين القاعدتين أو المبدأين ، بشكل تفصيلي أحياناً ، وبطريقة مختصرة أحياناً أخرى . (وتعرف القاعدة الأولى باسم **كاراكيري** Karakiri بينا تعرف الثانية باسم **كاتاكي أوتشي** Kataki- uchi)

وإذا كان لي أن أبدأ بالقاعدة الأولى فلابد من الاقرار بأنني سأقتصر في حديثي على **سيبوكو** Seppuku أو **كَبُوكو** Kappuku ــ التي اشتهرت باسم **كاراكيري** ــ ومعناها التضحية بالنفس ببقر البطن . « نزع الأحشاء « ياللغباء » هكذا يصيح من يسمعون الاسم للمرة الأولى . هذه العملية ليست غريبة بالنسبة لدارس **شكسبير** ، وذلك رغم ما تبدو عليه من عبثية وغباء بالنسبة للأجنبي . يقول **شكسبير** على لسان **بروتس** مخاطباً **قيصر** بعد اغتياله : « إن روحك تحوم علينا محولة سيوفنا إلى إمعائنا » . وها هو شاعر انجليزي حديث يتحدث في « ضوء آسيا » light of Asia عن سيف يبقر أحشاء ملكة ، ولا أحد يلومه على الإنجليزية الرديئة أو على خرق الاحتشام . ولنأخذ مثالاً آخر هو لوحة **جيرشينو** Guercino عن موت **كاتو** Cato وهي اللوحة الموجودة في قصر روسيا rossa في **جنوة** Geanoa ، والذي يقرأ أغنية البجعة ــ التي وضعها **أديسون** Addison على لسان **كاتو** ــ لن يتأذى أبداً من منظر السيف الذى يخترق أمعاءه (في اللوحة) . هذا الشكل من أشكال الموت يرتبط في أذهاننا عادة بنماذج الفعل النبيل ، كما يرتبط أيضا بأشد المشاعر والعواطف تأثيراً ، ولذلك لا يستطيع شيء مهماً كان بغيضاً أو كريهاً أو مضحكاً أن يفسد مفهومنا عنه أو يشوه تصورنا له . وما أعجب القوة المتنوعة دائما في الفضيلة ، في العظمة والرقة ، حتى أن أكثر أشكال الموت فظاعة يتضمن في باطنه الرفعة ، ويتحول إلى رمز لحياة جديدة ، أو ــ أكثر من ذلك ــ تكون العلامة التي اعتقد **قسطنطين** Constantine أنها لن تهزم العالم .

ليس من أجل ذلك الترابط الفذ بين شكل الموت ومغزاه أن فقدت **السيبوكو** في

عقولنا معنى العبث ، بل السبب الحقيقي لذلك أن اختيار هذا الجزء الخاص من الجسد ــ البطن ــ ليكون بداية الانتحار كان يعتمد على عقيدة تشريحية قديمة ترى أن البطن هي موطن النفس وموطن العاطفة . وحين قال **موسى** ما قاله عن « أمعاء **يوسف** التي تندب أخاه » ، وحين دعا ربه ألا ينسى أمعاءه ، أو حين تحدث أشعياء وأرميا وآخرون من الأنبياء عن « أصوات » أو « اضطرابات » الأمعاء ، فإنهم قد انطلقوا جميعاً من نفس الاعتقاد الذي كان شائعاً عند اليابانيين من أن مسكن النفس من الإنسان هو الجوف والبطن ، وعادة ما يتحدث الساميون عن الكبد والكُلَى وما يحيط بهما من شحم على أساس أن هذه الأعضاء موطن الحياة ومحل العواطف . وقد كانت الكلمة اليابانية **hara** أكثر دلالة من الكلمة اليونانية **thumos** أو من **phren** ، وقد كان اليابانيون وكذلك الهلينستيون يعتقدون أن الروح تسكن في هذه المنطقة ، وقد كان مثل هذا التصور قاصرا بالطبع على الشعوب القديمة . ورغم ما يعتنقه الفيلسوف الفرنسي الشهير **ديكارت** من أن النفس الإنسانية تحتل الغدة الصنوبريه ، فإن الفرنسيين يصرون على استخدام الكلمة **Ventre** ، وهي كلمة ذات دلالة من الوجهة الفيزيقية وذلك رغم غموض دلالتها التشريحية . وفي اللغة الفرنسية أيضاً تستخدم الكلمة **entrailles** للدلالة على معنى الإحساس والعاطفة . وليست هذه المعتقدات ــ على أي حال ــ مجرد أوهام ، بل هي أكثر صدقاً من الوجهة العلمية من الاعتقاد السائد الذي يجعل القلب مركز الأحاسيس والعواطف . وقد كان اليابانيون يعلمون أكثر من **روميو** ــ دون أن يسألوا راهباً أو كاهناً ــ « في أي جزء تافه حقير من هذا الجسد ينطبع اسم الإنسان » . ولعلماء الجهاز العصبي أحاديث طويلة عن المخ البطني والمخ الحوضي ، ويقصدون بهما المراكز العصبية الحساسة في هذه الأجزاء من الجسم ، تلك المراكز التي تتأثر بقوة بأقل مؤثر مادي أو حركة فيزيقية . وإذا كانت فيزياء العقل قد صارت علماً معترفاً به فمن السهل بناء القياس المنطقي **للسيبوكو** على النحو التالي : « سأفتح لك مسكناً روحياً لكي أريك كيف تتفق مع نفسي . انظر بنفسك لترى ما إذا كانت نظيفة أم دنسة . »

ولا أريد من كلامي هذا أن يتصور أحد أنني أبرر الانتحار تبريراً دينياً أو أخلاقياً ،

فالإعلاء الشديد لفكرة الشرف كان مبرراً كافياً للكثيرين كي ينتزعوا حياتهم بأيديهم .
ولقد أذعن كثيرون لتلك العاطفة التي عبر عنها **جارث** Garth حين قال :

إذا ضاع الشرف فالموت هو العزاء
ليس الموت إلا حصناً واقياً من الذل والعار

وهكذا أسلموا نفوسهم وأرواحهم للعزاء والسلوان . ولقد كان الموت في سبيل الشرف أمراً تقبله **الساموراي** من عقيدة **البوشيدو** بوصفه مفتاحاً لحل كثير من المشكلات المعقدة ، لدرجة أن كان الموت الطبيعي يبدو في نظر **الساموراي** الطموح أمراً عادياً مألوفاً ، وكان يبدو اكتمالاً للحياة لايصح أن يتمناه الإنسان بقلبه . ومن الممكن القول بأن كثيرا من المسيحيين المؤمنين سيعترفون ــ خاصة إذا كانوا أمناء مع أنفسهم وعواطفهم ــ بأن رباطة الجأش التي أنهى بها كثيرون من أمثال **كاتو وبروتس وبترونيوس** Petronius ــ وآخرون من أمثالهم في التاريخ ــ حياتهم الدنيوية عظيمة وسامية ، هذا إن لم يعبروا عن إعجابهم بهذه الطريقة في الموت بشكل إيجابي . وهل نكون مبالغين كثيراً لو قلنا أن موت **سقراط** ــ أول الفلاسفة ــ كان انتحاراً جزئياً ؟ إن تلاميذه يقصون علينا لحظة بلحظة كيف كان أستاذهم مستسلماً عن طواعية ورضا لقانون الدولة الذي كان يرى أنه قانون فاسد من الوجهة الأخلاقية . ويصفون أنه ــ رغم كل إمكانيات الهرب التي أتيحت له ــ تناول قدح السم بيديه ، وسكب بعضاً من محتواه القاتل على سبيل البذل للآلهة ، أليس من حقنا بعد ذلك كله أن نستنتج من هذه التفاصيل ومن هذا السلوك أن **سقراط** قتل نفسه ؟ لم يكن ثمة إكراه هنا كما هو الأمر في حالات الإعدام العادية . صحيح أن حكم القضاء فرض عليه الموت حيث وردت صيغة الحكم : « يجب أن تموت ، وأن يتم ذلك بيديك » ، ومع ذلك فقد كان موت **سقراط** حالة انتحار بَيِّنة إذ ليس الانتحار أكثر من أن ينتزع الإنسان حياته بيديه . ورغم ذلك فليس ثم من يتهم **سقراط** بمثل هذه الجريمة ، ولن يجرؤ **أفلاطون** الذي كان ضد أستاذه على إطلاق كلمة « الانتحار » على موته .

ولعل القارىء الآن قد فهم أن **السيبوكو** لم تكن مجرد انتحار ، بل كانت قانوناً وشعيرة من بقايا العصور الوسطى ومن اختراعها . كانت شعيرة بها يكفر المحاربون

عن جرائمهم ، وبها يعتذرون عن أخطائهم ، وبها يغتسلون من العار ويتطهرون ، ومن خلالها يثبتون إخلاصهم وولاءهم ويرفعون عن كاهل أصدقائهم الأثقال والأوزار . وحين كان يفرض الانتحار على **الساموراي** عقاباً قانونياً فقد كان التنفيذ يتم طبقاً للأصول الاحتفالية الشعائرية . لقد كان بمثابة انقاذ للنفس وتطهير لها من الهلاك ، لذلك لم يجرؤ أحد على القيام به إلا بمنتهى رباطة الجأش وهدوء الأعصاب في التصرف والسلوك ، ولذلك كانت هذه الشعيرة الاحتفالية مناسبة بصورة خاصة **للساموراي** ومتلائمة مع شخصيته .

وأجدني مدفوعاً بحبي للتقاليد والتراث ـــ لا لسبب آخر ـــ إلى تقديم وصف كامل لهذه الشعيرة المهجورة . ولكن لأن كاتباً مقتدراً قد سبق أن قدم هذا الوصف في كتاب غير معروف للكثيرين الآن فثمة إغراء يدفعني أن أنقل هنا الوصف الطويل إلى حد ما . يبدأ **ميتفورد Mitford** في كتابه « حكايات اليابان القديمة » بتقديم ترجمة لمخطوط ياباني قديم عن **السيبوكو** ، ثم يمضي بعد ذلك إلى وصف أحد الاحتفالات الشعائرية **للسيبوكو** ، وهو احتفال شاهده **ميتفورد** عياناً :

كنا سبعة من الأجانب قد دعينا لحضور هذا الاحتفال ، وطلب منا أن نلحق بالمدعوين اليابانيين إلى قاعة المعبد الرئيسية **honda** حيث تتم مراسم الاحتفال . كان منظراً جليلاً مهيباً ، قاعة واسعة سقفها عال ، تدعمه أعمدة خشبية سوداء . مجموعة من المصابيح الكبيرة المذهبة تتدلى من السقف ، كما تتدلى منه بعض الزينات التي تتحلى بها المعابد البوذية عادة . كان ثمة سجادة من اللباد قرمزية اللون تزين العمق الداخلي للمعبد ، وهو يختلف في ارتفاع أرضه حوالي ثلاث بوصات أو أربع عن أرض القاعة . كانت أرضية هذا العمق الداخلي (الذي يوازي القبلة في المسجد) مغطاة بالحصر البيضاء الجميلة . وكان ثمة شموع طوال موضوعة على الفواصل التي تقف بين القاعة والعمق الداخلي ، تبعث ضوءاً خافتاً هادئاً ، ولكنه كاف لجعل المشهد مرئياً . جلس اليابانيون الذين كان عددهم سبعة في الركن الشمالي من الصالة ، بينما جلسنا نحن الأجانب في الركن الأيمن . لم يكن ثمة أحد آخر .

مرت دقائق مليئة بالقلق والتوتر ، ثم دخل إلى القاعة **تاكي زنزابورو**

Taki Zenzaburu وهو رجل في حوالي الثانية والثلاثين ، قوى البنية ، تبدو على وجهه سمات النبل . كان يرتدي ثياب الشعيرة بأطرافها المصنوعة من القُنَّب ، وهي ثياب لا ترتدي إلا في المناسبات الخاصة . كان يصطحبه **كايشاكو** Kaishaku ، ومعهم ثلاثة من الضباط يرتدون معاطف الفرسان المطرزة بالذهب ، أو باليابانية يرتدون الجيمباوري Jimbaori . ولابد من الإشارة إلى أن « **كايشاكو** » لا يساوي « الجلاد » ــ أو « عشماوي » في لغتنا ــ بل تدل الكلمة على رجل يقوم بوظيفة مختلفة عن وظيفة الإعدام ، وهذه الوظيفة يقوم بها غالباً واحد من أهل المحكوم عليه أو من أقربائه أو من أصدقائه . والعلاقة بين المحكوم عليه وبين هذا الشخص (**كايشاكو**) علاقة المتبوع بالتابع ، وليست علاقة الضحية بالجلاد . وكانت العلاقة بين **زنزابورو** وبين **كايشاكو** في حالتنا هذه علاقة الأستاذ بالتلميذ ، وقد اختار أصدقاء **زنزابورو** تلميذه هذا من بينهم للقيام بهذا الدور بسبب مهارته في استخدام السيف .

تقدم **زنزابورو وكايشاكو** الذي كان يقف على يساره ببطء إلى ناحية الشهود اليابانيين ثم انحنيا تحية لهم ، واقترب كلاهما بعد ذلك من الجانب الأيمن حيث نجلس نحن الأجانب وأديا التحية اليابانية بنفس الطريقة ، بل ربما بتوقير أشد . في كلتا الحالتين كان الجمهور يقابل التحية بمثلها وبشكل شعائري . تقدم المحكوم عليه ببطء ــ ولكن بكبرياء شديد ــ إلى المنطقة العالية المفروشة بالحصر ــ عمق المعبد ثم انحنى مرتين في اتجاه حائط عمق المعبد . جلس على السجادة اللباد وظهره لحائط المعبد[1] وجلس **كايشاكو** عن يساره . تقدم أحد الضباط حاملاً على يديه طاولة خشبية من ذلك النوع الذي يستخدم لتقديم النذور في المعبد . كان على الطاولة **الواكيزاشي** Wakizashi ملفوفاً بعناية ، وهو سيف قصير أو خنجر طوله تسع بوصات ونصف ، ذو طرف مدبب ونصل حاد كالموسي . انحنى الضابط انحناءة سجود وهو يقوم بتقديم السيف للمحكوم عليه ، الذي قام بدوره باستلام السيف بغاية الإحترام والتوقير ، ثم رفعه بكلتا يديه إلى رأسه

---

(١) الجلوس على الطريقة اليابانية هو بالضبط كجلوس المسلم حالة التشهد في الصلاة ، وقد ظل المحكوم عليه جالساً هكذا حتى تم تنفيذ الحكم .

ووضعه أمامه .

وبعد انحناءة أخرى طويلة بدأ **تاكي زنزابورو** يتحدث بصوت دل على انفعال حاد ، وعكس تردداً خليقاً بمن يعترف اعترافاً قاسياً موجعاً . لكن ملامح وجهه وتصرفاته لم تعكس إطلاقا أياً من هذا الانفعال أو التردد . قال :

« أنا — وأنا فقط — الذي أصدرت بلا مبرر أمر إطلاق النار على الأجانب فى مدينة **كوبي** Kobe . وأنا الذي أصدرت الأمر مرة أخرى حين حاول الأجانب الهرب . من أجل هذه الجريمة سأقوم بقتل نفسي طعناً بالسيف ، وأتوجه بالرجاء إلى جميع السادة الحاضرين هنا أن يشرفوني بمشاهدتي وأنا أكفر عن جريمتي . »

وحين حيا الجمهور مرة أخرى بالانحناء ترك الجزء الأعلى من ثيابه يسقط أسفل نطاقه ، وظل هكذا عاريا إلى منتصفه . ثم قام — طبقا لما تقضي به تقاليد الشعيرة — بشد أكمامه تحت ركبتيه بعناية فائقة حتى يمنع جسده من السقوط الى الخلف ، إن الياباني النبيل حين يموت — يجب أن يكون سقوط جسده إلى الأمام . وبيد ثابتة تناول **زنزابورو** السيف الملقى أمامه ، نظر إليه بمودة وشوق ، وبدا للحظة أنه يسمع أفكاره للمرة الأخيرة ، ثم طعن نفسه طعنة نافذة أسفل النطاق جهة الشمال ، ثم حرك السيف — وهو لا يزال منغرسا في أحشائه — حركة بطيئة حتى وصل به إلى الجانب الأيمن ، ثم أعاده إلى مكان الطعنة الأولى مرة أخرى محدثاً قطعاً رأسياً قصيراً . ولم تتحرك — خلال هذا الجهد المؤلم الموجع — عضلة من عضلات وجهه . وبعد أن استخرج السيف من أحشائه وانحنى إلى الأمام عارضا رقبته ، ظهر على وجهه تعبير الألم لأول مرة ، لكن لم يصدر عنه أي صوت ينم عن ذلك الألم ، نهض **الكايشاكو** واقفاً ، وكان خلال ذلك كله لا يزال جالسا إلى يسار المحكوم عليه يراقب باهتمام كل حركة من حركاته . وقف الآن على قدميه ، وهز سيفه فى الهواء هزة خاطفة ، تبعتها ومضة سريعة ، فضربة عاتية جبارة ، تلاها صوت ارتطام . لقد انفصل الرأس عن الجسد بضربة سيف واحدة .

تلا ذلك صمت كالموت لا يتخلله إلا صوت الدم ، الصوت البشع لتدفق الدم من الجسد الملقى أمامنا ، ذلك الجسد الذي كان منذ لحظة فارساً شجاعاً . لقد كانت

لحظات مرعبة ، وكان الأمر كله بشعاً .

انحنى **الكايشكو** انحناءة التحية ، ثم جفف سيفه بمنديل من الورق كان معداً لذلك الغرض ، سحب السيف المتسخ ـ الذي هو دليل تنفيذ الحكم ـ وانسحب خارجاً من عمق المعبد .

غادر ممثلاً الامبراطوريه Mikado بعد ذلك أماكنهم إلى حيث نجلس نحن الأجانب ، ثم طلبوا منا أن نشهد أن الحكم الذي صدر بموت **تاكي زنزابورو** قد تم تنفيذه بإتقان وإحكام . غادرنا المعبد حيث وصل الاحتفال بذلك إلى خاتمته .

نستطيع بالطبع أن نعطي أمثلة أخرى كثيرة في وصف **السيبوكو** ، سواء من النصوص الأدبية أو من حكاية شهود العيان الذين أعرفهم ، ولكنني سأكتفي هنا بإعطاء مثال آخر .

حاول الأخوان **ساكون** Sakon **وناكي** Naiki ، ويبلغ أولهما من العمر ٢٤ عاماً بينما يبلغ الثاني ١٧ عاماً ، أن يقتلا **أياياسو** Iyeyasu وذلك انتقاما من أخطائه ضد أبيهم ، ولكن قُبض على الشابين قبل التمكن من دخول المعسكر . وقد أبدى الجنرال العجوز إعجابه بإقدام هذين الشابين اللذين تجرآ على التفكير في قتله . وعلى ذلك أصدر أوامره بأن يسمح لهما بالموت ميتة شريفة . وكان قد حكم على أخيهما الصغير **هاتشيمارو** Hatchimaro ـ وهو مجرد طفل في الثامنة ـ بنفس الحكم بوصفه عضواً من العائلة . وقد تم حجز الثلاثة في أحد الأديرة حيث يتم تنفيذ الحكم . وإليكم بعض ما كتبه في يومياته طبيب شهد هذا التنفيذ :

حين جلس الأخوة الثلاثة استعدادا لتنفيذ الحكم التفت **ساكون** إلى أخيه الأصغر وقال : « عليك أن تبدأ أنت أولاً لكي نطمئن إلى أن تنفيذك سيكون لائقاً بك » ، وأجاب الأخ الأصغر أنه لم يسبق له أن رأي في حياته تنفيذ **السيبوكو** ، وهو لذلك يفضل أن يرى أخويه يؤديانه أولاً ، ثم يتابعهم هو بعد أن يكون قد تعلم منهما . وابتسم الأخوان الكبيران من بين الدموع وقالا : « ما أحسن ما قلت أيها الصغير ، فأنت ابن أبيك حقاً ، ولك أن تفخر بذلك . » اجلساه بينهما ، ثم طعن **ساكون** جانبه الأيسر بالخنجر وقال : « أنظر يا أخي وتعلم ، لا تطعن بطنك بالخنجر طعنة عميقة حتى لا تسقط إلى الخلف بل انحن إلى الأمام وضم ركبتيك جداً » . وهكذا أيضا فعل **نايكي** ،

وقال للغلام : « لتكن عيناك مفتوحتين حتى لا تموت كالنساء . وإذا وجدت صعوبة في طعن بطنك بالخنجر لأن قواك خائرة فتشجع وضاعف قوتك في الطعن » . تأمل الصغير أخويه الواحد تلو الآخر حتى انتهيا ، ثم عرى نصفه الأعلى في هدوء ، وقلدهما حتى لحق بهما .

ولاشك أن تمجيد **السيبوكو** أدى بشكل طبيعي جداً إلى الإغراء بارتكابه دون مبرر كاف . كان الشباب يندفع إلى **السيبوكو** اندفاع الفراشات إلى النار ، لأسباب بعضها لا يتفق مع العقل أو المنطق ، وبعضها الآخر لا يمكن أن تكون أسبابا يصح الموت من أجلها . كانت البواعث المختلطة الغامضة تؤدي بكثير من **الساموراي** إلى الانتحار الشعائري ، وتكاثرت الظاهرة حتى تجاوزت اندفاع الفتيات اليائسات إلى حياة الرهبنة .

لقد كانت الحياة إذا قدرت طبقا للمعيار السائد والمنتشر للشرف رخيصة ، جد رخيصة . ومما يثير الأسى والحزن أن مفهوم الشرف الذى كان دائما أنفس المعادن وأرقاها ـــ إذا جاز لنا أن نقول ذلك ـــ لم يكن دائما كذلك ، بل كثيرا ما كانت بعض المعادن الأدنى تختلط به . إن دائرة الجحيم ـــ وهي الدرك السابع الذي يضع فيه **دانتي** كل ضحايا الانتحار ـــ ستكون هي الدائرة التي تفخر دون غيرها بأنها تضم الأمة اليابانية حيث سيكون مصير معظم اليابانيين .

والساموراي الحقيقي ـــ رغم ذلك ـــ يرى أن استدعاء الموت أو الارتماء في أحضانه بلا مبرر نوعا من الجبن . إن المحارب الحقيقي قد يخسر المعركة إثر المعركة ، وقد يطارده العدو من الوديان إلى التلال ، ومن الغابات إلى الكهوف ، وقد يجد نفسه جائعاً وحيداً يحتمي في جوف شجرة مهجورة ، وسيفه قد كل من كثرة الطعان ، ورمحه قد انثنى وانكسر ، وسهامه فنيت . في مثل هذا الموقف ألا يلقي الروماني النبيل بنفسه فوق نصل سيفه بطريقة **فيليبية** Philippi لكن **الساموراي** يعتبر ذلك الموت جبناً ، ويعزي نفسه بهذا الشعر المرتجل وهو يحاول التماسك تماسكاً يقترب من تماسك الشهيد المسيحي : ـــ

هلمّ هلمّ دوما

أيتها الآلام والأحزان المرعبة

تكدسي فوق ظهري المثقل
فإنني لم أجرب أبدا نفسي
لكي أعرف ماذا أمتلك من قوة وعافية

هذه إذن تعاليم **الساموراي** : وَاجِهْ كل الآلام والمصاعب ، وتحملها صابراً بضمير نقي طاهر ، هكذا قال **مينشيوس** :[1] « حين تريد السماء أن تسند مهمة عظيمة سامية لإنسان ما فإنها تختبر عقله أولا بالمصاعب . ثم تختبر جسده (أعصابه وعظامه) بالكدح ، بأن تعرض جسده للجوع وتبتليه بالفقر المدقع ، وبأن تربك له كل مشروعاته . هكذا تثير عقله وتحركه وتعجم عوده وتجعله صلبا ، وتزيد من كفاءته وترفع من قدرته » . ويكمن الشرف الحقيقي في الخضوع لأوامر السماء وفي طاعتها ، وليس الموت في سبيل ذلك خزياً أو عاراً ، أما الموت الذي يستهدف الهرب مما تخبئه السماء لنا فهو الجبن الحقيقي . إننا نجد في كتاب **Religio Medici** للكاتب المعروف **توماس براون** مقابلاً انجليزياً دقيقاً لما يتكرر في تعاليم **البوشيدو** ، وذلك حيث يقول : « إن إزدراء الموت واحتقاره والاستهانة به عمل من أعمال الشجاعة والبطولة دون شك . ولكن حين تكون الحياة أصعب من الموت فالشجاعة الحقيقية حينئذ هي الجرأة على الحياة » . وقد لاحظ أحد القساوسة المشاهير في القرن السابع عشر ساخراً : أن **الساموراي** الذي مازال حياً معرض في لحظة حرجة من حياته إلى الهرب أو الاختباء ، سواء اعترف بذلك أم لم يعترف . ويضيف القسيس « أما الذى سبق أن كابد الموت الداخلي وعاناه فلا تؤثر فيه حراب **ساندو Sando** أو سهام **تاميتومو Tametomo** » . وهذا كلام يقترب إلى حد كبير ، مما هو مكتوب على واجهة أحد المعابد « إن من يهبني حياته يجدها حقاً » . كانت هذه مجرد أمثلة تكشف مدى التشابه بين الأجناس البشرية في الأخلاقيات والسلوكيات . وثمة محاولات مستميتة رغم ذلك كله لا تهدأ في تعميق الهوة بين المسيحيين وغير المسيحيين قدر ما تستطيع .

هكذا نرى أن مفهوم **البوشيدو** للانتحار الشعائري ليس مفهوما منافياً للعقل ،

---

(١) اعتمدت هنا على ترجمة د. لج **Dr. Legg** بشكل حرفي .

كما أنه ليس سلوكاً بربرياً همجياً كما يتبادر إلى أذهاننا حين نسمع وصفه للمرة الأولى . وعلينا الآن أن نحاول اكتشاف أبعاد المفهوم الشقيق الملازم ، مفهوم الثأر والانتقام ــ أو قل مفهوم الانتقام فقط إن شئت ــ لنرى ما إذا كانت له نفس الخصائص والسمات اللطيفة الهادئة أم لا . وكم كنت أود أن أستطيع الاجابة عن هذا السؤال بكلمات قليلة ، خاصة وأن ثمة أفكاراً شبيهة ــ وإن شئت فقل عادات ــ تنتشر بين كل الشعوب ، وهذه الأفكار أو العادات لا تزال حية بشكل أو بآخر ، كما يؤكد ذلك استمرار عمليات الإعدام الفورية دون محاكمة ، أو اللجوء إلى المبارزة لحسم بعض أنواع النزاع . ألم يَتَحَّد قبطان أمريكي منذ سنوات قليلة **ايسترهازي** Esterhazy من أجل الانتقام لما حدث **لدريفوس** Dryfus ؟ إن القبائل البدائية التي لا تعرف نظام الزواج لا تعد الزنا خطيئة ، والذي يحمى المرأة في هذه المجتمعات من الاستغلال وسوء المعاملة إنما هو غيرة العاشق . كذلك لا يكون القتل جريمة في المجتمعات التي لا تعرف المحاكم أو النظام القضائي ، والإنتقام اليقظ الساهر من جانب أهل المقتول هو وحده الذي يحافظ على النظام الاجتماعى . لقد سأل **أوزوريس حوريس** : ما أعظم الأشياء التي يفعلها الإنسان على وجه الأرض ؟ وكانت الاجابة « الانتقام لأي إهانة تلحق أحد الوالدين » ، وهى إجابة يمكن للياباني أن يضيف إليها « أو أى إهانة تلحق السيد » .

إن في الانتقام شيئاً يؤكد للإنسان معنى العدالة ، والتبرير الذي يمكن أن يقدمه الشخص المنتقم (صاحب الثأر) هو أن يقول : « لم يكن أبي الطيب يستحق الموت على يدي قاتله الذي ارتكب بفعلته تلك أعظم الكبائر . ولو كان أبي حياً ما احتمل مثل ذلك الاعتداء على حياته . ولما كانت السماء ذاتها تكره الأفعال الشريرة ، فقد اجتمعت إذن رغبة الأب وإرادة السماء على أن فاعل الشر يجب أن يلقى جزاءه . لذلك يتحتم على أن أقضي عليه كما سُفك دم أبي ، فأنا دمه ، وأنا لحمه الذي لا مفر أمامه من سفك دم قاتله . إن السماء لن تقتلني أبدا مع قاتل أبى وسافك دمه البريء » . ورغم أن هذا التبرير ساذج طفولي (وإن كنا نعلم أن تبرير **هاملت** لم يكن أعمق من ذلك) فإنه يعكس إحساساً إنسانياً عميقاً بالرغبة في تحقيق التوازن ، وتحقيق العدالة والمساواة . إنه مبدأ « العين بالعين والسن بالسن » الذي يعكس الإحساس أن شيئاً

ما لم ينجز ولم يتحقق ، إحساس مرهق لا تتخلص منه إلا بالإحساس بتعادل يشبه التعادل الجبري أو الحسابي .

ولقد كان أمر القصاص في اليهودية والأساطير اليونانية متروكاً لسلطة بشرية أعلى حيث آمنت اليهودية بإله منتقم جبار كما احتوت الأساطير اليونانية على آلهة للانتقام ، لكن حساسية **البوشيدو** أبدعت قانوناً للثأر والقصاص يمكن أن يعد محكمة أخلاقية من نوع ما لتحقيق العدالة والمساواة . وهي محكمة يمكن للناس أن يلجأوا إليها في حالة القضايا التي لا تصلح المحاكم العادية للبت فيها أو الحكم . لقد حكم على قائد السبعة والأربعين « **ساموراى** » **Ronin** بالموت ، ولم يكن ثمة محكمة للنقض والاستئناف . لذلك لجأ أتباعه السبعة والأربعون مخلصاً إلى القصاص ، القضاء العالي الوحيد الذي كان متاحا لهم . وقد أدين هؤلاء الأتباع بدورهم وحكم عليهم القانون العادي بالموت ، ولكن الغريزة الفطرية الشعبية أصدرت عليهم حكماً آخر ، فلا تزال ذكراهم حية في النفوس ، ولا تزال قبورهم في **سينجا كوجي** SingaKuji يحيطها التوقير والتبجيل .

وإذا كان **لاوتس** Lao- Tse قد عَلَّمنا أن نقابل الشر بالخير فقد كان صوت **كونفوشيوس** ـــ الذي علمنا أن العدالة يجب أن تأخذ مجراها ـــ هو الأقوى والأعلى ولم يكن القصاص رغم ذلك مقبولاً أو مستساغاً إلا إذا تحقق بناء على إذن الرؤساء والسادة . إن هفوات الإنسان يمكن أن تحتمل وتقابل بالغفران ، ومن هذه الهفوات إيلامه لأطفاله أو لزوجته . لذلك يستطيع **الساموراي** أن يتعاطف مع قَسَم **هانيبال** أن ينتقم لوطنه ، ولكنه لاشك يحتقر **جيمس هاملتون** ، ذلك الذي إحتفظ بحفنة من تراب المقبرة التي دفنت فيها زوجته ليثير بها دائماً بالانتقام من **ريجنت موراي** .

ولقد فقدت هاتان القاعدتان ـــ الانتحار الشعائري والثأر أو الانتقام ـــ مبرر وجودهما بعد صدور قانون العقوبات . ولم نعد مِن ثَمَّ نستمع إلى مغامرات الفتاة الجميلة التي تقتصُّ إثر قاتل والديها ، ولم نعد كذلك نشاهد كثيراً على المسرح تلك المآسي التي تتحدث عن الثأر العائلي . لقد صارت قصص الفارس الجوال **لمياموتو موساشي** Miamoto musashi من أحاديث الماضي ، إذ يقوم رجال الشرطة المؤهلون تأهيلاً جيداً بالتحري عن أسباب الجريمة وبواعثها نيابة عن المجني عليه . إن القانون هو المسئول

الآن عن قرار العدل ، وصار المجتمع كله ممثلاً في الدولة مسئولاً عن محاربة الظلم وإحقاق الحق . وحين يتحقق الإحساس بالعدل لا يكون ثمة حاجة للثأر أو القصاص Kataki-uchi ولو كان ذلك على حساب « تعطش القلب والمشاعر والأحاسيس التي لا ترتوي إلا بمشاهدة الدم الحي للقاتل سائلاً » فيما يقول أحد قساوسة **نيو إنجلند** . إن فقرات قصيرة في قانون العقوبات لا يمكن أن تقضي على هذه المشاعر والأحاسيس قضاء كاملاً .

وإذا كنا لم نعد نجد **للسيبوكو** وجوداً اليوم فإننا لا نزال نسمع عنها بين الحين والآخر ، وأخشى أن أقول إننا سنظل نسمع عنها طالما أن الماضي يستمر في الذاكرة ولا ينمحي . ولاشك أن الإنسان سيبتدع للانتحار طرائق أخرى كثيرة سريعة وغير مؤلمة ، إذ يزيد عدد المنتحرين بحكم التوتر المتزايد المخيف في إيقاع الحياة فى عالم اليوم . ولكن الأستاذ **مورسيه** Morsellie يعتبر أن **السيبوكو** أرقى طرق الانتحار وأكثرها أرستقراطية . يقول : « إن الانتحار الذي يتم بوسائل وحشية قاسية يعكس في ٩٩٪ من حالاته اختلالاً ذهنياً ، كما يمثل فعلاً من أفعال التعصب والجنون والهياج المرضي ، ناهيك عما يسببه من ألم طويل فظيع للشخص المنتحر ».[١] أما **السيبوكو** المعروفة فلا علاقة لها اطلاقاً بالتعصب أو الجنون أو الهياج المرضي ، ذلك أنها عملية تحتاج لكي تتحقق بنجاح إلى هدوء تام ورباطة جأش ضرورين بشكل حاسم . وتعد **السيبوكو** نموذجاً ممثلاً تمثيلاً دقيقاً للنمط الأول من نمطى الانتحار اللذين تحدث عنهما د. **ستراهان**[٢] Strahan ، وهما : الانتحار الواعي والانتحار الفعلي غير الواعي .

ومن السهل علينا بعد ذلك كله أن نستنتج من معتقدات **البوشيدو** وأفكاره ـــ كما يعكسهما هذان المبدآن الدمويان ـــ إن السيف كان له دور هام في الحياة وفى النسق الإجتماعى سواء بسواء . وقد قيل فيما يشبه المثل أو القول المأثور : « السيف روح **الساموراي** » .

□□□

(١) Suicide, p. 314.

(٢) Suicide and Insunity

الفصل الثالث عشر
(السيف روح الساموراي)

الفصل الثالث عشر
السيف روح الساموراي

□ □ جعل **البوشيدو** السيف رمزاً لقوته ، وشعاراً لشجاعته وبأسه . وحين قال **محمد** ﷺ : « جعلت الجنة تحت ظلال السيوف » فكأنه كان يردد صدى عاطفة يابانية . لقد كان الصبي الياباني من أولاد **الساموراي** يتعلم منذ نعومة أظفاره أن يتعامل مع السيف . ولقد كان من أهم أحداث حياته التي لا تنسى ذلك اليوم الذي يكتسي فيه زي **الساموراي** ويحمل معداته ويقف أمام رقعة الجو[1]كان هذا التاريخ يمثل بداية التحاقه بالعمل العسكري ، إذ كانوا ــ أهل الصبي ــ يضعون في نطاقه سيفاً حقيقاً بدلاً من السيف اللعبة الذي كان يلهو به من قبل . وغير مسموح للصبي بعد هذا الاحتفال الأول الذي يُعَوِّدُهُ على آداب المهنة ، أن يراه أحد خارج بوابة البيت دون أن يكون معلّقاً الشارة التي تحدد رتبته العسكرية ، هذا رغم أن السيف الحقيقي كان يستبدل به عادة سيف خشبي مطلي بالذهب ينتطق به الصبي على ملابسه العادية . ولكن لا تمضي سنوات قليلة حتى يسمح للصبي بحمل سيف حقيقي ــ وإن يكن غير مرهف الحدين ــ بشكل دائم . وعلى ذلك يتخلص الصبي من سيفه الزائف ، ويسير مختالاً وهو يختبر نصل سيفه من الخشب والحجارة بمتعة حادة مرهفة لا تصل إليها حدة نصل سيفه الجديد . وحين يصل الصبي إلى سن الخامسة عشرة ، وهي مرحلة الرجولة التي يُمْنَح فيها حق حرية التصرف والسلوك ، يصبح من حقه أن يزهو بامتلاك سيف حاد مرهف يستطيع أن يستعمله كما يشاء . وتنقل ملكية هذا السلاح الخطر إلي الصبي إحساساً باحترام الذات ، وتمنحه تقديراً للمسئولية « فهو لا يحمل السيف عبثاً » .

---

(١) رقعة تشبه رقعة الشطرنج ، والجو لعبة يطلق عليها أحياناً اسم « الشطرنج الياباني » ، ولكنها لعبة أكثر تعقيداً وغموضاً من الشطرنج ، حيث تتكون الرقعة من ٣٦١ مربعاً تمثل ساحة القتال . وهدف اللعبة احتلال أكبر عدد ممكن من هذه المربعات .

إن هذا السيف الذي ينتطق به رمز لما يحمله في عقله وقلبه ، رمز للشرف والإخلاص . إنهما في الحقيقة سيفان : طويل يسمى **دايتو** daito ، وقصير يسمى **كاتانا** katana أو يسمى **شوتو** shoto ولا ينبغي لهذين السيفين أن يبارحا **الساموراي** أبداً ، يضعهما حين يكون داخل بيته في أبرز الأماكن في حجرة الدرس والقراءة ، أو يعلقهما في مكان سهل الوصول إليه من الردهة . ويضعهما في الليل على الوسادة قريبين من متناول يده . وهما بحكم رفقتهما الدائمة له قريبان جداً إلى قلبه ، ولذلك يطلق عليهما أسماء محببة لطيفة . بهذا القدر من التبجيل والتوقير والاحترام أوشك **الساموراي** أن يعبد السيوف . لقد سجل لنا أبو التاريخ (**هيرودوت**) ضمن معلوماته الطريفة أن السكيثيين Scythians كانوا يقدمون سيفاً حديداً معقوفاً ذا حد واحد على سبيل الأضحية ، وتحتفظ بعض المعابد والعائلات اليابانية عادة ببعض السيوف التي تكون محل توقير وتبجيل واحترام ، بل يتمتع الخنجر العادي الشائع باحترام كبير بين الناس . حتى أن أي إهانة لهذا الخنجر تعد إهانة شخصية لحامله . والويل كل الويل لمن يعبر دون احترام كاف فوق سلاح ملقى على الأرض .

مثل هذا الشيء الثمين كان من المستحيل أن يكون خالياً من علامات جمالية تعكس مهارة الفنانين الذين يقومون بصنعه ، وهي علامات كانت تعكس أيضاً دون شك مدى افتخار حامله له وخيلائه ، خاصة في أوقات السلم حيث يكون حمله مجرد زينة تشبه زينة حمل القسيس لعصا الأسقفية ، أو تشبه زينة حمل الملك لصولجان الملك . ومثل هذا الشيء المرعب المخيف القاتل كان — من جهة أخرى — يتدثر بلواحق وتوابع تعد من قبيل لعب الأطفال ، إذا قورنت بالنصل المختفي داخلها ، ذلك أنه كان يتدثر بأرق أنواع الحرير ، كان المقبض يُلَفُّ بالشركسكين ، وكان الغِمْد يُحَلَّي بالذهب والفضة ، كما كان جلده يدهن بدرجات مختلفة الألوان من الورنيش تجعل من الغمد قطعة فنية .

لم يكن صُنَّاع السيوف عمالاً عاديين ، بل كانوا فنانين ملهمين ، وكانت المهنة من المهن ذات الطابع الديني . كان العمل يبدأ يومياً بالطهارة والصلاة ، أو بتعبير مأثور « كان الصانع يهب نفسه وروحه لطرق الصلب واستعداله » . كانت كل طرقة على السندان ، وكل غمره في الماء ، وكل حَكَّة على حجر الجَلْخ ، تعد فعلاً من أفعال

العبادة لا يقل عن غيره من أفعال العبادات في قدسيته . أكانت روح السيد أم روح الإله الحارس تلك التي أضفت على سيوفنا هذا السحر الفاتن ، هذا السيف الذي لم يكن يحتمل من طاقة الفن أكثر مما بُذل فيه فعلاً ، هذا العمل الفني الرائع هَزَّ بروعته واكتمال صنعته مكانة الفنانين والصناع المنافسين في دمشق وطليطلة . إننا نمتلىء بخليط من مشاعر القوة والجمال والرهبة والخوف حين نرى نصله البارد الذي تجتمع على سطحه لحظة استلاله من الغمد قطرات من بخار الجو ، وكذلك حين نرى سطحه الناصع الذي يومض وميضاً يعكس في الجو لوناً أزرق ، أو حافته التي لا تضارع والتي يتوقف عليها صنع التاريخ وتتعلق بها احتمالات المستقبل . إنه السيف الذي تَتَّحد في حركة مقبضه كل عناصر القوة والشرف المتوقع المنتظر . وكان يمكن لهذا السيف — لو ظل مجرد أداة للبهجة والمتعة الفنية الجمالية — أن يكون أداة لا ضرر منها على الإطلاق لا تُغْرِي أدنى إغراء بسوء الاستخدام رغم وجودها في متناول اليد باستمرار ، لكن ما أكثر ما لمع هذا الفصل الحاد خارجاً من غمده الرقيق ، وكم تجاوز بسبب سوء الاستخدام حدود كل منطق ، حتي أنه كان أحيانا — علي سبيل التجريب — ما يوضع هذا الحديد القاسي علي رقاب بعض المخلوقات المسالمة البريئة .

لكن السؤال الذي يهمنا هنا أكثر من غيره هو : هل يبرر **البوشيدو** الاستعمال العشوائي غير المسبَّب لهذا السلاح ؟ والإجابة بلا تردد هي : كلا . لقد أدان **البوشيدو** سوء استخدام السيف ورفضه في نفس الوقت الذي أكد تأكيداً حازماً على حسن استخدامه في الوقت الملائم والمكان المناسب . وكان من يلوح بالسيف مهدداً متوعداً — بمناسبة وبلا مناسبة — يعد في نظر **البوشيدو** شخصاً متبجحاً ويصنف على أنه غادر جبان خسيس .

لقد كان الرجل الحقيقي عندهم هو الذي يسيطر على نفسه ويعلم متى يصح استخدام السيف ، وما أقل ما كانت الظروف تحتم هذا الاستخدام . ولنستمع إلى السيد الراحل **كاتسو** Katsu وقد عاصر أكثر فترات تاريخنا اضطراباً حيث كانت الاغتيالات وشعيرة الانتحار وغيرها من أنماط السلوك الدموية جداً هي الأشياء المعتادة كل يوم . ورغم أن **كاتسو** كان هدفاً دائماً لمؤامرات الاغتيال بحكم السلطات الهائلة التي كان

يمارسها بطريقة ديكتاتورية فإن سيفه لم يتلوث أبداً بالدم . يقول ـــ وهو يحكي ذكرياته لأحد أصدقائه بطريقة هادئة فكهة تعد من إحدى خصائصه وصفاته ـــ: « لا أحب قتل الناس ، لذلك لم أقتل إنساناً في حياتي أبداً .. لقد أمرت بالإفراج عن أولئك الذين كان يتحتم أن أعدمهم حتى أن صديقاً قال لي يوماً : إنك لاتقتل كثيراً لماذا ؟ ألا تأكل الباذنجان والفلفل ؟ نعم هناك بعض الناس الأشرار ، وهناك الأسوأ بالطبع ، لكنك لابد من أن تعلم أن هذا الصديق الذي كان يحضُّني على القتل مات مقتولاً ، إن هروبي يرتد فيما أظن إلى كراهيتي للقتل .. لقد كنت أربط مقبض سيفي جيداً بالجراب حتى يصعب عليّ إخراجه منه ، لقد صَمَّمْتُ على عدم القتل حتى لو حاول أحدهم قتلي ، أجل ، أجل ، بعض الناس كالناموس أو كالزنابير يقرصون ويلدغون ، لكن ذلك لايسبب ضرراً ، إنه يؤلم قليلاً ، وقد يسبب بعض الالتهاب وهذا كل شيء ، فلا خطورة على الحياة » . هذه شهادة أحد الرجال الذين كانوا يمارسون تدريباتهم على « **البوشيدو** » بحماس ملتهب في أوقات الحرب وأوقات السلم على السواء » . إن المثل الذي يرى أن « النصر متحقق بإرهاب العدو » يعني أن النصر الحقيقي ليس من الضروري أن يتم بمجابهة العدو « فأفضل انتصار تناله هو الذي تناله دون دماء » .. ويمكن لكثير من الأقوال والأمثال الشبيهة أن تكشف لنا أن السلام كان المطلب الأسمى للفروسية .

ومن المؤسف أن هذا المطلب الأسمى تحول إلى أن يكون من اختصاص القساوسة وعلماء الأخلاق ، في حين مضى **الساموراي** إلى تمجيد السلوك العسكري وإلى ممارسته .. وقد تمادى **الساموراي** في ذلك لدرجة أن صار مفهوم الأنوثة عنده مختلطاً ببعض الخصائص الأمازونية ، وهنا ننتقل في الفصل القادم إلى موضوع « مكانة المرأة وتدريبها » .

□□□

الفصل الرابع عشر

(مكانة المرأة وتدريبها)

الفصل الرابع عشر
مكانة المرأة وتدريبها

□ □ الأنثى التي تكوِّن نصف المجتمع البشري أحياناً ما يطلق عليها اسم « مثال التناقض » ، وذلك لأن النمط الحَدْسي لتفكيرها يبدو غير مفهوم للعقل الرياضي عند الرجل ، والرسم الصيني ــ الكانجي ــ الذي يعني « غامض » و « مجهول » مركب من جزأين : أحدهما يعني « أنت » والآخر يعني « المرأة » ، وذلك لأن المفاتن الجسدية للمرأة والمشاعر الرقيقة التي تملؤها تتجاوز مقدرة جنسنا العقلي على التعليل .

ومع ذلك فليس ثمة في مفهوم **البوشيدو** عن المرأة غموض ، بل ثمة بعض التناقض ، ولقد سبق أن ألمحت إلى وجود بعض الملامح الأمازونية في مفهوم **البوشيدو** عن المرأة ، ولكن ذلك يمثل نصف الحقيقة فقط ، في الرسم الصيني تكون الزوجة دائماً امرأة تحمل مكنسة ، لابهدف الهجوم قطعاً على حليفها الرجل أو الدفاع عن نفسها ضد اعتدائه ، ولا لغرض القيام ببعض الممارسات السحرية ، بل الهدف من حمل المكنسة هدفاً سلبياً تماماً ، وهو أداء العمل الذي يؤدى بالمكنسة عادة ، الكنس والنظافة .

إن الفكرة التي يعبر عنها الرسم هي الدلالة على الوظيفة المنزلية للمرأة ، وهذه الدلالة تجدها واضحة أيضاً في اشتقاق الكلمة الإنجليزية **Wife** (زوجة) من الاسم **Weaver** بمعنى الناسج ، وكذلك تجدها واضحة في اشتقاق كلمة **Daughter** (بنت) من **Duhitar** بمعني الخادمة التي تحلب اللبن .. ودون أن يتحدد مجال نشاط المرأة في الطبخ وإنجاب الأطفال ورعايتهم ــ كما فعل المفكر الألماني **كايزر Kaiser** ــ فقد كانت مهمتها في مفهوم **البوشيدو** مهمة منزلية أساساً ، في هذا التعارض بين « المنزلية » و « الأمازونية » يبدو التناقض ، لكنه في حقيقته ليس تناقضاً من منظور **البوشيدو** كما سنرى .

إن تعاليم **البوشيدو** موجهة أساسا إلى جنس الذكور ، لذلك كانت الفضائل التي نسبتها للمرأة واحتفت بها فضائل تتجاوز إطار الصفات الأنثوية بالمعنى الحرفي الدقيق الصارم ، ويلاحظ **وينكلمان** Winckelman أن « نموذج الجمال في الفن اليوناني هو جمال الذكورة لاجمال الأنوثة » ، ويضيف **ليكي** Lecky أن هذه الحقيقة لها وجود في المفهوم الأخلاقي اليوناني يماثل وجودها في فنونهم[1] .. وهكذا أيضاً يمتدح **البوشيدو** كثيراً من النساء « اللائي تحررن من أسر نعومة جنسهن ، وكشفن عن صلابة وبطولة لاتظهر إلا على أشجع الرجال وأقواهم » .. ولذلك كانت الفتيات تتدربن على مغالبة عواطفهن ، وعلى تقوية أعصابهن ، كما تتدربن على كيفية استخدام السيف — خاصة السيف الطويل المقبض الذي يسمى **ناجي — ناتا** Nagi-Nata ليصرن قادرات على حماية أنفسهن ضد أي اعتداء ، لم يكن الدافع الأول وراء تدريب المرأة على السلاح هو تستخدمه في ساحة القتال ، بل كان الدافع ذا طبيعة مزدوجة : شخصية ومنزلية ، يتجلى الجانب الشخصي في أن المرأة التي ليس لها من يحميها يجب عليها أن تحمي جسدها ، وباستخدام السلاح تستطيع أن تدافع عن حرمتها الشخصية بنفس الإخلاص والتفاني الذي يدافع به زوجها عن سيده وبه يتفانى في خدمته . ويتمثل الجانب المنزلي في تمكينها من تعليم فنون السلاح لأبنائها كما سنرى بعد ذلك .

كان تدريب المرأة إذن على المبارزة وغيرها من فنون القتال — رغم عدم الإفادة منه من الوجهة العملية إلا نادراً — يمثل في مجموعه عملية توازن لعادات المرأة ونشاطها ، وهى عملية لولاها لظلت المرأة في حالة خمول وسكون . لكن هذه التدريبات والمهارات المكتسبة إلى جانب ما تحققه من أغراض صحية يمكن أن تكون رهن التوظيف إذا مادعت ضرورة إلى ذلك ، لقد كانت الفتاة التي تصل إلى سن النضج تُعطى خنجراً يطلق عليه اسم Kai-Ken لكي تحتفظ به معها حتى تطعن به من يحاول الاعتداء عليها أو تطعن به نفسها إذا لزم الأمر ، وغالباً ما كان هذا الحل الأخير هو الذي تلجأ إليه الفتاة ، ولاحاجة بنا هنا إلى القسوة على الفتيات أو الحكم على سلوكهن هذا . إن

---

(1) Lecky, History of European Morals ii, p. 383.

المسيحية رغم موقفها العنيف من الانتحار ومعارضتها له ستكون رحيمة مع هؤلاء الفتيات ، لأنها ضمت إلى قائمة القديسات كلا من **بيلاجيا** Pelagia **ودومينينا** Dominina اللتين انتحرتا حفاظاً على عفتهما وطهارتهما ، وحين رأت الفتاة اليابانية **فرجينيا** Virginia أن عفتها مهددة لم تنتظر سيف أبيها لكي يحميها لأن سلاحها دائماً في ثيابها ، وكم كان من المخجل للفتاة اليابانية ألا تعرف الطريقة المثلى لقتل النفس ، لذلك كانت تتعلم بعض الدروس في التشريح ، إذ كان عليها أن تعرف مثلاً الجزء الذي ينبغي أن تضع عليه الخنجر من رقبتها ، كما كان عليها أن تعرف كيف تربط فخذيها وساقيها بحزام خاص حتى يكون جسدها في وضع لائق رغم آلام الموت .. ألا يستحق مثل هذا الحرص والحذر الخلود المسيحي ؟ ألا يشبه عذارى النيران المقدسة Vestal Carnelia ؟ ولست بحاجة هنا إلى مناقشة ذلك الاستنتاج الفظ الذي يعتمد على عادات الاستحمام عندنا ليقفز إلى أن اليابانيين لايعرفون معنى العفة والشرف ، فمثل ذلك ليس أكثر من سوء فهم وخطأ في التأويل[1] .. إن الشرف والعرض والطهارة والعفة مسائل أساسية بالنسبة للمرأة **الساموراي** ، إنها فضائل أسمى من الحياة ذاتها ، يحكى أن إحدى الفتيات أُخِذَت أسيرة في إحدى الحروب ، وحين أحست بالخطر على نفسها ، وخشيت من اعتداء الجند الذين كانت تحت سيطرتهم على عفتها وشرفها ، وعدتهم أن تهبهم من نفسها كل مايشتهون على شريطة أن يسمحوا لها أولاً بكتابة رسالة إلى أختها التي شردتها الحرب ، وحين انتهت من الرسالة هرعت إلى بئر قريبة وأغرقت نفسها حفاظاً على شرفها . والرسالة التي كتبتها لأختها مختومة بهذه الأبيات :

خشية أن تغطي السحب الداكنة السوداء نورها
كان عليها أن تتخلص من هذا الجانب السفلي
وها هو القمر الصغير فوق التلال
صاعداً إلى الأعالي حثيثاً

---

(١) من أجل تفسير دقيق جداً لظاهرتي الاستحمام والعري في اليابان اقرأ :
Finck's Lotos Timein Japan, pp. 286-297.

من الظلم أن يخرج القارىء بانطباع فحواه أن صفات الذكورة فقط كانت مكونات نموذج المرأة المثالي في مفهوم **البوشيدو** ، وليس الأمر كذلك إذ كان مطلوباً من المرأة ، أن تحقق كل ما سبق وصفه من إنجازات ، كما كان مطلوباً منها في نفس الوقت أن تحقق أكثر الصفات رقة في حياتها . لم تكن الموسيقى والرقص وقراءة الأدب جوانب مهملة من اهتمام المرأة ، وكثير من الأشعار العاطفية الرقيقة جداً في أدبنا ليست إلا تعبيراً عن مشاعر وعواطف أنثوية . لقد لعبت المرأء في الحقيقة دوراً هاماً وخطيراً في تاريخ آدابنا وفنوننا ، فقد كانت النساء يتعلمن الرقص ــ وأنا أتحدث هنا عن نساء **الساموراي** لا عن فتيات الجيشا ــ لا لشيء إلا لكي تكون حركة أجسادهن أكثر انتظاماً وتناسقاً ونعومة ، كن يتعلمن الموسيقى من أجل إمتاع الآباء والأزواج والتسرية عنهن في أوقات الفراغ والراحة ، لم يكن تعلم الفنون إذن يستهدف غايات فنية أو جمالية .. ولكن كان الهدف الأول والغرض الأسمى من عزف الموسيقى هو إعادة التوازن للنفس والقلب ، وذلك استناداً إلى اعتقاد أن تحقيق التوازن الصوتي لايتم إلا إذا كان قلب العازف نفسه متمتعاً بحالة توازن داخلية ، ولعلنا نلاحظ هنا أيضاً سيادة المفهوم الذي أشرنا إليه عند حديثنا عن تدريب **الساموراي** ، إذ لم يكن المهم هو الإنجازات المادية بل الجدارة الأخلاقية هي الأساس ، ثم يكون الإنجاز المادي في مكانة ثانوية .
لم يكن الهدف من الرقص والموسيقى الزهو الباطل أو الخيلاء الكاذبة أو التشجيع على الانحلال ، لذلك كان البعض من ذلك ــ من الرقص والغناء ــ كافياً ليضفي على الحياة نعومة وبريقاً . ولاشك أنني أتعاطف تعاطفاً كاملاً مع ذلك الأمير الفارسي الذي اصطحبه بعض أصدقائه إلى إحدى صالات الرقص في لندن ، وطلبوا منه أن يشاركهم الرقص واللهو ، لكنه رفض معللاً أنهم في وطنه يكتفون بأن تقوم بعض الفتيات بمثل هذا اللهو نيابة عنهم .

لم يكن مطلوباً من المرأة عندنا أن تعرض على الجمهور رقصها أو عزفها بهدف الكسب المادي أو الوجاهة الاجتماعية ، بل كانت النساء يقمن بذلك للتسلية في المنزل ، وحين كن يرقصن أو يعزفن في بعض الحفلات ذات الطابع الاجتماعي كان ذلك نوعاً من كرم الضيافة ، أو كان ــ بكلمات أخرى ــ نوعاً من تعبير ربة البيت عن

احتفائها بضيوفها وتكريمهم . ولذلك يمكن القول إن كل ماكانت تقوم به النساء من أفعال في اليابان القديمة ـــ سواء كانت أفعالاً ذات صفة عسكرية أم كانت أفعالاً ذات صفة غير عسكرية ـــ كانت موجهة إلى خدمة البيت أساساً ، وكانت تهتم بالقلب والنفس أساساً . ولم تكن هذه الغايات تُنسى أبداً من جانب المرأة مهما بدا أنها في ظاهر نشاطها تحلق بعيداً عن هذه الأهداف . لقد كانت النساء يكْدَحْن ويشقين ويضحين بحياتهن عن طيب خاطر من أجل غاية واحدة ، هي تحقيق شرف القلب ونزاهته . من أجل ذلك كن يغنين ليلاً ونهاراً في بيوتهن بأصوات رقيقة قوية شجاعة مؤثرة . كانت الفتاة اليابانية تضحي من أجل أبيها بحياتها ، فإذا تزوجت كانت تضحي من أجل زوجها ، وحين تصير أماً كانت تضحي من أجل أبنائها ، لذلك كانت تلقن منذ نعومة أظفارها إنكار الذات . لم تكن لها حياة مستقلة ، بل كانت حياتها موهوبة لخدمة الرجل . كانت رفيقة الرجل ، تبقى إلى جانبه إذ كان حضورها يساعده في تحقيق ما هو منهمك فيه ، وإن كان محضرها يعوقه عن عمله فإنها تنسحب خارج الحجرة لتقبع وراء الستارة في انتظار أن يحتاج إليها . ولم يحدث أبداً أن بادلت فتاة الشاب ـــ الذي فُتِن بها ـــ الحُبَّ بنفس حماسته ، إذ كانت حين تدرك أن ولع الشاب بها ينسيه واجباته تهمل نفسها ومظهرها ، ولو أدى بها ذلك إلى أن تفقد جاذبيتها في عينيه . لقد لاحظت **أدزوما Adzuma** ـــ المرأة المثالية في وجدان فتيات **الساموراي** ـــ أن أحد خصوم زوجها والمتآمرين عليه يحبها ، فتظاهرت بالتآمر معهم على زوجها ، واشتركت معهم في تدبير خطة قتله ، ولكنها دبرت أن تحل محل زوجها مستترة بالظلام ، وبذلك جعلت سيف عاشقها القاتل يقع على رأسها فداء لزوجها ، وفيما يلي نص الرسالة التي كتبتها زوجة شاب اقطاعي قبل أن تقتل نفسها ، والرسالة لاتحتاج منا إلى تعليق :

« كل شيء في هذه الدنيا وعلى هذه الأرض مقدور لانستطيع الهرب منه ، لاشيء مهما كان يستطيع أن يغير المقدور ، إذ لامكان للصدفة أو المفاجئة ، هكذا تعلمت ، إن الجلوس مرة ثانية تحت ظل نفس الشجرة أو الشرب مرة أخرى من نفس النبع كلاهما مقدور منذ الأزل وقبل أن تولد . ولما كان رباط

الزوجية الأبدي يربط بيننا منذ سنتين فقد كان قلبي دوماً يتبعك كما يتبع الشيء ظله ، كنا قلبين لاينفصلان ، قلبٌ محبٌ وآخر محبوب ، رغم هذا الرباط فلم أعلم إلا الآن أن معركتك القادمة قد تكون آخر معركة لك في هذه الحياة ، لذلك لا أملك إلا أن أبعث إليك بتحية وداع من القلب الشريك الذي يحبك . لقد سمعت أن محارب الصين القديمة الشجاع كوو Kowu خسر إحدى المعارك لكي لا يتخلى عن محبوبته جو Gu . وقد خسر يوشيناكا Yoshinaka — وكان شجاعاً مثل كوو — معركته النهائية ، وخسرت بالتالي قضيته ، بسبب أنه كان لايقوى على وداع زوجته وداعاً عاجلاً ، وأنا — يامن ليس لها على الأرض بعدك أي بهجة أو أمل — لماذا أقف حجر عثرة في طريقك ، فأقيدك عن الحركة ، وأعوق حرية أفكارك بوجودي حية على ظهر الأرض ؟ لماذا لا أنتظرك في الطريق الذي لابد أن تعبره كل الكائنات الأرضية ، وإياك إياك يازوجي العزيز أن تنسى أبداً شيئاً من الواجبات الكثيرة التي ألقاها على عاتقك السيد الطبيب هيديوري Hideyori . إن فضائله علينا وجمائله أعلى من التلال وأعمق من البحر » .

لقد كانت تضحية المرأة بنفسها في سبيل زوجها وبيتها وعائلتها توازي في نظر المجتمع تضحية الرجل بنفسه في سبيل سيده ووطنه . إن سر إخلاص الرجل وولائه ، وسر تكريس المرأة حياتها للعائلة والزوج يكمن في فضيلة إنكار الذات ، تلك الفضيلة التي بدونها تظل الحياة ألغازاً غير مفهومة . لم تكن المرأة أبداً جارية عند زوجها ، كما أن الزوج لم يكن عبداً لسيده . كان الدور الذي تلعبه المرأة يعرف باسم نايجو Naijo (العون الداخلي) ، وكان دور المرأة في ترتيب الأدوار هو التفاني في خدمة الرجل الذي يتفانى بدوره في خدمة سيده الذي يطيع أوامر السماء ويستجيب لها . ولاشك أن هذه عقيدة لاتقارن بعظمة العقيدة المسيحية التي تجعل كل كائن حي مسئولاً مسئولية مباشرة أمام الخالق . إن فضائل المسيحية لاتتجلى أكثر مما تتجلى في هذه المقارنة . ولكن مع التسليم بعظمة المسيحية في هذا الجانب ، فإن هذا التدرج في عقيدة البوشيدو — بما يحمله من مفهوم خدمة قضية تتجاوز ذات الإنسان ولو أدى الأمر إلى التضحية

بالمصلحة الفردية ــ كان يقوم على أساس من الإيمان بوجود حقيقة أزلية خالدة .

ولست أريد أن أبدو متعصباً ــ في عين القارىء ــ أو متحيزاً لمفهوم التضحية بالذات والتخلي عن الإرادة الشخصية للإنسان . إنني أتفق إلى حد كبير مع **هيجل** في مفهومه للتاريخ ــ الذي عرضه ودافع عنه بعلمه الواسع وفكره العميق ــ على أنه تطور لمفهوم الحرية وتجل لها ، ولكنني أود هنا الإشارة إلى فكرة هامة كانت سارية بعمق شديد في تعاليم **البوشيدو** ، تلك هي أن روح التضحية بالنفس أو إنكار الذات لم تكن أمراً مطلوباً من الرجل فقط ، بل كانت مطلوبة من المرأة بالمثل ، لذلك لن يدرك مجتمعنا بسهولة ــ ما لم يتبدد تأثير **البوشيدو** من حياتنا ــ جدوى تلك الأفكار التي عبر عنها بحماس شديد بعض المتأثرين بالفكر الأمريكي عن حقوق المرأة وحريتها ، حتى ذهب إلى « أن كل نساء اليابان يجب عليهن أن يثرن ثورة عارمة ضد التقاليد البالية » .. ولكن هل يمكن لمثل هذه الثورة ــ إن حدثت ــ أن تنجح ؟ وهل ستؤدي إلى تحسين وضع المرأة ؟ وهل الحقوق التي يمكن أن يحصل عليها نساؤنا بهذه البساطة تستطيع أن تعوض الخسارة التي ستلحق رقة سلوكنا وعذوبة أخلاقنا اللذين هما مبررات وضع المرأة الحالي ؟ ألم يكن افتقاد روح الانتماء للزوج والأسرة عند المرأة الرومانية هو السبب وراء الفساد الأخلاقي الذي لاتعبر عنه الكلمات ؟! وهل يستطيع المصلح ذو الاتجاه الأمريكي أن يضمن لنا أن الثورة هي الطريق الحقيقي أو الاتجاه الفعلي الذي يتحتم على نساءنا أن يسلكنه من أجل تحقيق غايتهن التاريخية في التطور ؟ هذه كلها أسئلة حرجة ، فالتطور والتغير آتيان لامحالة ، وليس من الضروري أن تكون الثورة سبيلهما ، والآن لنر : هل كانت مكانة المرأة ــ الجنس اللطيف ــ في نظام **البوشيدو** مكانة مهينة إلى الحد الذي يبرر الثورة ؟

كثيراً مانسمع عن احترام فرسان أوروبا احتراماً شديداً « لله والنساء » وقد جعل التنافر بين هذين المفهومين **جيبون** Gibbon يحس بالخجل ، كذلك ذهب **هَلاَّم** إلى وصف أخلاقيات الفروسية الأوروبية بأنها كانت رديئة فظة حيث أدى ذلك التودد إلى النساء إلى الوقوع في هاوية الحب المحرّم الآثم . ولقد كان تأثير الفروسية على الجنس الضعيف أحد موضوعات الفكر الفلسفي ، وقد عبر م . **جويزوت** M. Guizot عن

اقتناعه بأن النظام الإقطاعي والفروسية كان لهما تأثير خطير على وضع المرأة ومكانتها ، بينما ذهب **سبنسر** إلى أن وضع المرأة يكون بالضرورة وضعاً متدنياً في المجتمعات العسكرية (أليس الإقطاع مجتمعاً عسكرياً) ، وذهب إلى أن هذا الوضع يتحسن مع تحول المجتمع إلى مجتمع صناعي . ترى أى الفكرتين تصح على المجتمع الياباني : فكرة **جويزوت** أم فكرة **سبنسر** ؟ وأستطيع أن أجزم أن كليهما كان على صواب ، وكلتا الفكرتين تنطبق على حالة اليابان . لقد كانت الطبقة العسكرية في المجتمع الياباني قاصرة على **الساموراي** الذين كان عددهم يصل إلى مليونين . كانت طبقة النبلاء السادة Daimio الذين يتكون منهم مجلس النبلاء Kuge هي الطبقة الأعلى — وكان هؤلاء النبلاء السادة المترفون يعدون محاربين بالاسم فقط . وراء **الساموراي** يأتي الناس العاديون من الصناع والتجار والفلاحين ، وكانت حياتهم خالصة للفنون والأنشطة السلمية ، لذلك يمكن أن نقول إن خصائص المجتمع العسكري كما يفهمها **هربرت سبنسر** تنطبق انطباقاً تاماً على طبقة **الساموراي** ، في حين تنطبق خصائص المجتمع الصناعي على الطبقة الأعلى — النبلاء — وعلى الطبقات الأدنى كذلك . ومكانة المرأة في هذه الطبقات المختلفة تثبت ذلك ، فقد كانت الحرية التي تتمتع بها المرأة التي تنتمي إلى **الساموراي** أقل من تلك التي تتمتع بها المرأة في الطبقات الأخرى . لقد كانت المرأة في طبقة الصناع والحرفيين تتمتع بمكانة مساوية لمكانة الرجل إلى حد كبير ، بينما كانت فروق الجنسين لا يعتد بها كثيراً في طبقة النبلاء ، وذلك بسبب أن المناسبات التي تستدعي الاعتداء بالفروق الجنسية كانت قليلة ، بل نادرة . ومن جهة أخرى تحول النبيل الفارغ بالتدريج إلى كائن لايفترق عن الأنثى كثيراً ، لذلك يمكن القول إن مفهوم **سبنسر** ينطبق انطباقاً تاماً على اليابان القديم ، أما بالنسبة لمفهوم **جويزوت** فإن من يقرأ كتاباته عن المجتمع الإقطاعي يرى أنه قد ركز اهتمامه على طبقة النبلاء العليا ، لذلك تنطبق أفكاره على طبقة النبلاء اليابانيين كما تنطبق على طبقة مجلس النبلاء .

ولاشك أننا نتجاوز الحقيقة التاريخية ونظلمها ظلماً فادحاً لو فهمنا من كل ما سبق أن **البوشيدو** كان لايحترم المرأة ، أو أنه كان يهوّن من شأنها . ولاشك أيضاً أنها لم تكن تتمتع بنفس مكانة الرجل ، ولم تكن تحظى بالمساواة معه ، ولكن موضوع علاقة

الرجل والمرأة سيظل موضوع خلاف كبير حاد . وهو خلاف ناتج في الغالب عن سوء التقدير والفهم ، لأننا ما نزال لا ندرك الفرق بين « الخلاف » « وعدم المساواة » .

إن قليلاً من التأمل يجعلنا ندرك أن المساواة بين الرجل والرجل ليست متحققة من كل جانب ، ويمكن أن نرى ذلك في قاعات المحاكم وفي المعارك الانتخابية ، لذلك يبدو أمراً غريباً ذلك الانشغال المرهق بمناقشة قضية المساواة بين الجنسين . إن إعلان الاستقلال الأمريكي حين ذهب إلى أن كل البشر خلقوا متساوين فإنه لم يكن يعني المساواة في السمات والمزايا العقلية أو الجسدية ، ولكنه كان فقط يعيد ماسبق أن قاله **أولبيان** Uloian منذ زمن طويل . كان المقصود بالمساواة التساوي في الحقوق القانونية . ولو كان معيار الحقوق القانوينة هو الميزان الوحيد الذي به توزن مكانة المرأة في مجتمع ما لكان الأمر في سهولة أن نحدد وزنها بالأرطال والأوقيات . ولكن هل ثمة معيار ما يصح به عقد المقارنة بين المكانة الاجتماعية لكل من الرجل والمرأة ، وماهو هذا المعيار ؟ هل يصح مثلاً ــ ويكون كافياً ــ أن نقارن بين مكانة الرجل ومكانة المرأة كما نقارن بين قيمة الذهب وقيمة الفضة ، ونعطي نتيجة المقارنة بالأرقام النسبية ؟ إن مثل هذه الطريقة تستبعد من المقارنة الحسابية أكثر القيم التي يمتلكها الإنسان أهمية ، تلك هى القيمة الأساسية الجوهرية . وإذا نظرنا إلى طبيعة المهام المتعددة المختلفة التي يستطيع كل جنس بها أن يؤدي وظيفته الدنيوية على هذه الأرض فإن المعيار الذي يتحتم علينا الاستناد إليه في وزن المكانة النسبية للجنس ــ الرجل والمرأة ــ يجب أن يكون معياراً متعدد الأبعاد ، أو مقياساً مركباً إذا صح أن نستعير بعض مفردات لغة علم الاقتصاد . لقد كان **للبوشيدو** معياره الخاص المنتزع من البيئة والظروف ، فقد حاول **البوشيدو** أن يقيس قيمة المرأة بدورها في ميدان القتال إلى جانب قياسه بدورها إلى جوار المدفأة في المنزل . في ميدان القتال لم يكن للمرأة دور يذكر . في حين أنها كانت المسئولة الأولى بالنسبة للبيت . وكانت المعاملة التي لقيتها المرأة من **البوشيدو** معاملة تتسق مع هذا المعيار المزدوج ، فلم تكن تتمتع بأى قيمة من حيث هي كائن اجتماعي سياسي ، ولكنها من حيث هي زوجة وأم كانت تتمتع بأقصى درجات الحب والاحترام . وإذا تساءلنا لماذا كانت الأمهات في مجتمع عسكري كالمجتمع الروماني يتمعن

بالتقدير العظيم والمكانة السامية فالإجابة بالقطع أنهن لم يتمتعن بذلك بوصفهن محاربات أو مشرِّعات ، بل بوصفهن أمهات ، لقد كان الجنود ينحنون احتراماً لأمهاتهم كما هو الحال في اليابان . لقد كانت السلطة في البيت ــ أثناء غياب الآباء والأزواج في معسكراتهم أو في ساحات القتال ــ كاملة في أيدي الأمهات والزوجات . كان عليهن تعليم الصغار والدفاع عنهم أيضاً في حالة وقوع أى عدوان ، لقد كان الغرض من التدريبات العسكرية التي كان النساء يتلقينها ــ والتي تحدثنا عنها فيما سبق ــ في الأساس هو التدريب العقلي على توجيه الأطفال وتربيتهم ومتابعة عملية تعليمهم .

وقد لاحظت أن كثيراً من الأجانب الذين ليست لهم دراية بأحوال مجتمعنا تنتشر بينهم بعض الأفكار الغريبة جداً والشاذة عنا وعن ثقافتنا . من ذلك أنهم يعتقدون أن المرأة اليابانية لاتتمتع بأى قيمة في عقل الرجل ، وأنه يزدريها ويحتقرها لأنهم يسمعون بعض الأزواج يقولون عن زوجاتهم « الساذجة الريفية » ولكن هل تكون إجابة شافية لهؤلاء إذا قلنا لهم إن عبارات مثل « أبي المغفل » و « ولدى الطماع » و « نفسي الأمارة بالسوء » مازالت تقال حتى أيامنا هذه ؟

إن مفهومنا عن وحدة الزوجين تتجاوز في بعض الجوانب ــ فيما يبدو لي ــ ما يقال في المسيحية « عن الرجل والمرأة اللذين يصبحان بالزواج جسداً واحداً » .. إن فردانية **الأنجلو ساكسون** لا تتسق إلا مع مفهوم أن الزوج والزوجة شخصان مستقلان ، لذلك حين يختلفان يعتد كل منهما بحقوقه الشخصية الفردية ، أما حين يكونان على وفاق فإنهما يستهلكان كل المفردات اللغوية التي تدل على التدليل المبتذل والتملق الذي لامعنى له . ومن السخف بالنسبة للياباني أن يتحدث أحد الزوجين إلى طرف ثالث عن نصفه الحبُّوب الذكي الرقيق اللطيف .. إلخ . والنتيجة عند الياباني واحدة مهما اختلفت العبارات ، إذ ليس من اللائق بالنسبة للياباني أن تتحدث عن نفسك « الذكية اللماعة » أو عن « مزاجك الرائق الطيب » وما أشبه ذلك . إن مدح الرجل لزوجته ، أو مدح الزوجة لزوجها يعد ــ في نظر الياباني ــ مَدْحاً للذات ، أو لجزء من النفس ، وهو أمر غير لائق بل مُجَافٍ للذوق عندنا كما هو عند الأمم المسيحية فيما أعتقد . كان لابد من هذا الاستطراد لأن طريقة **الساموراي** في التهوين من قدر الشريك ــ

الزوجة أو الزوج ــ بشكل مؤدب لائق كانت طريقة شائعة ومنتشرة .

لقد بدأت بعض السلالات الجرمانية التيوتونية Teutonie حياتها القبلية مليئة بالمخاوف المتوهمة من الجنس اللطيف (لم يعد لهذه المخاوف وجود في ألمانيا الآن) .. وبدأ الأمريكيون حياتهم الاجتماعية بوعي حاد بقلة نسبة عدد النساء إلى عدد الرجال[1] (وأخشى أن أقول إنهن الآن يفقدن بسرعة المكانة الاجتماعية التي كانت أمهاتهن يتمتعن بها في عصر بناء أمريكا ، وذلك بسبب تزايد عدد النساء الآن) . والآن صار احترام الرجل للمرأة هو معيار الأخلاقيات ، في حين كان معيار الأخلاقيات العسكرية **للبوشيدو** التمييز بين الخير والشر ، وكان هذا التمييز هو ما يحاول **البوشيدو** تحقيقه في كل مكان . هذا التميز بين الخير والشر يتوازى مع التميز بين واجب الإنسان إزاء نفسه وذاته وبين واجبه إزاء غيره ، وهي العلاقات الخمس التي أشرت إليها في الفصول الأولى من هذا الكتاب ، ولقد ركزت انتباه القارىء إلى علاقة الولاء من بين هذه العلاقات الخمس ، وهي العلاقة التي تقوم بين المتبوع والتابع ، ولم أناقش من الأربعة الأخرى إلا ما أتاح لي السياق الإشارة إليه بحكم أنها ليست علاقات خاصة **بالبوشيدو** . هذه العلاقات الأربعة معروفة لكل الأجناس البشرية ومنتشرة بينها ، ذلك أنها علاقات تعتمد على العواطف الغريزية ، لكن **البوشيدو** وضع هذه العلاقات داخل الشروط الخاصة لتعاليمه ولنسقه الفكري ، في هذا السياق أود أن أشير إلى تأكيد **البوشيدو** الخاص وإجلاله العميق لعلاقة الصداقة بين الرجل والرجل ، هذا التأكيد الذي أضاف إلى علاقة الأخوة تلك بعداً رومانسياً ، ساهم في تعميقه دون شك الفصل بين الجنسين في اليابان خاصة في مرحلة الشباب ، وهو فصل حرم على الشباب تلك العاطفة الطبيعية الغريزية التي كانت متاحة في الفروسية الأوروبية ، أو كانت متاحة في حرية العلاقات الجنسية في البلاد **الأنجلو ساكسونية** . ومن الممكن هنا أن أستشهد بقصص يابانية كثيرة تشبه قصص **دامون وفيثياس** Damon-Phythus **وأخيل وباتروكل** Achilles and Patroclos ، كما يمكنني أن أحكي عن روابط عميقة على طريقة **البوشيدو** تشبه تلك

---

(١) نشير هنا إلى الزمن الذي كانت فيه الفتيات تأتين من انجلترا ليتزوجن مقابل عدة أرطال من الدخان .

الرابطة بين **داود وجوناثان** **Dauid and Jonthan** .

وليس من الغريب مع ذلك ألا تظل المفاهيم والمعتقدات ـــ والفضائل والتعاليم المرتبطة بها والخاصة بالفروسية ـــ قاصرة على طبقة المحاربين العَسكريين دون غيرها من الطبقات . وهذا ينقلنا بسرعة إلى مناقشة جوانب تأثير **البوشيدو** في طبقات الأمة كلها .

□□□

الفصل الخامس عشر
(تأثير البوشيدو)

الفصل الخامس عشر
تأثير البوشيدو

□□ حاولنا فيما سبق اكتشاف قليل من القمم البارزة المرتفعة من مستوى الفضائل المرتبطة بالفروسية ، هذه الفضائل التي ازدهرت في حياتنا الاجتماعية وحلقت فوق المستوى المألوف المعتاد من الفضائل . وكما أن الشمس حين تشرق تلون بلونها الخمري القمم العاعلية البارزة أولاً ، ثم تلقي بعد ذلك بأشعتها على أسفل الوادي بشكل تدريجي ، كذلك النظام الأخلاقي **للبوشيدو** أضاء أولاً بنوره مختلف جوانب المؤسسة العسكرية ، ثم استطاع بعد ذلك أن يجذب إليه مع مرور الزمن أتباعاً من الطبقات الأخرى من جماهير الناس العاديين . وإذا كانت الديمقراطية تؤدي بشكل طبيعي إلى إبراز القيادات الحاكمة ، فإن الأرستقراطية تنفخ في الناس روح الأناقة والإمارة ، وليست الفضائل أقل عدوى وتأثيراً في انتشارها من الرزائل . يقول **إيمرسون** Emerson : « لاحاجة بنا إلا إلى حكيم واحد وسط مجموعة من الناس لكي يتحول الجميع إلى حكماء » ، هكذا تكون العدوى سريعة ، والقوة النفاذة للتأثير الأخلاقي لاتستطيع أى طائفة أو أى طبقة اجتماعية أن تقاومها .

لنتحدث ما شئنا عن المسيرة المظفرة للحرية **الأنجلو ساكسونية** ، والواقع أنها لاتجد تأثيراً أو صدى بين الجماهير . أليس هذا الانتصار في حقيقته من عمل الأتباع والنبلاء ؟ يقول بحق السيد **تايني** Taine : « إن المقاطع الثلاثة لكلمة جنتلمان gentleman — بالمعني الذي تستخدم به عَبْرَ المانش — تلخص تاريخ المجتمع الإنجليزي . وقد تستطيع الديمقراطية بما تخلقه من اعتزاز بالذات أن ترد علي مثل هذا الكلام بأن تطرح سؤالاً : وأين كان الجنتلمان حين كان **آدم** ينقب الأرض بحثاً عن غذائه وحين كانت **حواء** تحاول أن تنسج من ورق الشجر ثوباً يواري جسدها ؟ من المؤسف أن جنة عدن كانت تعاني من عدم وجود هذا الجنتلمان ، وبسبب عدم وجوده عانى الأب الأول — آدم — ودفع الثمن غالياً . ولو كان ثمة جنتلمان لما كانت الجنة ازدانت بالذوق والجمال فقط ،

ولكن كان آدم وحواء قد تعلما أيضاً بسهولة ــ دون تلك التجربة الأليمة التى مرا بها ــ أن عصيان الإله عار وتمرد ونقص في الولاء .

واليابان مدينة بكل ما تملك من سمات وخصائص **للساموراي** الذين لم يكونوا فقط زهور أمتنا وثمارها ، بل كانوا أيضاً جذورها . بسبب هؤلاء **الساموراي** وهبت السماء لليابان كل ما هو عظيم فيها . ورغم أن **الساموراي** كانوا من الوجهة الاجتماعية منعزلين عن الجماهير ، فإنهم هو الذين وضعوا للجماهير معاييرها الأخلاقية ، وهم الذين قدموا لهم المُثُل التي كانوا يهتدون بها .. ومن الضروري أن نقرر أن تعاليم **البوشيدو** تتضمن جانب عاماً وجانباً خاصاً كذلك . كان الجانب العام من تعاليم **البوشيدو** يركز على مصلحة العامة وتحقيق سعادة الجماهير ، أما جانبها الخاص فيركز على الوصول إلى تحقيق الفضيلة بوصفها غاية في ذاتها .

كان الفرسان في ذروة عصر الفروسية الأوروبي كثيرين ، ولكنهم كانوا يمثلون اقلية بالنسبة للجماهير ، لكن « كل الروايات ونصف مسرحيات الأدب الإنجليزي ــ بدءاً من السير **فيليب سيدني** وانتهاءاً بالسير **والتسكوت** ــ تركز كلها علي شخصية « الجنتلمان » ، فيما يقول **إيمرسون** . وإذا استبدلنا **بسيدني وسكوت** أسماء **تشيكا ماتسو** chikamatsu **وباكين** Bakin نكون قد وصلنا باختصار شديد إلى تحديد الملامح الأساسية والخصائص الرئيسية لتاريخ الأدب الياباني . لقد كانت كل وسائل التعليم والتسلية والترفيه ــ كالمسارح ومجالس القصص ومنابر الوعظ والروايات والأناشيد ــ تجعل من قصص **الساموراي** موضوعاتها الرئيسية . ولم يكن الفلاحون يملون من تكرار حكايات أفعال **يوشيتسوني** Yoshitsune ــ وتابعه الوفي الأمين **بنكاي** Benkei ــ وهم محلقون حول النار ، كما أنهم لم يكونوا يملون من تكرار حكاية الأخوين الشجاعين **سوجا** Soga . كان المساكين بوجوههم المكدودة المتعبة يظلون يستمعون إلى هذه الحكايات بأفواه مفتوحة من الدهشة حتى يحترق آخر عود من الحطب ، وتموت جَذْوَةُ النار التي يحلقون عليها ، ثم ينصرفون وقد توجهت قلوبهم وأضاءت من تأثير تلك الحكايات . كان الكتبة وصبية المحلات ، بعد أن ينتهي يوم عملهم ، وبعد أن يقوموا بإغلاق بوابات المحلات amado التي يعملون بها ، يجتمعون إلي وقت متأخر من الليل

ليستمعوا إلى قصة **نابوناجا وهيديوشي** Nabunaga and Hideyoshi ، ويظلون يستمعون حتي يسيطر النعاس علي عيونهم المتعبة ، وينقلهم من عالم العمل ومشاقّه إلى عالم البطولات ومعارك القتال . وكان الطفل الصغير الذي يكاد يحبو بصعوبة يتعلم النطق من خلال ترديد مغامرات **موموتارو** Momotaro قاهر بلاد الغول . وحتى الفتيات كان حب أفعال الفروسية وحب فضائلها يتغلغل في أعماق قلوبهن حتي كن ــ مثل **ديدمونة** ــ يلتهمن بآذانه بإصغاء جاد عميق حكايات مغامرات **الساموراي** .

هكذا أصبح **الساموراي** المثل الأعلى للأمة كلها في الكمال والجمال . تقول إحدى أغانينا الشعبية « **الساموراي** سيد الرجال كما أن زهرة الكريز ــ الساكورا ــ هي ملكة الأزاهير » . وإذا كانت طبقة المحاربين لم تساهم في أعمال التجارة بحكم تباعد أفرادها عن الأعمال التجارية ، فليس معنى ذلك أن مجال النشاط التجاري لم يتأثر بتعاليم **الساموراي** ، إذ ليس ثمة مجال من مجالات النشاط البشري ، وليس ثمة جانب من جوانب الفكر ، لم يتأثير **بالبوشيدو** بدرجة أو بأخرى . لقد كان فكر اليابان وأخلاقياتها ثمرة مباشرة أو غير مباشرة من ثمار الفروسية .

في كتابه العظيم « الأرستقراطية والتطور » يقول السيد **مللّوك** Mallock : « إن التطور الاجتماعي الذي يختلف غاية الاختلاف عن التطور البيولوجي يمكن تعريفه بأنه نتيجة غير مقصودة لأفعال العظماء من الرجال » . ويضيف علاوة علي ذلك أن التطور التاريخي لا يعد ثمرة للصراع « بين الجماعات بصفة عامة من أجل الحياة ، بل هو بالإضافة إلى ثمرة للصراع بين مجموعات صغيرة داخل المجتمع من أجل السيطرة على الجميع ومن أجل قيادتهم وتوجيههم وتنظيمهم بطريقة مثلى » . وأياً كان الخلاف حول سداد هذا الرأي ، فإن الدور الذي لعبه **الساموراي** في التطور الاجتماعي لإمبراطوريتنا حتى الآن يثبت صحة هذا الرأي إلى حد كبير .

وتظهر الكيفية التي تخللت بها روح **البوشيدو** كل الطبقات الاجتماعية في حقيقة أنها أدت في تطورها إلي ظهور جيل من الرجال يعرفون باسم **أوتوكو داتي** Otoko-date ، يعدون الآباء الطبيعيين للديمقراطية وزعماءها . كانوا رجالاً أشداء أقوياء تمثل كل ذرة في كيانهم الرجولة بقوتها الكاملة . ولأن هؤلاء الرجال كانوا في وقت ما هم المدافعين

عن حقوق الشعب ، وكانوا هم المتحدثين باسمه ، فقد كان يتبع كلا منهم مئات الأتباع ، بل آلاف يقدمون لهم خدماتهم عن طيب خاطر ، ويضحون في سبيلهم بكل غال ورخيص « بأرواحهم ودمائهم وبكل ما يملكون حتي بالشرف الدنيوي » . كان هؤلاء الرجال الأتباع بالنسبة **للأوتو كوداتي** كما كان **الساموراي** بالنسبة للسيد الإقطاعي النبيل Daimio . وقد استطاع هؤلاء السادة الجدد بما تمتعوا به من تأييد الجماهير ومساندتها غير المحدودة أن يكونوا قوة هائلة للرقابة تمنع جموح ذوي السيفين .

هكذا تسللت **البوشيدو** بطرق متعددة إلى الطبقات الأخرى متجاوزة إطار الطبقة الاجتماعية التي نشأت فيها ، تسللت إلى الجماهير وصارت بمثابة الخميرة التي صنعت المعيار الأخلاقي للشعب كله . إن مفاهيم الفروسية وعقائدها — وإن كانت بدأت مفاهيم وعقائد للصفوة — قد أصبحت مع مرور الزمن تمثل وحيا للأمة تجسد طموحها . وإذا كانت الجماهير لم تستطع الوصول إلى القمة الأخلاقية التي وصلت إليها نفوس **الساموراي** النبيلة ، فإن **ياماتو داماشي** Yamato Damashii — روح اليابان — صارت تعبر عن الجماهير كلها داخل نطاق الجزر اليابانية .

وإذا أخذنا بتعريف **ماثيو أرنولد** للدين من أنه ليس إلا « أخلاقيات تتدثر برداء العاطفة » فقليل جداً من النظم الأخلاقية يمكن أن ترقى إلى مستوى الدين . على رأس هذه النظم الأخلاقية القليلة جداً يقف **البوشيدو** . وحين أنشد **موتوري** Motori هذه الأبيات فكأنه كان يعبر في هذه الكلمات عن الأمة كلها : —

يا جزر اليابان المقدسة المباركة
إن على روحك « يا ماتو »
تلك التي يحاول الغرباء القضاء عليها
أن تنفخ — من نسيم الصباح ومن شمسه المشرقة —
الحياة في زهرة الكرز البرية المتوحشة .

إن زهرة الكرز Sakura هي الزهرة الأثيرة عند اليابانيين منذ زمن طويل ، وأنها رمز الشخصية اليابانية . ولاحظ كيف يستخدم الشاعر الكلمات لتعرف زهرة الكرز ، فهي « زهرة الكرز البرية الوحشية التي تستنشق نسيم الصباح وشمسه المشرقة » .

وليست روح **ياماتو** نباتاً رقيقاً أليفاً ، بل نبات بري ، بمعنى أنه طبيعي فطري لصيق الصلة بالتربة والأرض . ربما تشبه **الساكورا** في بعض خصائصها العرضية زهوراً أخرى في بيئات أخرى ، ولكنها تظل في حقيقتها نتاجاً طبيعياً لمناخ أرضنا . وليس حبنا لهذه الزهرة وعشقنا إياها نابعاً من مجرد صلتها بترابنا وأرضنا ، بل لأن جمالها الشفاف الرائق يلائم أكثر من أي زهرة أخرى حاستنا الجمالية . إننا لا نستطيع أن نشاطر الأوروبيين إعجابهم بزهورهم التي لا تتمتع بالبساطة التي تعد من أهم خصائص **الساكورا** . هذا بالإضافة إلى أن الزهور التي يعشقها الأوروبيون تخفي الأشواك وراء رقتها ولطافتها ، وتتميز بكثير من العناد يجعلها متمسكة بالحياة كما لو كانت تشمئز من الموت ، ولذلك تخشى السقوط قبل أوانها من على الغصن ، وتفضل التعفن على ساقها . إن ألوانها الزاهية وروائحها الزاعقة تجعلنا نجفل منها ، فهي لا تشبه زهرتنا من قريب أو من بعيد . إن زهرة **الساكورا** لا تخفي خلف جمالها أي شوك أو ضرر ، وهي على استعداد دائم لمفارقة الحياة استجابة لنداء الطبيعة ، وليست لها تلك الزخامة في ألوانها ، وعطرها الرقيق لا يضايق أبداً . إنها من حيث الشكل محدودة الألوان بسيطة في جمالها ، وجودها محدود بزمن ثابت ، وعطرها أثيري سريع الزوال كأنفاس الحياة . لذلك يلعب البخور والمستكة دوراً هاماً في الاحتفالات الدينية ، ففي العبير ثمة شيء روحي . وحين تنشر **الساكورا** عطرها الأنيق مع هواء الصباح والشمس تضيء في ارتفاعها أولاً جزر الشرق البعيدة ، تنتعش الحواس وتتفتح المشاعر بالنسيم الرقيق لهذا اليوم الجميل ، بشكل أكثر جلالاً وهدوءاً من تنفسها له واستنشاقها إياه في الأيام العادية الأخرى .

وإذا كان الخالق الأعظم قد صُوِّر في العهد القديم يتنسم رائحة ذكية حين يقرر أمراً من الأمور(١) فلا عجب أن يترك اليابانيون مشاغلهم وأعمالهم ويجتمعون للتمتع بزهرة **الساكورا** في موسم الروائح العطرة في فصل الربيع . لا تثريب عليهم أن تستريح

---

(١) ورد في سفر التكوين ، الإصحاح الثامن « وبنى نوح مذبحاً للرب . وأخذ من كل البهائم الطاهرة ومن كل الطيور الطاهرة وأصعد محرقات علي المذبح فتنسم الرب رائحة الرضا . وقال الرب في قلبه لا أعود ألعن الأرض أيضاً من أجل الإنسان لأن تصور قلب الإنسان شرير منذ حداثته ولا أعود أيضاً أميت كل حي كما فعلت مدة كل أيام الأرض زرع وحصاد وبرد وحر وصيف وشتاء ونهار وليل لا تزال » . ص ١٤ من الترجمة العربية ، دار الكتاب المقدس ، القاهرة .

الأعضاء ـ أعضاء الجسد ـ من الكدح والمشقة لبعض الوقت ، وأن ينسى القلب أيضاً آلامه ومتاعبه . وحين تنتهي متعتهم السريعة القصيرة بزهرة **الساكورا** وبأريجها يعودون إلى حياتهم مرة أخرى وقد تجدد نشاطهم وزادت حيويتهم . لذلك تعتبر **الساكورا** زهرة أمتنا من أكثر من جانب .

هل زهرة **الساكورا** هي رمز روح **ياماتو** ؟ هذه الزهرة برقتها وسرعة ذبولها وبميلها مع الريح حيث تميل ، وبعطرها الذي تنشره ، وبقابليتها للتلاشي والزوال ، هل روح اليابان زائلة وفانية بهذا الشكل البالغ البساطة ؟

□ □ □

الفصل السادس عشر
(هل البوشيدو ما زال حياً ؟)

الفصل السادس عشر
هل البوشيدو ما زال حياً ؟

□ □ ألم تمح الحضارة الغربية ـــ وهي تكتسح بلادنا ـــ كل أثر لنظام **البوشيدو** ؟ كم كان يكون مؤسفاً حقاً لو أن روح أمة يفنى هكذا بسرعة ويموت . وكم كانت تكون روحاً ضعيفة تلك التي تستسلم بسهولة وتحت وطأة التأثير الدخيل الغريب .

أن العناصر السيكلوجية التي تؤسس في مجملها شخصية أمة من الأمم توازي في دوامها وثباتها « الأعضاء الهامة الأساسية للأنواع والأجناس الحيوانية مثل زعانف السمك ومناقير الطيور وأنياب الحيوانات آكلة اللحوم » . يقول السيد **لي بون** Le Bon في كتابه الجديد ، وهو كتاب مليء بالبراهين الساذجة وبعض التعميمات الذكية[1] :

« إن الاكتشافات التي يتوصل إليها الإنسان بذكائه تعد إرثاً عاماً للجنس البشري ، في حين أن خصائص الشخصية وعيوبها تكوِّن إرثاً عاماً لكل شعب على حده . إن هذه الخصائص والعيوب بمثابة الصخور الثابتة التي لابد للمياه أن تغسلها عبر القرون يوماً بعد يوم حتى تستطيع أن تمحو عنها ولو خشونتها الخارجية السطحية » . هذه كلمات هامة تستحق تأملاً طويلاً وتفكيراً عميقاً . وقبل أن يبدأ **لي بون** في كتابه بزمن طويل كان ثمة نظريات عامة من هذا النوع ـــ نظريات ذات طابع تخطيطي عام ـــ قد تطورت وانتشرت ، وذلك بفضل جهود **تيودور وايتز Theodor Waitz** وهو **موري Hugh Murry** . ولقد أشرنا إلى بعض المصادر الأوروبية أثناء دراستنا للفضائل المختلفة التي أسسها **البوشيدو** ونشرها ، وذلك بهدف التحليل والمقارنة . وقد رأينا أنه لا يوجد خاصية واحدة من خصائص الشخصية يمكن اعتبارها أرثاً عاماً كلياً شاملاً بالمعنى الذي يذهب إليه **لي بون** . ولا شك أن مجموع الخصائص الأخلاقية **للبوشيدو**

The Psychelogy of Peoples.

تمثل جانباً متميزاً إلى حد كبير ، وهي خصائص تعد من منظور **إيمرسون** « نتيجة كلية يدخل في تكوينها كل عنصر قوي » . وهي نتيجة أطلق عليها فيلسوف « التوافق والانسجام Concord Philoso Phey التعريف التالي — خلافاً لما ذهب إليه **لي بون** من أنها الإرث الشامل للجنس أو الأمة — : « العنصر الذي يجمع بين أكثر الأشخاص اختلافاً في المجتمع الواحد ، إنه العنصر الذي يجعل كل فرد يفهم الآخر ويتفق معه ، إنه عنصر حاسم لدرجة أن عدم وجوده يُلْحَظُ بسهولة كما لو كان أحد أعضاء المَجْمَع الماسوني قد فقد علامته » .

إن السمة التي طبع **البوشيدو** بها قوميتنا ، وطبع بها **الساموراي** بصفة خاصة سمة لا يمكن القول إنها « عنصر أساسي للجنس » ، ولكن الذي لا شك فيه أنه عنصر حيوي خطير . ولو كان **البوشيدو** مجرد قوة مادية ما كان لها أن تتوقف عن العمل هكذا فجأة بعد ما وصلت إليه من سيطرة في السبعة قرون الأخيرة . ولو كان انتقالها عبر طريق الوراثة فقط ، لكان انتشارها أكثر اتساعا من ذلك . وتأمل ما يقوله السيد **تشيسون** Cheysson الاقتصادي الفرنسي الذي يرى أن كل قرن من الزمان يتضمن ثلاثة أجيال : « كل منا تسري في عروقه بالضرورة دماء عشرين مليوناً على الأقل من دماء أولئك الذين كانوا يعيشون في القرن العاشر الميلادي » .إن المزارع الذي يحرث الأرض « تثقل ظهره أثقال القرون فتحنيه » وفي عروقه يسري دم العصور القديمة ، ولذلك هو أخ لنا كما هو « أخ للثور » الذي يشد محراثه :

لقد أثر **البوشيدو** في حركة الأفراد والأمة بوصفة قوة خفية لا تقاوم . إن **بوشيدا شوين** yoshida-shoin الذي يعد من أكبر العقول الرائدة ذكاء في تاريخ اليابان المعاصر كتب ليلة إعدامه هذه الأبيات التي تعد اعترافاً أميناً للأمة : —

كنت على يقين أن هذا الطريق يفضي إلى الموت

وكانت روح ياماتو هي التي حَرَّضتني

ألا أخاف من المكروه وألا أخشاه

كان **البوشيدو** لا يزال الروح الحي لأمتنا والقوة المحركة حتى دون أن تُسجَّل تعاليمه أو تُدَوَّن . يقول السيد **رانسوم** Ransom : « في اليابان ثلاث ثقافات تتعايش جنباً إلى

جنب اليوم — أو لنقل في اليابان ثلاثة أنماط من الحياة — اليابان القديمة التي لم تنته ولم تمت ، واليابان الحديثة التي ما زالت في مرحلة الميلاد ، واليابان الانتقالية التي تجتاز الآن أشد مراحل احتضارها قسوة » ورغم أن هذه العبارة صحيحة في معظم جوانبها ، خاصة إذا كان الحديث عن المؤسسات المادية الملموسة ، فإنها تحتاج إلى بعض التعديل خاصة إذا كنا نتحدث عن المفاهيم الأخلاقية الأساسية ، ذلك أن **البوشيدو** — صانع اليابان القديمة وولدها — ما زال المبدأ الهادي لليابان الانتقالية ، وسيثبت أيضاً أنه القوة التي تساهم في تشكيل اليابان الحديثة .

إن الرجال العظام الذين قادوا سفينة الوطن خلال أعاصير عصر الإحياء ، وفي دوامة الحرص على استعادة المجد القومي لأمتنا ، كانوا رجالاً ليس لهم من هاد أو معلم سوى تعاليم الفروسية ومعتقداتها . لقد حاول بعض الكتاب في الآونة الأخيرة[1] أن يثبتوا أن البعثات التبشرية المسيحية قد ساهمت بدور كبير في صنع اليابان الحديثة . وكم كنت أود أن أنسب الفضل لأهله ، ولكن ليس ثمة فضل يمكن أن ينسب للبعثات التبشرية . وقد كان الأوفق بالنسبة لهؤلاء الكتاب الاهتمام بشرح عقيدتهم والتمسك بوصية الكتاب المقدس التي تتحدث عن التباين في الفضل وتدعو إلى التنافس فيه ، وذلك بدلاً من أن يشغلوا أنفسهم بدعوى لا سند لها ولا دليل على صحتها . وأنا أعتقد أن البعثات التبشرية يمكن أن تقدم لليابان خدمات جليلة في مجال التعليم ، خاصة في مجال تعليم الأخلاق ، لكن مجال التأثير الروحي العميق والأكثر نفاذاً سيظل سراً دفيناً . وأياً كان ما تقدم البعثات التبتشرية فسيظل تأثيرها تأثيراً غير مباشر . لم تكن المسيحية إذن هي التي أثرت في تكوين شخصية اليابان الحديثة ، بل كان ذلك من صنع **البوشيدو** . كان **البوشيدو** بنقائه وبساطته هو الحافز المحرك لليابان في سرّائها وضرائها . وما عليك لتتأكد من صحة ذلك إلا أن تقرأ سير الرجال الذين صنعوا اليابان الحديثة مثل **ساكوما** **Sakuma** **وسايجو** **Saigo** **وأوكوبو** **Okubo** **وكيدو** **Kido** ناهيك عن ذكريات

(1) Speer:Missions and Pol. tics in Asia Lecture iv., pp 189-192, Dennis:Christian Mission and Social Progress, vol. 1., p. 32, vol. ii., 70, etc.

الأحياء منهم مثل **إتو** Ito **وأوكوما** Okuma **وايتاجاكي** Itagaki .. إلخ . كان هؤلاء الرجال جميعاً متأثرين بطريقة **الساموراي** في التفكير والعمل . لقد أعلن **هنري نورمان** Henry Norman بعد دراسة طويلة للشرق الأقصى أن النظام الديكتاتوري في اليابان يختلف عن أشكال الاستبداد السياسي الأخرى في ذلك « التأثير الفعال الواسع الانتشار بين اليابانيين لأكثر معايير الشرف التي ابتدعها الإنسان نبلاً وحزماً ودقة » . وبذلك وضع **هنري نورمان** أصابعه على المنبع الأصلي الذي جعل اليابان على ما هي عليه الآن ، والذي سيساهم في تكوينها علي الصورة المقدرة لها[1] .

إن اليابان مدين في تحوله الحديث حقيقة للعالم كله . ومن الطبيعي أن تدخل في تكوين مثل هذا التحول الخطير عناصر مختلفة ومتعددة . لكن إذا كان علينا أن نشير إلى العامل الأول والعنصر الأساسي في هذا التحول فإننا لا نتردد أبداً أن نشير إلى **البوشيدو** . كان **البوشيدو** وراء فتح أبواب الوطن كله للتجارة الخارجية ، وكان وراء استيراد أحدث التجديدات في كل مجال من مجالات الحياة . لم يكن دليلنا الهادي حين بدأنا الاهتمام بالعلوم الغربية وبالسياسة مجرد تطوير مصادر قوتنا المادية ، أو مجرد زيادة ثروتنا ولم يكن دليلنا بالقطع مجرد التقليد الأعمى للعادات الغربية

لقد كتب أحد المراقبين شديدي الصلة بالشعوب والمؤسسات الشرقية ما يلي :

« كل يوم نسمع حديثاً عن تأثير أوروبا على اليابان ، ونتناسى أن التغيير الذي حدث في الجزر اليابانية كان تغيراً ذاتياً نابعاً من الظروف الداخلية بشكل عام . لم تعلِّم أوروبا اليابان ، ولكن اليابان هي التي اختارت بمحض إرادتها أن تتعلم من أوروبا طرق التنظيم العسكرية والمدنية ، وهي الطرق التي ثبت نجاحها حتى الآن . لقد قامت اليابان باستيراد علم الآلات من أوروبا كما استوردت تركيا من قبل المعدات الحربية . ويستمر السيد **تاونسند** Tawnsend : « ليس هذا في الحقيقة تأثير إلا اذا قلنا إن إنجلترا تأثرت بالصين لانها تستورد الشاي منها » ويتساءل المؤلف : « أين الرسول الأوروبي أو أين الفيلسوف ، أو أين رجل الدولة ، أو أين الداعية الذي قام بتجديد اليابان ؟ »[2] .

---

(1) The Far East, p. 375.

(2) Merdith Tawnsend, Asia Europe, p. 2 E.

لقد أدرك السيد **تاونسند** بشكل لافت أن الحركة التي أحدثت التغير في اليابان مستمدة من داخل نفوسنا بشكل كامل . ولو تغلغل قليلاً في سيكلوجيتنا لتمكن بقدرته العميقة على الملاحظة والاستنتاج أن يدرك بسهولة أن مصدر هذه الحركة القوية ليس الا **البوشيدو** . لقد كان الإحساس بالشرف ـــ وهو إحساس لا يمكن أن يحتمل النزول إلى مستوى أدنى ـــ من أقوى البواعث والمحركات ، وقد كانت البواعث المالية والاعتبارات التجارية والصناعية متأخرة في تأثيرها وظهورها في عملية التغير والتحوّل .

وتأثير **البوشيدو** لا يزال ملموساً واضحاً لكل من يريد أن يتأكد أنَ نظرة إلي الحياة اليابانية تكشف عن هذا التأثير ببساطة ووضوح . لنقرأ مثلا **هيرن** **Hearn** وهو واحد من أصدق المعبرين عن العقل الياباني وأبلغهم ، لنرى أن نشاط العقل الياباني ليس إلا صورة لنشاط **البوشيدو** . يقول **هيرن** : إن الأدب الذي يشتهر به اليابانيون والذي هو شريعة في تعاليم الفروسية ما زال موجودا حتى الآن . بل ويتجدد دوماً . وقد أثبتت قيم الشجاعة والصلابة والتحمل الجسدي ، وهي القيم التي يتمسك بها « **كل ياباني** » ، أنها لا تزال موجودة بما لا يدع مجالا للشك ، وذلك في الحرب الصينية اليابانية .[1] وقد كان السؤال الذي طرحه الكثيرون دوماً : « هل ثمة أمة أخرى أكثر من الأمة اليابانية إخلاصاً ووطنية ؟ » ، وعلينا أن نتوجه بالشكر والعرفان لعقائد الفروسية وتعاليمها لأنها مكنتنا من أن نجيب بفخر على هذا السؤال قائلين : « كلا » .

لكن الموضوعية ـــ من ناحية أخرى ـــ تفرض علينا أن نقرر هنا أن **البوشيدو** مسئول إلى حد كبير أيضاً عن بعض النقائص والعيوب في شخصيتنا القومية . إن ما نعانيه من نقص في مجال الفلسفة العميقة يمكن أن يكون المسئول عنه ذلك الإهمال للتدريب العقلي والفكري في ظل نظام **البوشيدو** التعليمي . لذلك لم يحقق أحد شبابنا شيئاً من التقدم في مجال دراسة الفلسفة بينما نجد أن شبابنا يتمتع بسمعة عالية في مجال البحث العلمي . وبالإضافة إلي ذلك فإن الإحساس بالشرف يمكن أن يعد مسئولا عن حساسيتنا المفرطة ، وعن قابليتنا للتأثير بسرعة . إن الإعجاب بالذات الذي يعيبه علينا

---

(١) اقرأ أيضاً من بين الكتب التي تناولت نفس الموضوع :

Eastla and Yamada on Heroic Japan, and Diosyon the New For East.

الأجانب ويتهموننا به قد يكون نتاجاً مرضياً ــ إذا كان الإتهام صحيحا ــ لذلك الإحساس بالشرف .

هل سبق أن رأيت خلال زيارتك لليابان بعض الشباب ذوي الثياب الرثة والشعور المهملة الطويلة ، يحملون كتاباً في يد ، وفي اليد الأخرى عصا ، يجوبون الطرقات ، يوحي مظهرهم بالزهد في الشئون المادية الدنيوية ؟ إنهم طلاب العلم Shosei الذين لا تسعهم الأرض ويتطاولون بأعناقهم إلى السماء . إن لمثل هذا الشاب تصوراته الخاصة ورؤيته للحياة والعالم . إنه يسكن في قصور الهواء ويتغذى على كلمات الحكمة ، تتوهج في عينيه نار الطموح ، وعقله ظامىء للمعرفة . ليس فقره المدقع إلا دافعاً مغذياً لطموحه ، وليس متاع الدنيا في عينيه إلا قيداً يعوق حريته . إن هذا الشاب تتمثل فيه وتجتمع كل قيم الولاء والإخلاص والوطنية ، إنه الحارس الأمين الذاتي على الشرف الوطني ، إنه يعتبر بكل مزاياه ــ وبكل عيوبه أيضاً ــ نموذجاً باقياً أخيراً **للبوشيدو** .

لقد قلت إن تأثير **البوشيدو** تأثير خفي صامت وذلك لأنه تأثير قوي عميق ما زال مستمراً . إن القلوب تستجيب ــ دون تساؤل أو تعليل ــ لأي نداء يخاطبهم من جهة التراث ، ولذلك نجد لنفس الفكرة الأخلاقية فعالية وتأثيراً بدرجات تختلف بينها اختلافاً كبيراً وذلك بناء على الطريقة التي نعبر بها عن الفكرة ، أو بناء على اختلاف المصطلح الذي يدل عليها ، تلك المصطلحات التي يمكن أن تكون قديمة فتبعث نظام **البوشيدو** ، أو تكون مصطلحات جديدة مترجمة فتثير رد فعل مغاير . يقال إن مواطناً يابانياً مسيحياً كان يتردى بأعماله في هاوية الهلاك ، ولم تفلح في إنقاذه كل المواعظ المسيحية المعتادة عن الخلاص والجنة والنار ، ولكن أمكن تغيير سلوكه بمخاطبة مبدأ « الإخلاص » وإثارته في نفسه ، ذلك « الإخلاص » الذي أقسم أن يكنه دائماً للسيد المسيح مولاه وسيده . لقد أحيت كلمة « الإخلاص » كل العواطف النبيلة التي كان قد أصابها الفتور والوهن في نفس ذلك المواطن . وقد أمكن لأحد رجال التعليم أن ينهي « إضراباً طلابياً » طويلاً به بعض الطلاب الذين يتميزون بالعناد في إحدى الكليات ، وذلك تعبيراً عن عدم اقتناعهم بأستاذ من أساتذتهم ، وتعبيراً عن رغبتهم في الاستغناء عنه . وقد انتهى الإضراب نتيجة لسؤالين وجههما إلى الطلاب مديرُ

الكلية ، كان السؤال الأول هو : هل هذا الأستاذ شخصية جديرة بالاحترام والتقدير أم لا ؟ إن كانت الإجابة بالإيجاب فالواجب يحتم عليكم احترامه والإبقاء عليه في الكلية » وكان السؤال الثاني : « هل هذا الأستاذ ضعيف الشخصية ؟ لو كانت الإجابة بالإيجاب ، فليس من الرجولة الضغط على إنسان ضعيف » . لقد تضاءلت مشكلة ضعف الكفاءة العلمية للأستاذ — وهي سبب الإضراب — حتي أصبحت مشكلة لا قيمة لها علي الإطلاق إذا قورنت بالقضايا الأخلاقية التي أثارها السؤالان المطروحان . وهكذا نستطيع بإثارة العواطف التي زرعها **البوشيدو** في نفوس اليابانيين أن نحقق تجديداً أخلاقياً في الأمة جد عظيم .

ومن أهم أسباب فشل البعثات التبشيرية المسيحية في بلادنا جهل رجال هذه البعثات جهلاً تاماً بتاريخنا وتراثنا . ويتساءل بعضهم دائماً : « لماذا نهتم بتلك المجلات والوثائق الهمجية الوثنية ؟ » ويمثل هذا الجهل الفاضح يقيمون حداً فاصلاً بين أفكارهم ومعتقداتهم وبين العادات والأفكار التي تعودنا عليها وأباؤنا منذ قرون خلت . وهكذا تبدو المسيحية ديناً غريباً لا يتلاءم مع الشخصية اليابانية . إنهم يسخرون من تاريخ أمتنا متناسين أن تاريخ أي أمة — بما في ذلك أكثر الشعوب الأفريقية بدائية ، أو تلك التي ليس لها تاريخ مدون — ليس إلا صفحة من تاريخ البشرية كلها ، صحفة كتبتها اليد الإلٰهية ذاتها ، وليس تاريخ الأجناس المهملة إلا كتاباً مبهماً يحتاج للعين الفاحصة القارئة كي تحل غموضه وإبهامه . وليست هذه الأجناس نفسها — من منظور العقل الفلسفي المؤمن — إلا سطوراً من تدوين القلم الإلٰهي ، سطوراً يمكن تتبعها وقراءتها كما لو كانت مكتوبة على رقائق من الجلد ، على جلد تلك الشعوب والأجناس ، إن الجنس الأصفر — إذا صح التشبيه السابق — يمثل صفحة هامة مكتوبة بالذهب بحروف الكتابة التصويرية ، لقد زعم أعضاء البعثات التبشيرية بسبب جهلهم بإنجازات الشعوب القديمة أن المسيحية دين جديد ، وهي فيما أعتقد « حكاية قديمة قديمة » بشرط أن تُقَدَّم للناس بكلمات مفهومة ، أو بشرط أن يتم التعبير عنها — وعن أفكارها ومعتقداتها — بمفردات لغوية تناسب التطور الاجتماعي والأخلاقي لكل شعب من الشعوب ، لو حدث ذلك لوجدت المسيحية في قلوب الناس موطناً سهلاً بصرف النظر عن القومية والجنس ، لم تكن

المسيحية مناسبة إطلاقاً لاجتذاب **البوشيدو** والتلاؤم معه خاصة في صورتها الإنجليزية أو الأمريكية التي حَمَّلَتها كثيراً من الأهواء والنزعات **الأنجلو ساكسونية** فأبعدتها عن بكارتها وطهارتها الأولى . كانت المسيحية مجرد فرع ضعيف جداً لايصلح لتطعيم شجرة **البوشيدو** ، هل كان على أصحاب الدين الجديد ودعاته إذن أن يجتثوا الشجرة من أصولها ، وأن يزرعوا بذور الإنجيل في التربة الخالية ؟ هذا عمل خارق كان يمكن أن يحدث في هاواي ، وقد حدث بالفعل ، حيث يقال إن محاربي الكنيسة نجحوا نجاحاً باهراً في إبادة الجنس الأصلي من أهل البلاد ، كما استطاعوا تكديس غنائم وثروات لاحصر لها ، ولكن كانت مثل هذه العملية مستحيلة استحالة تامة في اليابان ، هذا إلى جانب أنها عملية يستحيل أن تكون لها علاقة من قريب أو بعيد بالطريقة التي أراد بها السيد المسيح أن يقيم مملكته على الأرض .

وعلينا أن نستوعب العبارات التالية بقلوبنا ، ولانكتفي باستيعاب الآذان والعيون ، إنها عبارات قالها مسيحي مخلص وباحث محقق :

لقد اعتاد الناس تقسيم البشر إلى وثنيين ومسيحيين دون أن يضعوا في اعتبارهم أن كثيراً من الفضائل يمكن أن يحملها النوع الأول ، وأن النوع الثاني يمكن أن يكون مليئاً بالرذائل والمباذل ، لقد اعتاد الناس على أن يقارنوا أفضل ما فيهم بأسوأ ما في سواهم ، فقارنوا بين المسيحية في أنقى صورها وأزهاها وبين فساد اليونان أو الشرق ، ولم يقصدوا في هذه المقارنة التجزد والنزاهة والموضوعية بل اكتفوا بتعداد كل ما يمكن أن ينسب لهم من صفات المديح ، واكتفوا بكل ما يمكن أن ينسب من صفات القدح والهجاء إلى أهل الأديان الأخرى[1] .

ومهما كانت الأخطاء التي يرتكبها الأفراد ، فالذي لاشك فيه أن للدين الذي يعتنقونه مبدأ أساسياً يجب أن نضع في اعتبارنا قوته ونحن نحاول التكهن بمستقبل **البوشيدو** الذي تبدو أيامه بالفعل معدودة . إن ثمة دلائل وعلامات تنذر بنهاية **البوشيدو** وتهدد مستقبله . لكنها ليست العلامات والدلائل وحدها ، فثمة وراء ذلك قوة مروعة

Sowett, Sermens on Faith and Dectorine, ii.

تهدد وجوده تهديداً حقيقياً .

□□□

الفصل السابع عشر
(مستقبل البوشيدو)

الفصل السابع عشر
مستقبل البوشيدو

☐ ☐ يمكننا هنا أن نقدم بعض جوانب التشابه بين الفروسية الأوروبية **والبوشيدو** . ولاشك أن المقارنة هنا ستكون أفضل من تلك المقارنات التي قدمناها حتى الآن ، وإذا كان التاريخ يعيد نفسه فلا شك أن مصير **البوشيدو** سيكون نفس مصير الفروسية ، وليس من الضروري أن تنطبق حرفياً على **البوشيدو** تلك الأسباب العامة والخاصة التي أشار إليها **بالايا Palaya** والتي أدت إلى انهيار نظام الفروسية ، ولكن لاشك أن ثمة أسباباً عامة جداً ساهمت في القضاء على الفروسية في القرون الوسطى وما وليها من قرون . وهذه الأسباب العامة جداً هي ذاتها التي ستؤدي إلى انهيار **البوشيدو** .

وثمة فارق هام لابد من الإشارة إليه بين تجربة الفروسية في أوروبا وبين مثيلتها في اليابان ، فبينما أتيحت للفروسية الأوروبية فرصة أخرى للحياة حين تبنتها الكنيسة بعد انفصامها عن الإقطاع ـــ أو بالأحرى بعد زوال النظام الإقطاعي ـــ لم تجد أخلاقيات **البوشيدو** ونظامه الفكري والسلوكي ديناً يصلح لتبنيه وتغذيته بالحياة . لذلك حين انهارت المؤسسة الأم ـــ النظام الإقطاعي ـــ أصبح **البوشيدو** يتيماً ، عليه أن يرعى أمر نفسه ويتدبر شأنها ، قد تسيطر عليه المؤسسة العسكرية الكبيرة الحالية وتطويه تحت جناحها ، ولكننا نعلم جيداً أن لا إمكانية لاستمرار **البوشيدو** أو نموه في الحروب الحديثة ، إن « الشنتوية » الدين الذي حمى **البوشيدو** في طفولته ورعاه قد أحال نفسه الآن إلى التقاعد . واستبدل بحكماء الصين القدماء الأفذاذ مفكرون محدثون من أمثال **بنتام Bentam وميل Mill** ، كما تم ابتداع نظريات أخلاقية سهلة وتقديمها للناس ، وهي نظريات تلائم اتجاهات التعصب القومي السائد في هذا العصر ، وتتكيف مع مطالبه فيما يعتقد الناس ، ولذلك نسمع أصواتها زاعقة تتردد في جنبات الصحف اليومية التافهة .

لقد تآزرت القوى المختلفة في جبهة واحدة ضد عقائد الفروسية . إن النتيجة فيما

يقول **فيبلن** : Veblen « إن القضاء على القانون المقدس ـــ قانون الفروسية ـــ فيما يطلق عليه اسم تبسيط الحياة ـــ أو بالأحرى إفسادها ـــ بين الطبقات العامة بالمعنى الضيق للكلمة يُعَدّ ـــ من منظور ذوي الحساسية الخاصة المرهفة ـــ إحدى الجرائم الكبرى في حضارة عصرنا ، لقد كان المدُّ الطاغي الجبار للديمقراطية ـــ بما يتضمنه من اختفاء أي شكل من أشكال الثقة ـــ قوة كافية لابتلاع بقايا **البوشيدو** ، ذلك أن الأخير ليس إلا الثقة التي غرسها أولئك الذين احتكروا كل مخزون العقل والثقافة وحدَّدوا مراتب الصفات الأخلاقية وقيمتها ، إن كل القوى الاجتماعية الآن تعادي مفهوم الطبقة الضيق ، وليست الفروسية ـــ كما انتقدها **فريمان** Freeman بعنف ـــ إلاّ روح طبقة . ولا يمكن للمجتمع الحديث مهما ادعى أنه مجتمع متجانس موحد أن يقر بأي نوع من « الواجبات الشخصية الخالصة التي تؤدي لمصلحة طبقة مهما كانت »[1] فإذا أضفنا إلى ذلك تغير التوجُّهات العامة في المجتمع ، وتطور الفنون والصناعات ، وزيادة الثروات وتطور العادات في الحياة المدنية الجديدة ، أمكننا حينذاك أن ندرك أنه لاجدوى من ضربات أشد سيوف **الساموراي** فتكاً ، ولا من طعنات أقسى الرماح قوة .. لقد آلت الدولة التي قامت على أساس الشرف وتحصنت بمبادئه وقيمه ـــ ويمكن أن نطلق عليها دولة Ehrenstaat أو أن نسميها مدينة الأبطال تأسياً **بكارليل** ـــ إلى الزوال ، واستولى عليها حفنة من رجال القانون الدجالين ومن السياسيين الثرثارين المسلحين بأسحلة المنطق المدمرة .

لذلك يمكن أن نكرر هنا ما قاله مفكر كبير عن **تيراسا وأنتيجون** لأنه يصلح أيضاً هنا وينطبق تاماً على حالة **الساموراي** : « إن البيئة التي صاغت أفعالهم البطولية وشكلتها قد ضاعت إلى الأبد » .

وآ أسفاً على فضائل الفروسية وأخلاقياتها ، ووآ أسفاً على كبرياء **الساموراي** ، لقد كتب على تلك الفضائل والأخلاقيات ـــ التي جاءت إلى عالمنا مصحوبة بكل علامات الأبهة والعظمة أن تختفي من هذا العالم وترحل كما « يرحل الملوك والقواد » .

---

(1) Norman Conquest, vol. v., p. 482

وإذا كان التاريخ هنا يمكن أن يُلَقِّنَا درساً فإنه يعلمنا أن الدولة التي تُبْنى على أساس الفضائل والأخلاقيات العسكرية ـــ سواء كانت مدينة مثل **أسبرطة** أو كانت امبراطورية كاملة مثل **روما** ـــ لايمكن أن تستمر على الأرض « مدينة أبدية » .. ورغم أن غريزة القتال في الإنسان غريزة طبيعية وعامة ـــ وقد تكون مثمرة في مجال غرس العواطف النبيلة وفي تنمية فضائل الرجولة كما ثبت بحق ـــ فإنها غريزة لاتستوعبُ الإنسان كله ، إذ بين أعطافها تكمن غريزة أكثر نبلاً وقداسة ، تلك هي غريزة الحب . ولقد سبق أن أشرنا إلى أن كلاً من الشنتوية **ومينشيوس ووان يانج منج** قد أشاروا إشارات واضحة إلى هذه العاطفة وركزوا عليها في تعاليمهم ، لكن **البوشيدو** وغيرها من أنظمة السلوك والأخلاق الحربية تستغرقها دون شك الحاجات العملية المباشرة ، وغالباً ما تنسى نتيجة لذلك التأكيد على غريزة الحب في الإنسان . لقد تطورت الحياة في الآونة الخيرة وتغيرت ، وثمة دعوات أكثر انتشاراً بل وأكثر نبلاً من دعوات المحارب تشد انتباهنا اليوم ، في إطار هذه الرؤية الواسعة للحياة ، ومع نمو الديمقراطية ، ومع التعارف الأعمق والتآلف بين شعوب الأرض المختلفة يمكن لأفكار الكونفوشيوسية عن الخير ـــ ولعلي أضيف إليها كذلك أفكار البوذية عن الرحمة والشفقة ـــ أن يضيفا الكثير إلى مفهوم المسيحية عن الحب .

لقد تجاوز البشر مرحلة أن يكونوا رعايا وصاروا مواطنين ، بل يتجاوزا أيضاً هذه المرحلة وصاروا رجالاً وبشراً لاتفرق بينهم الحدود الجغرافية أو القومية . ورغم أن سحب الحرب تظلل الآن أفقنا فإننا نعتقد أن أجنحة ملائكة السلام يمكن أن تبدد هذه السحب .. إن تاريخ العالم يؤكد دوماً ماسبق أن تنبأت به المسيحية من أن « المساكين سيرثون الأرض » .. إن الأمة التي تتنازل عن حقها الطبيعي والأساسي في السلام وترتد عن رتبتها الأولى كدولة صناعية لكى تقف في طابور الكباش المتناطحة تخسر كل شيء في الواقع ، وتبيع وجودها بأبخس الأثمان .

لقد آن الأوان أن يستعد **البوشيدو** ليموت ميتة شريفة ، فلقد تغيرت ظروف المجتمع وتحولت لا إلى مجرد ظروف معاكسة **للبوشيدو** بل إلى ظروف معادية لوجوده . ولاشك أنه من المستحيل تحديد تاريخ معين لانتهاء الفروسية ، كما أنه من المستحيل تحديد

الزمن الدقيق لابتدائها ، يقول **د . ميللر** Miller إن الفروسية قد تم إلغاؤها رسمياً عام ١٥٥٩ م وذلك حين قُتِل **هنري الثاني** ملك فرنسا في إحدى المبارزات . وكان المرسوم الذي أعلن إلغاء الإقطاع في اليابان عام ١٨٧٠ م مجرد علامة أو إشارة لبداية خضوع **البوشيدو** ، في حين أن المرسوم الذي صدر بعد ذلك بخمس سنوات يقضي بتحريم حمل السيوف كان إعلاناً عن انتهاء كل القيم القديمة « شرف الحياة الذي لاتشتريه الأموال .. والدفاع عن الأمة والشعب دون مقابل ، واحتضان العواطف الرجولية والأفعال البطولية » .. كما أن هذا المرسوم كان إيذاناً بميلاد عصر جديد ، عصر « المغالطين والغشاشين ورجال الاقتصاد ، عصر الحاسبات » .

لقد أُعلن أن الفضل في انتصار اليابان في حربها ضد الصين يعود إلى بنادق **الموراتا** Murata ومدافع **كرب** Krupp ، وأن هذا الانتصار كان ثمرة من ثمار نظام التعليم العسكري الحديث ، لكن ذلك الذي أُعْلن يمثل نصف الحقيقة .. هل يمكن أن يقوم البيانو بعزف **رابسوديات** Rhapsodies **ليزت** Liszt أو بعزف **سوناتات بتهوفن** دون يد العازف الماهر المدرب ، حتى لو كان هذا البيانو من خلاصة صنعة **اهربار** Ehrebar أو **شتينواى** Steinway ؟ لو أن البنادق والمدافع هي التي تكسب المعارك فلماذا لم يستطع **لويس نابليون** بمدافعه **المتروليوز** أن يهزم البروسيين ؟ ولماذا لم يستطع الأسبان ببنادقهم **الماوزر** Mausers أن يهزموا الفلبينيين الذين لم تكن أسلحتهم تتجاوز **الريمنجتون** Remingtons البالية جداً ؟ ولسنا بحاجة إلى تكرار العبارة التي ابتذلت من كثرة التكرار والتي تقول إن الروح هي التي تهب القوة والفعالية ، وبدون هذه الروح لا تستطيع أفضل الأسلحة وأكثرها فعالية أن تفيد شيئاً ، إن البنادق والمدافع لاتنطلق وحدها مهما بلغت من التطور أو التقدم ، وأكثر الأنظمة التعليمية حداثة لايمكن أن يُحَوِّل « الجبان » إلى « بطل » . إن الذين كسبوا المعارك في **يالو** Yalu وكوريا ومنشوريا كانت توجه أيديهم وتخفق في قلوبهم أرواح الآباء والأجداد الذين كانوا مولعين بالحرب .. وهذه الأرواح لم تمت كما يتصور البعض ، بل يستطيع بعض الرجال من ذوي البصيرة أن يشاهدوا هذه الأرواح ويعاينوها وهي تتحرك بيننا وتؤثر في سلوكنا . وما عليك إلا أن تتعمق نفس ياباني ذي أفكار متقدمة جداً وستكتشف

بسهولة أن وراء هذا المظهر تكمن شخصية **الساموراي** ، إن تراث البسالة والشرف العظيم وكل الفضائل العسكرية ، كما قال الأستاذ **كرامب Cramb** بدقة فائقة : « ليس إلا أمانة في أعناقنا ، إنه تراث الأجداد الذي ينبغي أن يورث للأجيال القادمة » .. إن مهمة جيلنا الراهن حراسة هذا الميراث والحفاظ عليه دون أن تُبدِّد ولو ذرة واحدة من تلك الروح القديمة . وستكون مهمة الأجيال التالية تعميق هذا التراث والإضافة إليه ومحاولة الاستفادة به في كل مجالات الحياة وعلاقاتها .

لقد تكهن البعض ــ وأيدت أحداث النصف الثاني من هذا القرن (التاسع عشر) هذا التكهن ــ إن النظام الأخلاقي للإقطاع الياباني سيستحيل إلى تراب كما استحالت القلاع والأسلحة الخاصة به ، وإن أخلاقيات جديدة ستنبعث من هذا الرماد مثل طائر **الفينيكس** الأسطوري لكي تقود اليابان في طريق التقدم .. وبقدر ما في هذه التكهنات من صدق فإنها تكهنات مرغوبة التحقق ومطلوبة ، ولكن علينا ألا ننسى أن طائر **الفينيكس** هذا ليس طائراً من ذلك النوع الذي يطير بأجنحة مستعارة من طائر آخر ، إنه ليس عابر سبيل مؤقت الحضور ، بل هو طائر لاينبعث إلا من ترابه هو .. إن « مملكة الرب داخلك » لاتهبط إليك من الجبال مهما كان ارتفاعها ، ولا تأتي إليك عبر البحار مهما كان اتساعها .. يقول القرآن ﴿ **وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم** ﴾ . لقد أدرك العقل الياباني أن بذور مملكة الرب تجد ازدهارها في **البوشيدو** ، ومن المؤسف الآن أن نقول إن **البوشيدو** يشارف نهايته قبل أن يؤتي ثماره كاملة ، وإننا نولى وجوهنا شطر كل اتجاه باحثين عن مصادر أخرى للنور والقوة والحب والراحة والعزاء ، ولكننا لانجد فيما حولنا مايمكن أن يحل محل **البوشيدو** ، إن فلسفة الماديات والنفعيات التي تهتم بالمكسب والخسارة تجد تأييداً من أولئك الذين تسلل المنطق إلى نفوسهم وتركها خالية من الروح والعاطفة . والنظام الأخلاقي الوحيد القادر على مواجهة هذه النفعية المادية هي المسيحية التي يجب أن نعترف أن **البوشيدو** بالنسبة لها يعد مجرد « شمعة ضعيفة تحترق » ، ولكنها شمعة أمرنا **السيد المسيح** أن ننفخ في نارها حتى تصير شعلة وذلك بدلاً من أن نطفئها ، إن **البوشيدو** إذا قورنت بالمسيحية تقابل أنبياء بني إسرائيل الذين بشروا بالسيد المسيح مثل **أشعيا وأرميا وآموس Amos**

وهاباكوك **Habakkuk** ، وذلك لأنها اهتمت بشكل أولي أساسي بالسلوك الأخلاقي للحكام والشعوب والعامة ، أما أخلاقيات المسيحية التي تركزت أساساً على سلوك الأفراد وتهتم بأتباع السيد المسيح فتجد مع مرور الزمن مجالات أوسع للتطبيق خاصة مع نمو إمكانيات الفعالية الفردية في المجتمع والحياة .. لقد كانت أخلاقيات **نيتشه** ذات الطابع الاستبدادي والتي تؤكد على الذات الفردية ويطلق عليها اسم أخلاق السادة الممتازين ــ وهي تماثل في كثير من جوانبها أخلاقيات **البوشيدو** ــ مجرد شيء عارض أو رد فعل مؤقت لقيم التواضع وإنكار الذات ، ضد الأخلاقيات التي يطلق عليها **نيتشه** نفسه بعقله المريض المختلط أخلاقيات عبد الناصرة (يقصد السيد المسيح) . هذا تفسير لعلي لم أخطأ فيه خطأ جسيماً فيما أرجو .

إن المسيحية والمادية (التي تتضمن كل المذاهب النفعية) سيقتسمان العالم فيما بينهما ، ولعلهما في المستقبل يتطوران إلى نظم أكثر بدائية من كل من **العبرانية والهللينستية** القديمتين . ومن المتوقع أن تتحالف النظم الأخلاقية الأدنى حرصاً على استمرار وجودها مع واحد من هذين النظامين .. ترى مع أي النظامين يمكن أن يتحالف **البوشيدو** ؟ إن الأسهل **للبوشيو** أن يموت ، ذلك لأنه لا يمتلك عقيدة تستحق الدفاع عنها .. ويمكن **للبوشيدو** أن يختفي من الوجود اختفاءاً تاماً لأنه مثل زهرة الكرز ــ الساكورا ــ على استعداد دائم للموت عند أول نسمة من نسائم الصباح . وليس معنى ذلك أن مصير **البوشيدو** سيكون الانطفاء النهائي الأبدي ، فمن يستطيع الزعم أن الرواقية قد اندثرت اندثاراً كاملاً ؟ لقد اندثرت بوصفها نظاماً ، لكنها لا تزال باقية بوصفها خُلقاً وفضيلة . إن طاقة الرواقية وحيويتها مازالتا ملموستين في كثير من تيارات الفلسفة الغربية واتجاهاتها ، بل وفي كثير من شرائع العالم المتحضر وقوانينه . إن نضال الإنسان من أجل التفوق على ذاته ومن أجل أن يكون جسده ومطالبه المادية تحت سيطرة روحه وعقله ليس إلا انعكاساً نشطاً فعالاً لذلك النظام الأخلاقي الخالد الذي عبر عنه **زينون**

قد ينتهي **البوشيدو** من حيث هو قانون متميز للسلوك والأخلاق ، ولكن طاقته أو فعاليته لن تنتهي أو تندثر على الأرض ، قد تنهار مدارس **البوشيدو** التي تُعلم فنون البراعة

في القتال وتعلم معايير الشرف في الحياة المدنية ، لكن مجد هذه المدارس ونورها سيعيشان طويلاً .

وستظل هذه المدارس تمنح مثل زهرة **الكرز** ــ مقابلها الرمزي ــ البشر جميعاً عطرها وأريجها ، ذلك العطر الذي يظل يعبق الجو بعد أن تذرو الزهرة نفسها الرياحُ من الجوانب الأربعة .

هكذا سيظل عبير **البوشيدو** بعد أن تختفي أزياؤه ويُنْسى أسماء رجاله بقرون عديدة يأتينا على أجنحة الريح ويهب علينا كما لو كان مسافراً آتياً من أفق بعيد لانراه ، أفق « يتلألأ من خلفه ممر » كما عبر الشاعر **كواكير** Kuaker في لغة ثرية دافقة :

« إن المسافر يحس إحساساً طيباً
بقرب عهد السكينة والحب .
إنه لايدري على وجه اليقين متى ، ومتردداً ، يستقبل بجبهته الحاسرة
نسمة الهواء العطرة » .

□□□

الفهرس

الموضوع . الصفحة

■ دار سعاد الصباح

للنشر والتوزيع

هي مؤسسة ثقافية عربية مسجلة بدولة الكويت وجمهورية مصر العربية وتهدف إلى نشر ما هو جدير بالنشر من روائع التراث العربي والثقافة العربية المعاصرة والتجارب الابداعية للشباب العربي من المحيط إلى الخليج وكذا ترجمة ونشر روائع الثقافات الأخرى حتى تكون في متناول أبناء الأمة فهذه الدار هي حلقة وصل بين التراث والمعاصرة وبين كبار المبدعين وشبابهم وهي نافذة للعرب على العالم ونافذة للعالم على الأمة العربية وتلتزم الدار فيما تنشره بمعايير تضعها هيئة مستقلة من كبار المفكرين العرب في مجالات الإبداع المختلفة